البحث العلمي
فــي علـم الاجتمـــاع

ترجمة

د.عبد الله شلبى
أستاذ علم الاجتماع المساعد
جامعة عين شمس

أكتوبر ٢٠٠٧

اللهم ارزقنا سلامة الرؤية حتى نرى الأشياء على حقيقتها ...

الفصل الأول

ما البحث العلمي الاجتماعي ؟

١ - لماذا ندرس مناهج البحث العلمي؟

٢ - علم الاجتماع والبحث العلمي.

٣ - اكتشاف معنى المجتمع.

الفصل الأول

ما البحث العلمي الاجتماعي ؟ *

١- لماذا ندرس مناهج البحث العلمي ؟

نحاول هنا أن نقدم إجابة على الأسئلة التي يمكن أن تثار بشأن دراسة وتعلم مناهج البحث العلمي في علم الاجتماع. ومن هذه الأسئلة:

- هل من الضروري أن نتعلم مناهج البحث؟
- لماذا يتعين عليَّ الاهتمام بالأبحاث التي قام بإجرائها أناس آخرون؟
- لماذا يجب عليَّ أن أقوم بنفسي بإجراء بحث علمي يوماً ما؟

إن فريقًا من دارسي مناهج البحث وخلال قراءاتهم لهذا الكتاب سيجدون أنفسهم بالفعل يخططون لإجراء ما يمكن أن نطلق عليه مشروع البحث. وقد يحتاجون لنوع من الدعم والمساعدة التي تعينهم على كيفية التعامل مع هذا البحث. وسوف نواجه بالقليل من دارسي مناهج البحث ممن يهتمون بالفعل بمعرفة وإدراك وفهم ماهية البحث العلمي بالإطلاق، والبحث العلمي السوسيولوجي بالتخصيص، وبكيفية إجراء هذا البحث وتنفيذه. ومع ذلك فإن جانبًا ممن يدرسون مناهج البحث قد يقتربون من هذا الموضوع بشيء من المعارضة والرفض. وفي الحقيقة، ثمة تصور شائع عن الطلاب يذهب إلى أنهم يعترضون بشدة على دراسة مناهج البحث، وأنهم لا يرغبون في معرفة أي شيء عن مناهج البحث لأنهم ليسوا في حاجة لهذه المعرفة أبدًا، ويحاولون أن يدعموا هذا التصور. ولكن إذا ما كان هؤلاء الرافضون لتعلم مناهج البحث يخططون من أجل الاستمرار في التعليم والحصول على درجات عليا ومتقدمة،

(*) Murray Marison M., A., Methods in Sociology, Longman, London and New York, 1986. PP. 1-9.

أو من أجل الحصول على مهنة تتصل من قريب أو بعيد بالعلوم السلوكية؛ فإن مثل هذا التصور من المحتمل أن يكون خاطئًا وغير صحيح تمامًا.

ويهتم العلماء في العلوم السلوكية بالسلوك الإنساني. وهناك أنواع متباينة من العلوم والعلماء السلوكيين. وهم على تنوعهم واختلافهم يهتمون بما يفعله الناس في حياتهم، والأسباب التي دفعتهم للقيام بهذه الأفعال؟، وما يمكن أن نتعلمه من خلال دراستنا للناس في مواقفهم الحياتية الكثيرة. ومن الصحيح أن هؤلاء العلماء يسيطر عليهم الفضول وحب الاستطلاع لمعرفة كل ما يتعلق بالسلوك الإنساني وطبيعته ومحركاته ودوافعه.

وقد يكون من الممكن لطالب يدرس مناهج البحث أنه يخطط لأن يكون في مستقبل حياته معلمًا للتلاميذ، أو لأن يكون ضابط شرطة يتعامل مع الأحداث الجانحين، أو يُعد نفسه للعمل في مجال الإعلام والإعلان بكل ما يقضيه من توافر عناصر الإثارة والتشويق، أو يُعد نفسه لأن يكون باحثًا اجتماعيًا يقوم بإجراء بحث وكتابة تقرير علمي بشأن إساءة معاملة الأطفال كالإيذاء الجسدي لهم مثلاً وتقديم هذا التقرير إلى محكمة الأسرة، أو أن يُعد نفسه ليكون مديرًا للحملة الانتخابية لواحد من المرشحين السياسيين في الانتخابات البرلمانية ... ، إلخ. وبعد هذه الأمثلة التي ذكرناها هل ما زلت تريد أن تعرف شيئًا عن مناهج البحث؟ في تقديري أن الإجابة الحتمية ستكون: نعم، لسببين مهمين جدًا. يأتي في المقام الأول، أنه من المحتمل أنك ستصبح في مستقبل حياتك المهنية في حاجة لأن تقوم بتقييم، ومراجعة، وفحص بحوث علمية قام بها آخرون في وقت ما. والسبب الثاني، أنك بالضرورة، وبغض النظر عن العمل أو المهنة التي تمتهنها في مستقبل حياتك، في حاجة لأن تقوم بنفسك بإجراء بحث علمي في يوم من الأيام.

ولنفترض أنك تعمل في مهنتك ذات الصلة بالعلوم السلوكية، وأن إنجاز بحث ما هو أبعد ما يكون عن تفكيرك واهتماماتك الآن. لنفترض أنك مهتم

بتقييم وبحث حالات الانتحار، أو العمـل مـع الأطفـال الـذين يتمتعـون بطاقـات نشاط حادة وزائدة، أو أنك تقـوم بـالتخطيط لمجهـودات ذات طبيعـة سياسـية. أو أنك تعمل في برنامج معين للعمل الاجتماعي ويأتيـك زميلـك فـي العمـل ليطلـب منك ضـرورة تغييـر هـذا البرنـامج، والعمـل علـى إدراج بعـض المتغيـرات والسمات الجديدة عليه حتى يمكن الوصول إلـى أكبـر عـدد ممكـن مـن النـاس وتشغيل البرنامج بفاعلية أكثر. فما هـو الأسـاس الـذي تتـصور بنـاء عليـه أن البرنامج الجديد سيكون أكثر فعالية وأفـضل ممـا تقدمـه الآن؟ مـن المحتمـل أن يكون السبب في ذلك أن شخصًا ما قد أجـرى بحثًـا حـول تقيـيم هـذا البرنـامج، ومن المحتمل أيضًا أن زميلاً آخر ربما يكون قد قرأ، أو سـمع عـن تقريـر علمـي يتناول الأساليب والتقنيات الحديثة حول هـذه النوعيـة مـن البـرامج. وفـي هـذه الحالة يتعين عليك أن تلقي نظرة على هذا التقرير لكي تقـدر بنفـسك مـا إذا كـان بإمكانك أن تأخذ بهذه المقترحات الجديدة. وإذا لم يكن لـديك أيـة معرفـة بمنـاهج البحث؛ فإنه لن يكون لديك شيئًا سوى رأيك الشخصي للحكـم وتقريـر مـا إذا كـان البحث قد أجرى بطريقة جيدة تكفي لجعلنا نتخذ قرارًا بتغيير البرنامج.

لنأخذ مثالاً آخرًا، عندما تقوم بإنـشاء وتـصميم برنـامج خـاص بـك، فإنـه يجب اتخاذ الكثير من القـرارات. كيـف سـيكون بإمكانـك صـناعة مثـل هـذه القرارات ومن الممكن أن تستمر طبقًـا لموهبتـك الداخليـة، أو يمكنـك الاعتمـاد على بحوث قام بها أناس غيرك بشأن مـا يـصلح ومـا لا يـصلح، ولكـن كيـف ستقرر أي أسلوب بحثي يمكنك اتباعـه؟ إن دراسـتك ومعرفتـك وفهمـك لمنـاهج البحث وحده هو من يسمح لك بالقيام بذلك، ويمنحك القـدرة علـى أن تقـوم بتقيـيم البحث الذي تستخدمه. وإذا لم تتصد إلى طرق سـؤال محـدد تكـون إجابتـه أنـك يجب أن تقوم بعملك، فإن أي ممـارس لأي مهنـة لديـه إلزامًـا وواجبًـا ومطلبًـا ضروريًا يجعله على علم بالأعمال والأفكار الجديـدة والأكثـر حداثـة فـي مجـال عمله وحيث يتعين من هذه الزاوية على المدرسـين أن يحـدثوا باسـتمرار طـرقهم

في التدريس والتعلم، وعلى الباحثين الاجتماعيين الوقوف على أحدث المعالجات لمنع إساءة المعاملة للأطفال، وعلى ضباط الشرطة الإطلاع على أحدث الآليات في التعامل مع التشكيلات العصابية داخل المدن. وكل ذلك يعني القراءة والإطلاع المستمر، وتدوين الأفكار الملهمة والمحفزة بشأن كيفية إجراء بحث علمي حول هذه الموضوعات، وما يمكن أن يخبره كل منهم.

وبغض النظر عن أي جانب من العلوم السلوكية يكون اهتمامك ومجال عملك المهني الذي تمارسه، فأنت ولا شك مستهلك للبحوث العلمية التي أجراها آخرون غيرك وتكون ذات صلة مباشرة أو غير مباشرة بعملك وتنعكس عليه. ومن الأسف أنه ليس بالضرورة حتى ولو كان البحث جيدًا، أن يكون ملائمًا لك ولأحوالك المهنية. ولا يمكنك أن تكتشف ذلك إلا من خلال التعرف على هذا البحث وتقييمه حتى يمكنك أن تحكم بما إذا كان مناسبًا لك ولعملك أم لا. والذي يمكنك من عملية التقييم وإصدار مثل هذه الأحكام هو دراستك لمناهج البحث.

والسبب الآخر لدراسة مناهج البحث العلمي هو إعدادك الإعداد الأكاديمي الملائم كي تصبح قادرًا بنفسك على إعداد بحث علمي. ومعظم الناس عندما ينصرف تفكيرهم إلى البحث العلمي، يستحضرون صورة العلماء وهم يرتدون المعاطف البيضاء والنظارات الطبية ويسحبون المواد السائلة عبر أنابيب الاختبار وصبها في الدوارق، أو قيامهم بالتحديق في الميكروسكوبات الإلكترونية، أو قيامهم بتدوين رموز ومعادلات مبهمة في دفاتر كبيرة. إن مثل هذه الإجراءات البحثية هي بالطبع تتعلق بالعلوم الطبيعية كالكيمياء والفيزياء ....، ولكن في العلوم السلوكية فإن الأمر لا يكون مماثلاً لذلك. كعالم أو باحث في العلوم السلوكية من الممكن أن تكون هناك أمورًا مشتركة ولكن الوضع في البحث العلمي في مجال السلوك الإنساني سيكون مختلفاً بالقطع.

يعني البحث العلمي القيام بالعديد من الأنشطة والعمليات للإجابة عن الأسئلة التي نطرحها بشأن العالم المادي الطبيعي والاجتماعي من حولنا. وهناك الكثير من الأساليب البحثية المختلفة لتقديم إجابات على هذه الأسئلة. ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أنه ليست كل المحاولات البحثية للإجابة على الأسئلة المتعلقة بالعالم من حولنا يمكن اعتبارها بحوثًا علمية. ولكن يبقى أن البحث هو أداتنا المهمة للإجابة عن هذه الأسئلة. ويستخدم الباحثون في مجال العلوم السلوكية نماذج بحثية للإجابة على الأسئلة التي يطرحونها بشأن السلوك الإنساني. فمن الممكن مثلاً أنك تحتاج لأن تحدد أي برامج العمل الاجتماعي يصلح للعمل مع الأطفال المحرومين. وربما تكون مهتمًا مثلاً لمعرفة لماذا يصعب على الزوجات اللاتي يواجهن ظروفًا صعبة وقاسية بسبب أزواجهن القساة الذين يسيئون معاملاتهن، لماذا يصعب عليهن ترك هؤلاء الأزواج. ومن المحتمل مثلاً أنك تحتاج لأن تكتشف بنفسك كيف تبدو حياة شخص من المشردين في شوارع المدينة. وربما تشك في أن مقتل رجل في أحد أقسام الشرطة لم يكن حادثًا وإنما بتدبير وقصد. ومن الممكن أن تعتقد مثلاً بوجود علاقة بين عدد ضباط الشرطة بزيهم الرسمي في شوارع المدينة ومعدل الجريمة والجناح داخل هذه المدينة. إنه في اللحظة التي ستبدأ التفكير فيها في مثل هذه القضايا ستجد نفسك تقوم بعمل وتنفيذ نوع من البحث وصولاً إلى الإجابات العقلية والمنطقية عليها.

وهذه بالتحديد هي مهمة هذا الكتاب، إن يعرض لكيفية إجراء وتنفيذ البحوث سعيًا للإجابة عن الأسئلة التي نطرحها نحن أو غيرنا عن الناس عن المجتمع الذي يعيشون فيه. سنكتشف معًا ماهية البحث، والبحث العلمي، والمنهج العلمي والتفكير العلمي وكيفية استخدامه للإجابة على الأسئلة التي تثار ويجب الإجابة عليها، وسنتناول التكنيكات البحثية التي يستخدمها الباحثون كالعينات العشوائية وغير العشوائية، وأساليب التحليل الإحصائي. وبعد دراسة

هذا المقرر عندها تجد نفسك في مواجهة الأسئلة المثارة بشأن العالم الاجتماعي الذي نعيشه ستكون مستعدًا لتبدأ في البحث عن الإجابات على هذه الأسئلة.

٢- علم الاجتماع والبحث العلمي.

كان جيمي بول Jimmy Boyle زعيماً يتصف بالقسوة والعنف لواحدة من العصابات في مدينة جلاسكو خلال الستينيات من القرن العشرين المنصرم. وفي عام ١٩٧٧ أصدر كتاباً يصف فيه سيرته الذاتية وتاريخ حياته مع العصابة وفي السجون. وفيما يلي الوصف الذي قدمه في هذا الكتاب ويوضح خلاله المبررات التي دفعت عصابته إلى تغيير أسمها:

"... كان "وايلد كومب" خلال تلك الفترة نشطاً وفعالاً إلى حد تورطه في أعمال عنف وقتال شرس دفعت العصابات وأعضائها في هذه المنطقة من المدينة إلى منحه لقب أفضل مقاتل". وقد كشف تورط نفر من أفراد عصابته في أعمال عنف وشغب واسعة؛ عن مدى ما يشيع في هذه المنطقة وغيرها من همجية وعنف وفوضى الأمر الذي دفع السلطات المدنية للتدخل، وانتهى الأمر بأعداد كبيرة من أعضاء هذه العصابات إلى ساحة القضاء التي أدانتهم وأصدرت بحقهم أحكاماً بالسجن لمدد متفاوتة تتراوح ما بين العام، ونصف العام، والأربعة سنوات. إلا أن الصحف والجرائد في المدينة عالجت موضوع هذه العصابة على نحو يتسم بالإثارة والتشويق، ويبتعد عن الحقائق الموضوعية والواقعية. إذ قدمت للقراء شخصاً آخر ادعت أنه زعيم العصابة. في حين أن حقائق الأمور كانت على غير ما ادعت الصحف. فالحقيقة أن ثمة شخصاً آخراً كان هو القائد الفعلي للعصابة. وكان ما ذهبت إليه الصحف من ادعاءات يمثل جانباً من التصورات التي أشاعتها الصحف لتضخم الموضوع وتضفي عليه الإثارة والتشويق كما ذكرنا قبلاً، الأمر الذي دفع القراء إلى تصديق الأخبار والتحقيقات التي تنشرها الصحف والتي حاولت تملق مشاعرهم لفترة طويلة ولكن دون سند أساسي من المعلومات والبيانات الواقعية. ومن هنا كانت

الحاجة إلى تغيير اسم العصابة، ومع هذا التغيير صارت أنشطتها أكثر شراسة وعنفاً وتطرفاً"..(Jimmy Boyle, Asense of Freedom, Pan Books, 1977).

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل ما قدمه "بول" في كتابه يمكن أن يعد علم اجتماع Sociology ؟ ولكي نجيب عن هذا السؤال نحن في حاجة لأن نعرف المزيد عن محتوى علم الاجتماع، وعن طبيعة مناهج البحث العلمي التي يستخدمها علماء الاجتماع في بحوثهم.

وبإمكاننا أن نقيم نوعاً من المقابلة بين ما كتبه "جيمس بول" عن سيرته الذاتية في كتابه الذي أشرنا إليه قبلاً، وبين ما قدمه عالم الاجتماع "جيمس باتريك" James Patrick في كتابه الذي يحمل العنوان التالي: (A Galasgow gang Observed, Eyre Methuen, 1973). حيث قضى وقتاً كافياً مع إحدى عصابات مدينة جلاسكو مشاركاً في أنشطة وفعاليات هذه العصابة، ونقدم فيما يلي جانباً من وصفه للعصابة وأنشطتها:

" ... لم تكن الحياة مع العصابة كلها عنفاً خالصاً، أو جنساً، أو أي نمط من أنماط الجناح والانحراف والأعمال المجرمة، ولكنها كانت في أحيان كثيرة تبتعد تماماً عن ذلك كله. فالعيش مع العصابة كان يعني حزمة من المشاعر والأحاسيس الفياضة والمتدفقة والتي تولدت وتشكلت لدى منذ انضمامي إليها وظلت معي". كان هناك الإحساس الذي لا حد له بالضجر والسأم والملل الهائل، وفي الاستماع المتتالي لمحادثات عابرة ومشوشة لا رابط بينها، وفي التذمر الذي لا مبرر له، أو في الوقوف على ناصية شارع مُسنداً ظهرك للحائط مع أحد أفراد العصابة، وواضعاً إحدى يديك في جيبك في أوقات متأخرة من الليل أو خلال الساعات الأولى من الصباح. وبمضي الوقت حاولت أن اقترح على أفراد العصابة بعض الأنشطة والفعاليات والاحتفالات المفيدة للتسلية واستثمار الوقت، إلا أنني أيقنت أنه لا فائدة لأننا جميعاً نعاني من الكسل والترهل البالغ والوقوف وظهورنا إلى الحائط على ناصية الشارع عندما بدأ رذاذ المطر يتساقط، إلا أن أحداً منا لم يفتح فمه المغلق حتى لطلب الحماية

من المطر، أو الذهاب إلى محل كـان يقـع فـي مواجهتنـا للاحتمـاء بـه. ومـن موقعي كملاحظ كنت واقفاً هناك معهـم وحيـث تركـت قطـرات المطـر تنـساب على وجهي.

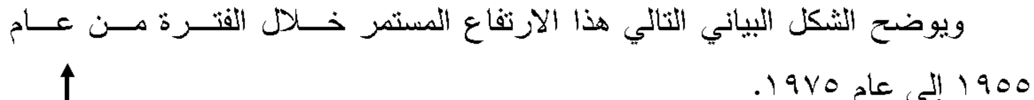
إلا أن بعض الأولاد من أفـراد العـصابة اسـتجاب أخيـراً وتجـاذب معـي أطراف الحديث. وراح يزودني بمعلومات مهمة وجيدة عـن العـصابة، فـي حـين لم يبد الآخرين أي اهتمام حتى ولو لمجـرد الاشـتراك فـي الحـديث. لقـد كـانوا يبغون أن يظلوا قانعين بأحوالهم وأوضـاعهم وبعقـولهم الفارغـة تمامـاً. وكانـت أعمال التسلية والترويح المتاحة والتي يقومون بها هـي التـدخين، ومـضغ اللبـان، وتذكر المآثر والبطولات التي أنجزوها فـي حيـاتهم المنـصرمة، والـسخرية مـن عابر سبيل يمر أمامهم في الطريق، والانغماس في مُـزاح ولهـو يتـسم بالـسماجة والخشونة مع بعضهم البعض، أو مـع الفتيـات. ولـم يرغـب أحـد مـن أفـراد العصابة الكبار أو الصغار في التخلي عن سخرياتهم اللاذعـة مـن الآخـرين، ومـا كانوا يتبادلونه من سباب وشتائم فاحشة يرددونها. وكل مـا ذكرتـه يُـشير، وعلـى وجه الدقة، إلى أن الفعاليات والأنـشطة الجانحـة والمنحرفـة كانـت تمثـل جانبـاً محدوداً من الساعات الطويلة التي كانوا يقضونها على ناصية الشارع ..."

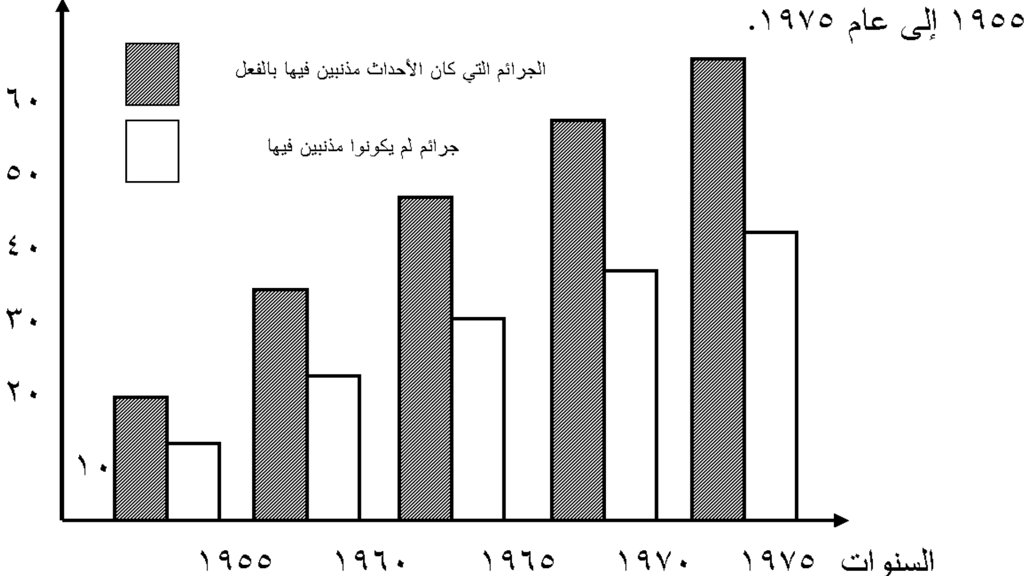
ولقد قدم باتريك نتائجه كملاحظ مـشارك كـان قـادراً علـى الانخـراط فـي بعض أنشطة العصابة بفعل اتصالاته وعلاقاته مع أحد أفرادهـا الـذين التقـى بهـم قبلاً عندما كان باتريك يعمل معلماً في المدرسة وهناك التقـى بهـذا الـصبي الـذي كانت لديه رغبة قوية لاطلاعه علـى أفعـال وممارسـات العـصابة التـي ينتمـي إليها.

ويكشف تأمـل المثـالين الـسابقين عـن وجـود بعـض الأفكـار الملهمـة والاستبصارات المفيدة بشأن حيـاة الجنـاح والانحـراف والاحتمـالات المـستقبلية والمرتقبة لتطورها. وذلك بالرغم مـن إحـدى الـروايتين كتبـت مـن قبـل عـالم اجتماع بينما الأخرى لم تكن كذلك. ويتعين علينـا أن نقـرر بالفعـل وجـود أوجـه

شبه مؤكدة بين العملين، ولكن لكي نقرر وعلى وجـه الدقـة إلـى أي مـدى يمكـن اعتبار هذا العمل أو ذاك عملاً جيداً في إطـار علـم الاجتمـاع؛ فإننـا فـي حاجـة ضرورية لمعرفـة المزيـد عـن كيفيـة تقـويم كـل منهمـا وكبقيـة اسـتخلاص المعلومات في كل حالة. ولكن قبـل القيـام بهـذا العمـل سـنعرض لـنمط آخـر مختلف تماماً من المعلومات والبيانات المتعلقة أيضاً بظـاهرة الجنـاح أو انحـراف الأحداث وهي المعلومات والبيانات التـي تقـدمها الإحـصاءات الرسـمية لـوزارة الداخلية هنا سنجد بياناً إحصائياً عـن الجـرائم الخطيـرة التـي ارتكبهـا أحـداث جانحون في مرحلة المراهقة وتم القبض علـيهم واتهـامهم ومثـولهم أمـام جهـات القضاء المختصة. وتشير البيانات إلى التزايد الملحـوظ فـي عـدد الجـرائم وفـي إعداد الأحداث الجانحين الذين تتراوح أعمارهم ما بين ١٤ إلى ١٧ سنة.

ويوضح الشكل البياني التالي هذا الارتفاع المستمر خـلال الفتـرة مـن عـام ١٩٥٥ إلى عام ١٩٧٥.





وقد جمعت هذه الإحصاءات مـن المحـاكم وأعـدتها وزارة الداخليـة ويهـتم بها علماء الاجتماع الذين يعكفون على دراسة ظواهر جنـاح الأحـداث. هنـا نجـد أنفسنا في مواجهة حقائق مهمة يتعين على علمـاء الاجتمـاع تفـسيرها. إلا أن هـذه

الإحصاءات يجب أن نتناولها بحذر خاصة إذا ما تعلق الأمر بالكيفية التي جمعت بواسطتها هذه الإحصاءات والبيانات.

لننظر الآن في هذه الأنماط الثلاثة من البيانات والمعلومات التي جاءت لنا عبر ثلاثة مصادر متباينة يجب علينا أن نفحصها ونختبرها. في الحالة الأولى، حالة "جيمس بول" زعيم العصابة نجد أننا بصدد وصف لحياة رجل يتسم بالقوة والشراسة في مدينة جلاسكو وقد كتب سيرته الذاتية تلك بينما كان مسجوناً يقضي فترة عقوبة الأشغال الشاقة لجريمة قتل ارتكبها. وإذا مضينا قدماً لاستخدام المادة الخام التي وفرها لنا هذا الوصف، فإننا، كعلماء اجتماع، سنكون في مواجهة أسئلة مهمة تطرح علينا ويتعين علينا الإجابة عنها ومن هذه الأسئلة ما يلي: هل يعد الوصف الذي قدمه "بول" وصفاً موضوعياً بمعنى أنه يصور واقع العصابة لأقرب ما يكون عليه بالفعل؟ وما هي الاختيارات التي واجهها وحكمت وصفه وكتابته لسيرته الذاتية أو تاريخ حياته؟ هل قام بحجب وإسقاط وتجاهل أشياء وأمور بعينها والتي كان من الممكن أن تزودنا بصورة أفضل مما قدمه؟ وحتى لو لم يفعل ذلك فإلى أي مدى يمكننا التعويل على ذاكرته واستنباطه في كتابة تاريخ حياته والوصف الذي قدمه؟ وإلى أي مدى يمكن الثقة في هذه الذاكرة وفي قدرتها على التذكر؟ وبمعنى آخر، يمكن القول بأن "بول" قد يكون قد قدم لنا وصفاً جيداً لحياته ومن وجهة نظره هو، إلا أنه لم يستخدم بالقطع أية منهجية بحثية يمكن الاعتماد عليها في عملية جمع البيانات والمعلومات التي اعتمد عليها في الوصف الذي قدمه. إنه فحسب قدم تصويراً لحياته ولعصابته اعتمد فيها بشكل أساسي على خبرته الذاتية وحدها.

وفي الحالة الثانية التي قدمها "باتريك" James Patrick ، نجد أنفسنا في مواجهة وصف آخر لخبرة ذاتية لإنسان بعينه ولكن مع فارق أساسي ومهم بينه وبين الحالة الأولى. ففي الحالة الثانية نجد أن باتريك كان واعياً بأنه يستخدم منهجية اجتماعية محددة هي الملاحظة بالمشاركة، وبذل جهداً رائعاً في تسجيل

وتدوين ملاحظاته التي اتسمت بقدر كبيـر مـن النزاهـة والحيـاد والموضـوعية. كما قام في النهاية بإجراء مقارنة بين النتـائج التـي انتهـى إليهـا، والنتـائج التـي انتهى إليها علماء اجتمـاع آخـرين درسـوا عـصابات الأحـداث الجـانحين فـي المدن. لذلك فنحن نقرر هنا أن البيانات التـي قـدمها "باتريـك" قـد تكـون أكثـر حيادية وتجرداً عن تلك التي قدمها "بول" في الحالة الأولـى. إلا أننـا وبـرغم ذلـك يساورنا القلق ويتسرب الشك إلى نفوسنا عندما ندرك أن باتريـك قـد أنـشأ علاقـة صداقة وطيدة مع الحدث الجانح الذي كان تلميذاً لباتريك فـي المدرسـة التـي كـان يعمل بها، هذا بالإضافة إلى الخلفية الاجتماعية لباتريك ذاتـه والتـي تكـشف عـن أنه ولد وتربى في جلاسكو، ومن المحتمـل أن تكـون كـل هـذه المتغيـرات قـد انعكست بدورها على ما قدمـه باتريـك مـن وصـف وتـصوير لظـاهرة جنـاح الأحداث وانحرافهم.

وفي مقابل ذلك فإننا نجد الإحصاءات الرسـمية والبيانـات والمعلومـات عـن العصابات وأنشطتها وممارسـتها والتـي قـدمتها وزارة الداخليـة تكـاد تتـصف بالموضـوعية الرصـينة. فالإحـصاءات والمؤشـرات المتعلقـة بالعـصابات وممارساتها تم الحصول عليها من دراسـة سـلوك مـا يقـرب مـن ألـف ١٠٠٠ حدث جانح موزعين على مناطق مختلفة في المدينـة، وقـد خـضعت نتـائج هـذه الدراسة للفحـص والتـدقيق الأمـر الـذي يـدفع إلـى تقريـر أن هـذه البيانـات والمؤشرات الإحصائية التي حصلنا عليها من هذه المـصادر الرسـمية تتـسم إلـى حد كبير بالموضوعية الرصينة، خاصة إذا أخذنا فـي الاعتبـار أنـه مـع دراسـة هذا العدد الكبير من الأحداث الجانحين فإنه مـن الممكـن أن يـتم تجنـب وتلافـي الآثار المحتملة والناجمة عما يتصف به هـؤلاء الجـانحين مـن مراوغـة وكـذب وشذوذ وغرابة أطوار مـراهقتهم، بـل وتبـاين واخـتلاف هـذه المتغيـرات بـين عصابة وأخرى. ولقد أصبح ممكناً بالفعل دراسـة التغيـرات والتحـولات الحادثـة في أنماط الجناح والانحراف، وفي ممارسـات وأنـشطة الجـانحين بـل ورصـدها

وإخضاعها للمعالجات الإحصائية والقياسات العلمية الدقيقة والمحكمة. إن تأمل الشكل البياني السابق يكشف عن زيادة ملحوظة في أعداد الشباب الجانحين الذين تتراوح أعمارهم ما بين ١٤ إلى ١٧ عاماً وعن تزايد ملحوظ في معدل الجرائم التي يرتكبونها خلال الفترة من عام ١٩٦٤ إلى عام ١٩٧٥، وقد بلغت هذه الزيادة ٥٠٠% بالنسبة لسنة الأساس ١٩٦٤. وكان هؤلاء الأحداث مذنبين بالفعل وعرضوا على جهات التحقيق والسلطات القضائية المختصة التي أدانتهم.

وفي تقديري، أننا كعلماء اجتماع، يتعين علينا أن نطرح مجموعة من التساؤلات البحثية والمنهجية بشأن حقيقة وواقعية هذه الإحصاءات وما تحمله من مؤشرات ووقائع، وإلى أي مدى يمكن التعويل والاعتماد عليها ونحن في حاجة مثلاً للنظر في الكيفية التي من خلالها جُمعت هذه الإحصاءات، وكيف كانت عمليات تنظيم هذه البيانات وتصنيفها، وهل المؤشرات والقياسات المستخدمة كانت ملائمة بالفعل لقياس ما صممت من أجله وهو قياس السلوك الجانح ذلك لأن الإحصاءات من المحتمل ألا تكون دقيقة وصالحه لوصف هذا النوع من السلوك.

وإذا كان بمقدورنا أن نوافق معاً على أن الأمثلة الثلاثة السابقة التي عرضنا لها يمكن اعتبارها دراسات سوسيولوجية، أي تدخل ضمن سياق علم الاجتماع وذلك بالنظر إلى محتوى الدراسات الثلاثة، فهل من الممكن أن ينسحب هذا الحكم أيضاً على أي عمل روائي خاصة إذا كنا بصدد رواية ترصد بدقة وتعالج موضوعاً يرتبط وعلى نحو بالغ الدقة بأعمال العنف والمقاومة الفلسطينية والأعمال الانتقامية الإسرائيلية.

" أنا أقرر هنا أن استغلال الآخرين وتسخيرهم ينطوي على سحق لإرادتهم وامتصاص دمائهم وسرقة فائض عملهم وجهدهم. ولكي تعي وتدرك جوهر الاستغلال يتعين عليك قراءة أصل الملكية الخاصة وأنت ستعرف حتماً

جانباً مهما من تاريخ الاستغلال. فصاحب العمل يكره العامل الأجير ويجبره على العمل حتى حد الإنهاك لكي تتعاظم ثرواته وتتضخم من سرقة ناتج عمل الآخرين. كما يقوم في الوقت بذاته بتزييف وعيهم وعمل غسيل لأدمغتهم يجعلهم في النهاية يؤمنون بأن الملكية والعمل على تعظيمها والحفاظ عليها يعد أمراً شرعياً ومقبولاً. الأمر الذي يضع العامل الأجير والمقهور بين شقي الرحي، وبهذا يسرق صاحب العمل والمالك، يسرق المقهورين مرتين ... "

(Joh Le Carre, The Little Drummer girl, Hodder and Stoughton, 1983).

لقد قدم لنا المؤلف من خلال روايته وعلى لسان إحدى شخصياتها وصفاً مقارناً للتحليل يعتمد الماركسية في فهم قضايا الملكية الخاصة الفردية الاستغلالية، والسلطة، وعمليات وآليات الاستغلال. ولكن هل يمكن اعتبار الراوية التي تتضمن مفاهيم سوسيولوجية، عملاً سوسيولوجياً أي يدخل في سباق علم الاجتماع على صعيدي موضوعه ومنهجه، إن الإجابة هي بالقطع لا، أي لا يمكن اعتبار الرواية عملاً سوسيولوجياً وذلك لأن المفاهيم والقضايا عن الاستغلال والملكية والسلطة قد وردت وجاءت عرضاً في سياق العمل الروائي برغم تناوله لقضايا العنف والمقاومة والإرهاب على الصعيد الدولي. إلا أنه يبقى الإشارة إلى أن هذه القضايا تشكل في مجموعها موضوعات مهمة بالنسبة لعلماء الاجتماع وبحوثهم. إن قراءة المقدمة التي كتبها مؤلف الرواية تكشف عن أن المؤلف قد أخذ على عاتقه مهمة القيام بعملية تقصي وبحث واسع النطاق إلى حد ما قبل الشروع في كتابة روايته. وقد أشار المؤلف في هذه المقدمة إلى قيامه بإجراء اتصالات عديدة شملت ضباطاً في جهاز الاستخبارات الإسرائيلي، ومع قائد هذا الجهاز نفسه، كما تحدث أيضاً إلى قادة عسكريين فلسطينيين، وقام بزيارات إلى المعسكرات الفلسطينية. إننا كعلماء اجتماع يتعين علينا الاعتراف بعجزنا بالفعل أمام بعض الأعمال الروائية العظيمة التي استطاعت أن ترصد وتكثف الواقع الاجتماعي وظواهره، إن مثل هذه الروايات من الممكن أن تكون ذات قيمة عظيمة وفائدة كبيرة لعلماء

الاجتماع، فهي تنطوي على أفكار ملهمة تساعد على فهم الواقع الاجتماعي، كما تدفع إلى إثارة النقاش والحوار والجدل بشأن قضايا اجتماعية وإنسانية بالغة الأهمية، وهناك روايات تساعد بالفعل على إثراء وإنضاج وعينا وإدراكنا للواقع الاجتماعي. وسوف نتناول في الجزء التالي عملية البحث العلمي الاجتماعي في المجتمع، وإنتاج المعرفة السوسيولوجية، ومحاولة تأسيس مداخل علمية محكمة للفهم السوسيولوجي للمجتمع.

٣- اكتشاف معنى المجتمع.

يحاول كل أفراد المجتمع اكتشاف معنى ما يدور ويحدث من حولهم، ونحن جميعاً لدينا أفكاراً غامضة ومبهمة وغير واضحة عن الجماعة الاجتماعية التي تنتمي إليها، وعن المجتمع الذي نعيش فيه، وعن كيفية إدارة حياتنا وأعمالنا داخل هذا المجتمع. كما يوجد لدينا جميعاً إدراك وفهم وحس عام ومشترك عن الواقع الاجتماعي الذي نُعد جزءاً منه.

وفي افتتاحية كتابة المهم عن النظرية الاجتماعية يصف براون Chris Brown كيف بدأ مع طلابه الجدد بأن طلب منهم يرسموا الصور والرسوم التخطيطية التي يرونها من وجهة نظرهم معبرة عن معنى مفهوم المجتمع. ولقد تصورت غالبية الطلاب أن هذا يعد تمريناً بسيطاً وسهلاً، وقاموا برسم أشكال من الدوائر والمثلثات والجماعات القليلة المصطفة في صفوف صغيرة من البشر وغيرها ... وعلى الرغم من كون مفهوم المجتمع يعد مفهوماً مجرداً يشير إلى نسق العلاقات البينية وغير المنظورة بين البشر، إلا أننا لا يمكن أن نشرع في إجراء بحث علمي اجتماعي، أو حتى مباشرة القراءة والدراسة في علم الاجتماع ما لم يكن لدينا نموذجاً أو تصوراً لما نسميه المجتمع.

وبالإمكان أن نطلق على هذه النماذج والتصورات المتنوعة والمتباينة التي نكونها بأنفسنا عن عالمنا الاجتماعي،والتي تمثل وتعبر عن فهمنا للعالم الاجتماعي بأنها نماذج ذاتية وفي مجرى حياتنا اليومية لا يكون لدينا متسعاً من

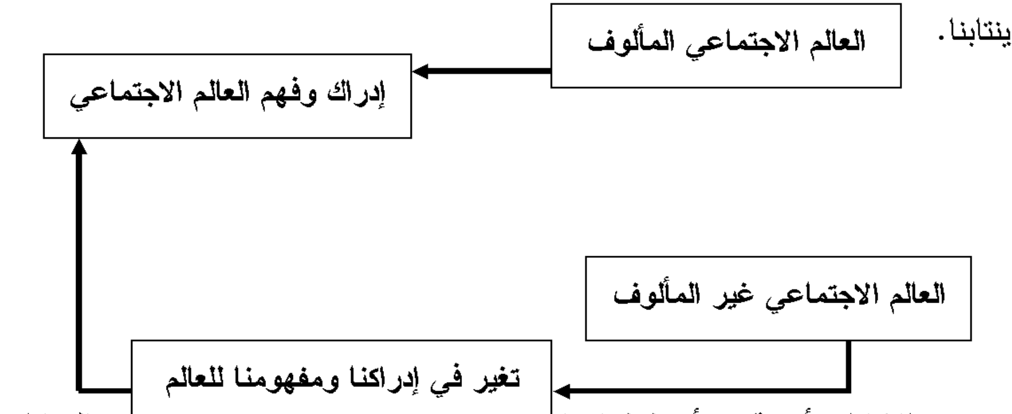
الوقت لكي نقف ونفكر ونتأمل الكثير من الأمور والوقائع والأحداث التي نخبرها عندما نتعامل مثلاً مع الشخص الذي نحصل منه على تذكرة الأتوبيس الذي نركبه، أو عندما نحصل على بيانات ومعلومات عن طريق النداء الآلي للهاتف، أو ما الذي نعنيه بمفهوم ربة المنزل، وتزداد الأمور صعوبة وتتعقد عندما نخبر مواقف غير مألوفة ولم نعتادها كأن نلتحق بمدرسة أو كلية جديدة، أو نبدأ عملاً وظيفياً جديداً، أو عندما نذهب في رحلة مع مجموعة من الغرباء خلال الإجازة، أو نقوم بزيارة عائلية لأسرة تنتمي إلى أصول عرقية مغايرة ومختلفة عن أصولنا. وفي كل هذه المواقف التي نخبرها نحن نواجه ما هو جديد وغير مألوف بالنسبة لنا. وفي كتابهما Sociology Reinterpreted وضع كل من برجر وكلنر Berger and Kellner المسألة على النحو التالي:

يذهب الفريد شوتز Alfred Schatz ١٨٩٩ – ١٩٥٩ إلى أن مهمة علم الاجتماع هي التركيز على دراسة كيفية قيام الفاعلين الاجتماعيين بإضفاء معنى على خبرات حياتهم اليومية وتصنيفها، ومن ثم يؤسس "شوتز" مدخلاً سوسيولوجيا يعتمد كلية على الكيفية التي يخلق بها الفاعلون الاجتماعيون المعاني ويؤولونها ويشتركون فيها، كما ينسحب ذلك أيضاً على تأويل أفعال الآخرين. أي أننا في علم الاجتماع ننشغل بدراسة عالم يتشكل من خلال المعاني التي تعد في رأيه وسيلة لفهم الواقع الاجتماعي. فالجماعات الإنسانية تنتج عبر تاريخها رصيداً مشتركاً من المعاني التي تمكن أعضاء هذه الجماعة أو تلك من فهم بعضهم بعضاً، وأن يتوقعوا أفعالهم بدرجة أو بأخرى. وفي عبارة موجزة، يتعين على علم الاجتماع أن يهتم بوصف الحياة الاجتماعية من خلال المعاني الذاتية. وهو هنا يميز بين نوعين رئيسيين من المعاني، الأول هو المعاني التي لدى أعضاء المجتمع العاديين بشأن عالم حياتهم اليومية وما تتضمنه من معارف فطرية وأساليب ورؤى وافتراضات بديهية يسلمون بها، وعن طريقها يفهمون الظروف التي يخبرونها ويدركونها ويتصرفون حيالها.

وهذه المعاني من المؤكد، أو المحتمل أيضاً، تكون في متناولهم وقابلة للاستخدام الطبيعي. وفي مقابل ذلك هناك المعاني التي لدى الملاحظ الخارجي للمجتمع والذي يصف حياة هذا المجتمع ولكن من زاوية الفاعلين الاجتماعيين لهذا المجتمع، وأيضاً المعاني المتعلقة بمجتمعات أخرى، أو بالقطاعات غير المألوفة للفرد داخل مجتمعه ، وأيضاً المعاني التي من الماضي.

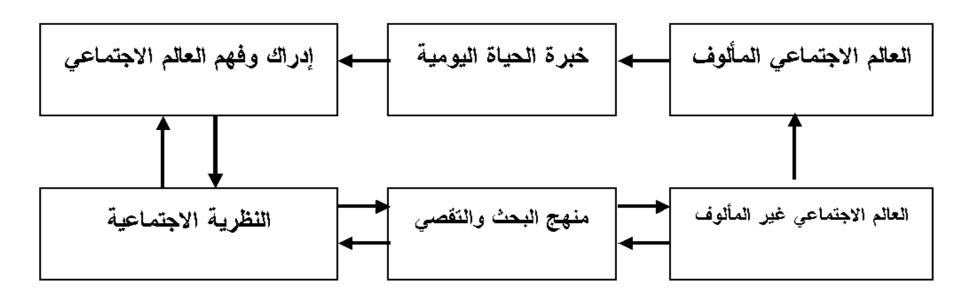
(Berger and Kellner, Sociology Renterpreted, Penguin, 1982).

وعندما نتكيف، أو نتوافق مع مواقف جديدة أو عندما نواجه برؤى ووجهات نظر الآخرين، فإننا نغير قليلاً من وجهة نظرنا أو رؤيتنا، وكما وضح كل من "بيرجر وكلنر": إنني لا يمكنني أن أقوم بتأويل معاني الآخرين ورؤاهم بدون أن أقوم بتغير نسق المعاني الذاتي الخاص بي وإن يكن ذلك في الحدود الدنيا. ويلخص الشكل التالي هذا الجدل الذي طرحناه قبلاً. فالعالم الاجتماعي المألوف والموجود خارج ذواتنا نحن نتمثله ونتصوره من خلال إدراكنا وفهمنا الذاتي، أو من خلال النظرية الاجتماعية. ولاكتشاف معنى العوالم غير المألوفة لنا نكون في حاجة لأن نغير أو نعدل من سوء الفهم الذي ينتابنا.



وبالإمكان أن نقرر أن ثمة اختلافاً وتبايناً واضحاً بين التأويلات الشائعة والعامة لدى الناس عن خبرات حياتهم اليومية، والتأويلات التي تقدمها العلوم الاجتماعية لحياة الناس وخبراتهم. فمناهج البحث العلمية التي يستخدمها علماء الاجتماع تتيح لهم التعمق في بحث وفهم طبيعة المجتمع الإنساني وأن يقدموا

لنا تفسيرات وتأويلات متنوعة للعمليات والفعاليات الاجتماعية تتسم بالدقة والعمق. ولنأخذ مثالاً يمكن أن يجعل هذا الاختلاف أكثر وضوحاً. يعتقد الفرد العادي من عامة الناس أن الصحف والجرائد تنشر الأخبار وتروي الأحداث بطريقة عقلانية لا انحياز فيها، ومن ثم يفاجئ بالنظرية التي تذهب إلى أن هذه الصحف والجرائد إنما تقوم في أحيان كثيرة باختلاق الأخبار والأحداث وصناعتها. وقد قام نفر من علماء الاجتماع ببحث وفحص الدور الذي تنهض به الجرائد والصحف في تشكيل ثقافة العنف وتعاطي المخدرات في الشارع العام. وباستخدام المقابلات، والملاحظة بالمشاركة، وتحليل الوثائق تمكن علماء الاجتماع من إثبات وبيان أن الرؤى العامة والمشتركة لدى عامة الناس، والتي تتأسس على الحس العام والمشترك حول جانب معين من جوانب العالم الاجتماعي، كما هو الحال في الجرائد والصحف، هذه الرؤى، غير مكتملة وتشكل قناعاً يحجب ويخفي العالم الاجتماعي الحقيقي، حيث تتبدى الوظائف الكامنة لبعض الجرائد والصحف في خلق ردود الأفعال لدى عامة الناس تجاه الشرطة أو إثارة الذعر المفاجئ وغير المبرر والمصحوب عادة بالهروب الجماعي. ولقد فرق روبرت ميرتون تفرقة مهمة بين الوظائف الظاهرة والتي تشير إلى الأهداف والوظائف الرسمية المعلنة لمؤسسة اجتماعية بعينها وهي الوظائف الصريحة والمقصودة والوظائف الكامنة والتي تشير إلى الأهداف والوظائف والأغراض الضمنية وغير المقصودة أو الأقل وضوحاً وغير المعلنة، والأخيرة هي ما يسعى علماء الاجتماع إلى كشف النقاب عنها ووصفها وإقامة الدليل بشأنها أو البرهنة عليها وشرحها وذلك لأن ما يبدو ويظهر لنا ليس هو العالم الحقيقي، وإنما لابد من النفاذية والاختراق لما هو ظاهر لنا اعتماداً على النظرية الاجتماعية واستخدام مناهج البحث العلمي الاجتماعي والشكل التالي يوضح هذه المسألة:



تزودنا النظرية الاجتماعية وتقدم لنا كيفيات تمكننا من تفسير العالم الاجتماعي، ويتجاوز هذا التفسير العلمي ذلك الفهم العام الشائع لدى عامة الناس وآرائهم البديهية والمرسلة. أما مناهج البحث العلمي الاجتماعي المستخدمة في البحث والتقصي والفحص، فهي تمدنا بالتفسيرات العلمية الموضوعية للعالم الاجتماعي الذي نعيشه. وهذا التفسير برغم أنه قد يكون محدوداً، أو أكثر اكتمالاً، إلا أنه في الحالتين يتجاوز بالفعل ما تزودنا به خبرات الحياة اليومية من تفسيرات لهذا العالم.

وبالإمكان أن نلخص هذا الجانب من المناقشة بمحاولة تحديد وتعريف ما الذي يتضمنه البحث العلمي الاجتماعي على النحو التالي:

- طريقة لفهم وتفسير المجتمع وهي النظرية الاجتماعية.
- طريقة للبحث في المجتمع وظواهره وهي المنهج العلمي.
- طريقة لتوظيف واستخدام المعرفة المنتجة والمعلومات التي اكتسبناها وهو الاسترشاد بهذه المعرفة في تخطيط السياسات الاجتماعية.

والمظهر الأخير ربما يكشف عن الأسباب التي تدفع الباحث إلى اختيار موضوع بحث دون غيره من الموضوعات الأخرى، وإلى إنجاز هذا البحث وفي علاقة ذلك كله بالقيم التي يتبناها ويحملها الباحث. إن مشكلة الحياد في البحث العلمي الاجتماعي والتحرر من القيم والموضوعية سوف نعرض لها بكل تفاصيلها في حينها. وليكن واضحاً لدينا أن التوجهات النظرية التي يتبناها الباحث، وقيم الباحث ومصالحه سوف تنعكس وتؤثر بالضرورة على كل مسعاه البحثي العلمي.

الفصل الثاني

علم اجتماع الوحدات الصغرى
وعلم اجتماع الوحدات الكبرى

١- علم اجتماع الوحدات الصغرى.

٢- علم اجتماع الوحدات الكبرى.

٣- البحوث الكيفية.

٤- البحوث الكمية.

الفصل الثاني
علم اجتماع الوحدات الصغرى
وعلم اجتماع الوحدات الكبرى (*)

الانطباع العام عن علم الاجتماع أنه علم شديد الانقسام، فمنذ ظهوره كنسق معرفي إلى حيز الوجود وهو يحفل بتباينات جوهرية بين علمائه حول طبيعة هذا العلم، واهتماماته، ومناهجه، وأهدافه وغاياته النهائية ويتجلى هذا الانقسام في تنوع وتباين المداخل التي يستخدمها علماء الاجتماع في دراساتهم للمجتمع الإنساني وقضاياه. وسنعرض فيما يلي لتلك القسمة الثنائية التي شاعت بين علماء الاجتماع، وجعلت فريقاً منهم يتهم بدراسة وحدات صغيرة في المجتمع خاصة من يهتمون بالكيفية التي من خلالها يضفي الناس معاني معينة على أوضاعهم وحياتهم الاجتماعية بكل مشتملاتها، في حين يهتم الفريق الثاني بدراسة بنية المجتمع بكاملة. وكان من شأنه هذه القسمة الثنائية بين من يهتمون بالمعاني، ومن يهتمون بالبناء أن تدفع إلى وجود مناهج مختلفة في تناول وبحث الظواهر الاجتماعية.

١ - علم اجتماع الوحدات الصغرى **Microsociology**:

ينشغل علم اجتماع الوحدات الصغرى بالقياس المحدد والرؤية الضيقة والمحدود، أيضاً للمجتمع الإنساني. فعالم الاجتماع هنا يوجه كل اهتمامه البحثي مباشرة إلى بحث مظهر واحد بعينه من الأنشطة والفعاليات الاجتماعية والإنسانية- كدراسة جماعة اجتماعية بعينها كطلاب مدرسة محددة، أو رصد وقياس العمليات والتفاعلات الاجتماعية داخل المؤسسات والتنظيمات الاجتماعية الصغيرة كدراسة مجموع من العمال داخل مصنع بعينه حيث يتم بحث قضايا كالقوة والسيطرة، والفقر والثقافات الفرعية، والأصول الاجتماعية

(*) Murray Marison, Methods in Sociology, Long man, London and New York, 1986, P.P.9- 16

والطبقة ولكن مع ملاحظة أن هذه المتغيرات تـتم دراسـتها بعيـداً عـن ارتباطهـا بـالمتغيرات والعوامـل البنائيـة المرتبطـة ببنيـة المجتمـع بكاملـه. إن دراسـة الوحدات الاجتماعية الصغرى من شأنها أن تمدنا بتفاصـيل مهمـة وتتـسم بـالثراء والغني البحثي بشأن تحليل عمل العمال وتفاصيل التفـاعلات الحادثـة بيـنهم داخـل المصنع، ومدى وعيهم بعالمهم الاجتمـاعي، والمعـاني المختلفـة التـي يـضفونها على هذا العالم وظواهره وأحداثه وكيفية تأويلهم لهـذه المعـاني واشـتراكهم فيهـا، إلا أن هذه الدراسة، وعلى الرغم من ذلك تتـسم بمحدوديـة الرؤيـة إذ أنهـا تقـف عند حدود وصف معاني الفـاعلين الاجتمـاعين ولا تتجـاوز هـذا الوصـف إلـى التفسير. وبمعني آخر يـتهم علـم اجتمـاع الوحـدات الـصغرى بوصـف الحيـاة الاجتماعية من خلال المعاني الذاتيـة التـي تنطـوي عليهـا الأفعـال الاجتماعيـة. مثال آخر لدراسة الوحدات الصغرى هو الدراسة التـي أجريـت لدراسـة خبـرات طلاب مدرسة ثانوية واتجاهاتهم المتنوعة المؤيـدة أو المـضادة للمـدارس وحيـث ركز الباحث اهتمامه البحثي علـى مدرسـة واحـدة وهـي المدرسـة التـي تعلـم وتخرج فيها. وكانت نتائجه ثريـة وألقـت الـضوء علـى الكثيـر مـن الجوانـب والمظاهر والأبعاد التنظيمية وكيفية تأثيرها على نـشأة وتطـور اتجاهـات وأنمـاط سلوكية بعينها.

٢ - علم اجتماع الوحدات الكبرى **Macrosociology**:

لم يقدم كارل ماركس شـيئاً أكثـر مـن تفـسيره لأصـول ونـشأة وتطـور المجتمع الرأسمالي الصناعي الحديث. وعلى الـرغم مـن اهتمامـه الأساسـي لـم يكن بتفاصيل العمليات الاجتماعية في هذا المجتمع، وإنمـا كـان اهتمامـه يتركـز على تحليل وفهم المجتمع الإنساني بكاملة. في الحقيقة، كـان مـاركس مهتمـاً فـي نظرياته بالأنماط التاريخية المختلفة للمجتمعـات الإنـسانية وتطورهـا بدايـة مـن المجتمعات المشاعية البدائية والقبلية البسيطة وصـولاً إلـى المجتمعـات الـصناعية المعقدة في القرن التاسع عشر في أوروبا، بـل وأبعـد مـن ذلـك التنبـؤات التـي

قدمها بخصوص المجتمع الشيوعي في مستقبل الإنسانية. وفي تحليلاته كانت التحليلات الطبقية لها المكانة الرئيسية والمهمة وبصفة خاصة الاستقطاب الطبقي الحاد في المجتمع بين من يملكون وسائل وأدوات إنتاج الثروة المادية في المجتمع، أعني ملاك الأراضي والمصانع، ومن يعملون لديهم ولا يملكون سوى قوة عملهم الجسدية أو الذهنية يبيعونها لهم وأقصد الفلاحين المعدمين وعمال المصانع الإجراء.

أما ماكس فيبر Max Weber فلم يكن يوافق ماركس في تحليلاته على الرغم من اهتمامه أيضاً بالمجتمع الإنساني ككل. وقد حاول أن يبرهن في أحد دراساته الشهيرة على الدور الذي يمكن أنه يلعبه التغير في التفكير الديني كعامل لنشأة ونمو وتطور الرأسمالية الحديثة. وللبرهنة على ذلك قارن وبالتفصيل بين مجتمعات الهند والصين وأوروبا. كتاب آخرون كان مداخلهم لدراسة المجتمع هو الوحدات الكبرى منهم الماركسيين مثل برديو Bourdieu والتوسير Althusser وأيضاً منهم الوظيفيين مثل بارسونز Parsons.

وبالإمكان أن نقرر وجود علاقة دقيقة وإن كانت علاقة غير محددة بإحكام بين المدخل النظري الذي ينطلق منه عالم الاجتماع سواء كان ينزع إلى دراسة الوحدات الكبرى، أو يميل إلى دراسة الوحدات الصغرى والمناهج العلمية البحثية المستخدمة في كل حالة. ففي حالة دراسة الوحدات الاجتماعية الكبرى أو الاتجاهات البنائية كالماركسية والوظيفية والفيبرية تسود المناهج والأساليب والأدوات البحثية الكمية كالمسوح الاجتماعية والاستبيان والمسح المقارن والمقابلة المقننة أما في حالة دراسة الوحدات الاجتماعية الصغرى والاتجاهات التأويلية كالفعل الاجتماعي والمنهجية الشعبية أو الإثنوميثودولوجي والتفاعلية الرمزية فنجد استخداماً للمناهج والأساليب والأدوات البحثية الكيفية كالملاحظة بالمشاركة والمقابلات غير المقننة.

٣ - البحث الكيفي **Qualitative research**:

في البحوث الكيفية تمثل بينية وتركيب الموقف الاجتماعي والشعور بؤرة الاهتمام البحثي. ما الذي يعينه الوجود في جماعة اجتماعية بالنسبة للفرد المشارك في هذه الجماعة وما الذي يتعين عليه القيام به كمشارك في المأوى أو مكان الإقامة وكيف يصل المحقق في أسباب الوفيات المشتبه فيها أن الوفاة كانت انتحاراً أو لم تكن غير ذلك؟ في البحوث الكيفية لا يستطيع عالم الاجتماع إدعاء تحقيق الموضوعية ومثلما يفعل عالم الاجتماع الذي يستخدم المنهج الكمي. لأن الأول يسعى لأن يخبر أو يفهم وجهة النظر الشخصية للفاعل الاجتماعي في الموقف الاجتماعي ولذلك تستخدم البحوث الكيفية لإنتاج معرفة اجتماعية تتعلق بالخبرات الإنسانية بكل أعماقها والمعاني الشخصية الموجودة لدى الفاعلين الاجتماعين ومشاعرهم وخبراتهم الذاتية والكيفيات التي يستشعرونها تجاه مجتمعهم وتفكيرهم فيه، وخبراتهم وتصرفاتهم نحوه. وهي تعتمد على لغة الفاعل الاجتماعي وعلى ملاحظة سلوكه مثال ذلك خبرات تلاميذ المدرسة، والتفسيرات المتنوعة للثقافة الفرعية المضادة داخل المدرسة.

أن قيمة البحوث الكيفية تكمن في محاولها تصوير العالم أو بيان رؤية العالم من خلال عيون من يكونون موضوعاً لدراستنا، ولهذا فهي لا تعد علمية بالمعني المتعارف عليه لهذا المصطلح.

ويستخدم هذا المدخل في علم الاجتماع أشكالاً متنوعة من الملاحظة بالمشاركة والمقابلات غير المقننة، وكان له تأثير كبير في العقود الأخيرة داخل علم الاجتماع ويتسم هذا المنحي البحثي بالثراء الفكري وبالقدرة على الإدراك الحسي والفهم، وبالجدة والطرافة والإبداع، إلا أنه أكثر تأثيراً بذاتية المبحوثين وهو يجعل علماء الاجتماع في موضع تساؤل طالما أنهم ينشدون دوما التماهي مع العلوم الطبيعية بإحصاءاتها الجامدة.

٤ - البحث الكمي **Quantictatine research**:

تنطوي البحوث الكمية، كما يبدو واضحاً من تسميتها على الوصف والبيانات التي يتم عرضها في شكل كمي أو عددي وإحصائي. وهذه البحوث الكمية تتبع المنهج العلمي لأقصى مدى ممكن في محاولاتها لقياس العوامل والمتغيرات الاجتماعية وعلى نحو يتصف بالدقة والتحديد والموضوعية قدر الإمكان ولذلك فهي أكثر ثباتاً لأنها أكثر تقنيناً وضبطاً مثال ذلك الإحصاءات والتعدادات الرسمية للسكان وخصائصهم وأنشطتهم والتي تجربها الحكومات كل عدد معين من السنوات، والمسوح الاجتماعية التي تقدم بيانات ومعلومات أكثر تفصيلاً عن حياة الأسرة كتلك البيانات والمعلومات المتعلقة بحجم الدخل وبنود الإنفاق، وحجم الأسرة وملكية السيارات والأجهزة الكهربائية وأجهزة الهاتف ... إلخ وتتضمن أساليب وأدوات جمع البيانات والمعلومات التي يتم بناؤها واستخدامها في البحوث الكمية المسوح الاجتماعية، والاستبيان البريدي، والمقابلات المقننة واستخدام الحاسب الآلي في معالجة البيانات والمعلومات ... إلخ.

وتعد دراسة Glass عام ١٩٥٤ من الدراسات الواسع الكبيرة عن العلاقة بين الطبقة والحراك الاجتماعي Social Mobility ودراسة Gold Thorpe, Halsey عن الحراك الاجتماعي في أكسفورد عام ١٩٨٠ نموذجاً للدراسات الكمية حيث تم استخدام النماذج والأساليب الإحصائية المعقدة في دراسة العلاقة بين الطبقة الاجتماعية والحراك الاجتماعي في جامعة أكسفورد واعتمدت الدراسة على المسح الاجتماعي لعينة من ١٠,٠٠٠ رجل من مختلف الطبقات الاجتماعية واستخدمت الاستبيان والمقابلات المقننة كما استخدمت النماذج الإحصائية المتقدمة لفهم العلاقة بين الطبقة والحراك الاجتماعي. إن كلاً من البحثين قد تتضمن دراسة واسعة النطاق لهذه آلاف من الرجال وتتبع تحركاتهم الاجتماعية صعوداً أو هبوطاً داخل البناء الهرمي الطبقي وقدمت بيانات مجدولة وإحصاءات تصف بصورة موضوعية التغيرات والتحولات الحادثة في

البناء الطبقي وهي المتغيرات والعوامل المتنوعة التـي ربمـا تـؤثر بفاعليـة فـي الحراك الاجتماعي وفي مظاهر أخرى للحيـاة الاجتماعيـة وفـي تحـولات الحيـاة ذاتها

*** ولد ليكون فاشلاً مولود محكوم عليه مقدماً بالفشل.**

أتيحت الفرصة لتتبع المـسارات الحياتيـة لعـدد كبيـر مـن الأطفـال منـذ سنوات طفولتهم الأولي وحتـى وصـولهم إلـى ومرحلـة البلـوغ. وقـدم علمـاء الاجتماع عبر هذا البحث معلومات وبيانات متنوعـة تتـسم بـالثراء الفكـري ومـع توصياتهم بضرورة أخذها الاعتبار عنـد رسـم وتخطـيط الـسياسات الاجتماعيـة. جاءت هذه الفرصة في عام ١٩٥٨ من خلال معلومات متنوعـة تـم جمعهـا عـن كل الأطفال الذين ولدوا خلال أسبوع واحد في شهر مـارس مـن عـام ١٩٥٨ فـي كل من إنجلترا وسـكوتلاندا وويلـز. ولقـد تـم جمـع بيانـات ومعلومـات عـن ١٧٠٠٠ سبع عشر ألف طفلاً عند مـيلادهم وهـؤلاء هـم الـذين تمـت دراسـتهم وبدأت عمليات ومراقبة نموهم وتطورهم حتى وصولهم إلـى مرحلـة البلـوغ وقـد وفرت هذه الدراسة مصادر ثرية وغنيـة وفريـدة مـن المعلومـات عـن الأطفـال العاديين Normal وغير العاديين Abnormal شملت الدراسـة الأطفـال حتـى سـن الحادية عشرة من عمرهم وقام بها كـل مـن Wedge and Presser وسُـميت ولـد ليكون فاشلاً أو المولود المحكوم عليه بالفشل مقـدماً. ونـشرت عـام ١٩٧٤. فـي هذه الدراسة تم تعريف هؤلاء الأطفـال بـأنهم أطفـال محرومـون أي تعـوزهم أو يفتقرون تماماً للموارد والشروط الأساسية التي تكفل لهم فرصـاً ومراكـز متكافئـة في المجتمع ولقد نظر إليهم كأطفال محرومين فـي ضـوء ثلاثـة محكـات معـايير أساسية هي الدخل المنخفض والأسـرة الفقيـرة، والأسـرة المركبـة كبيـرة العـدد وتمت عمليات مقارنتهم بأولئك الأطفال الذين لم يواجهـوا هـذا الحرمـان. وكانـت النتائج واضحة ومروعه في الوقت ذاتـه. إن الأطفـال المحـرومين الـذين ولـدوا في البيئات التي تحمل هذه الخصائص الثلاثة كـانوا فـي الغالـب، ومنـذ ولادتهـم

أكثر عرضه للإصابة بالأمراض وكـــان آبـــاؤهم وأمهـــاتهم أكثـــر تعرضـــاً لـــشبح البطالة والمرض وفي كل حالة كانـــت المقارنـــة بـــين المجمـــوعتين تأخـــذ طابعـــاً كمياً مثل المشاركة في السرير حيـــث كانـــت بالنـــسبة لفئـــة الأطفـــال المحـــرومين تصل إلى ٥٢,٨% من مجموعهم، بينمـــا كانـــت فـــي المجموعـــة الأخـــرى ٩,٢% وفي المدرسة كانوا أقل خطأً وتوفيقاً فـــي الموضـــوعات الرئيـــسية فـــي كـــل مـــن الحساب واللغة الإنجليزية.

إن قيمة وفضل مثل هذه الدراسات تتبدى في أنهـــا تقـــدم لنـــا حقـــائق صـــعبة وقاسية في آن واحد. إن الآلاف من الأطفال الذين تمت دراســـتهم كـــانوا مـــن كـــل الجزر البريطانية تقريباً ويعني هذا أن البيانـــات التـــي تـــم الحـــصول عليهـــا هـــي بيانات موثقة ويمكن التعويل عليها. فهي تقدم لنا صـــورة حقيقـــة لتطـــور الأطفـــال ويمكن أن نجد صداها لدى صانعي القرار الـــسياسي فـــي بريطانيـــا. ونتـــاج مثـــل هذه المسوح الاجتماعيـــة يـــتم تقـــديمها وعرضـــها فـــي شـــكل عـــددي إحـــصائي والبيانات التي تشتق من مثل هذه الدراسات هي بيانـــات علميـــة بـــالرغم مـــن أنهـــا تصف أوضاع عينة محددة من الأطفـــال. إلا أننـــا يمكـــن وبكـــل الثقـــة أن نعمـــم نتائجها على جماعات أخرى مماثلة بفعـــل الالتـــزام بالـــشروط العلميـــة والمنهجيـــة التي في ضوئها اختيرت هذه العينة

ولقد يأت واضحاً أن المناهج الكمية والكيفية في البحـــث العلمـــي الاجتمـــاعي والتي ينشغل بها علم اجتماع الوحـــدات الـــصغرى أو الوحـــدات الكبـــرى تختلـــف بالقطع سواء في تكنيك البحث أو نمط المعلومـــات أو المعرفـــة التـــي يـــتم إنتاجهـــا في كل من الحالتين. ويلاحظ أن ثمة تـــداخلاً شـــديداً الآن فـــي اســـتخدام المنهجـــين الكمي والكيفي إذ يميل أغلـــب علمـــاء الاجتمـــاع إلـــى الـــدفع بجـــدوى التعدديـــة المنهجية على الصعيدين النظري والعملي بدلاً من المفاضلة بـــين مـــا هـــو كمـــي، وما هو كيفي طالماً أنهم يسعون إلى الحصول على كل مـــن النـــوعين مـــن البينـــات الكمية والكيفية واصبح الكثير من علماء الاجتماع يـــستخدمون هـــذين النـــوعين فـــي مساراتهم البحثية لاستكمال ما يطلبونه من بيانات ومعلومات.

ومن الممكن حال استعارتنا ما ذكره بيتربرجر Peter Berger أن تقول بأن **المدخل البنائي** Structural Approach في علم الاجتماع يهتم بصفة أساسية بالكيفيات التي يؤثر بها المجتمع في السلوك الفردي والجماعي. فهناك عوامل خارجه عن وعي الأفراد وإرادتهم تحدد سلوكهم وتؤثر في أفعالهم. فما لاشك فيه أن الانتماء الطبقي والأسري يقوم بدور العامل المستقل الفاعل والمحدد لاحتمالات نجاحه أو فشله الأكاديمي، كما يؤثر هذا الوضع الاجتماعي على قدرته في الحصول على وظيفة وعمل مناسب. بل إن دراسات كثيرة أشارت إلى أن أفراد الطبقة العاملة يكونون أوفر خطاً في الإصابة بأمراض بعينها لدى مقارنتهم بأمثالهم ممن ينتمون إلى الطبقة الوسطي. وفي سياق المدخل البنائي يمكن أن نميز بين اتجاهين أو موقفين متقابلين الأول يمكن تسميته بثنائية الإجماع القيمي Consensus Structuralism والوظيفية Functionalism. والذي وضع دور كايم أسسها من خلال تأكيده على الدور المحوري للاتفاق والإجماع العام بين الناس على القيم الأخلاقية الضامة والتي تحفظ تماسك النظام الاجتماعي وتتضمن استقراره وتوازنه.

أما الاتجاه والموقف البنائي الثاني فهو بنائية الصراع Conflict Structuralism على نحو ما تظهر لدى كارل ماركس ولدى علم الاجتماع الراديكالي الذي تأثر إلى حد بعيد بالأطروحات الماركسية. ولكن يلاحظ أننا في الحالتين يكون السعي الأساسي هو محاولة الوصول إلى تأويلات علمية وضعية تقريرية للسلوك الاجتماعي اعتماداً على الأساليب الكمية للبحث الاجتماعي.

وخلافاً لما ذهب إليه المدخل البنائي نجد أن نقطة الانطلاق في **المدخل التأويلي** ذوات الفاعلين الاجتماعية ومن خلالهم يتم فهم المجتمع باعتبار أن الناس هم الذين يؤسسون المجتمع من خلال أفعالهم الاجتماعية وما يضيفونه من معاني على العالم الاجتماعي وكل ظواهره وأحداثه. إن الاهتمام هنا يتمحور حول كيفية قيام الأفراد والجماعات بتأسيس المجتمع وإضفاء معنى عليه معايشة الحياة فيه. وبينما يتم تجاهل العوامل البنائية، فإن علماء الاجتماع

التأويليين يسعون إلى فهم الدوافع والأسباب والعلل الذاتية لما يفعله الناس في مجري حياتهم اليومية والافتراض الأساسي هنا هو أن التفاعل الاجتماعي والعمليات والإجراءات والأنشطة التي يقوم بها الناس في المجتمع تنطوي على وعي ذاتي لا يمكن دراسته بنفس الكيفية التي تدرس بها الوعي الموضوعي بالعالم الطبيعي. وبمعني آخر، يكون الاهتمام الرئيسي في الاتجاه التأويلي هو: كيف يقوم الأفراد بتأسيس المجتمع، وإضفاء معني عليه، ومعايشتهم للحياة اليومية فيه.

إن محوراً الاهتمام هو اكتشاف الإنسان لمعنى المجتمع وتأويله للنظام الاجتماعي الذي يعد جزءاً منه. والدراسة المهمة التي قام بها هوارد بيكر Howard Becker، على سبيل المثال، والتي تحمل عنوان " On Becoming a Marihuana User" نجد أنه لم يهتم بدراسة الخلفية الطبقية لمدخني الماريجونا أكثر من اهتمامه ببحث وتقصي الطريقة التي يتعلم من خلالها المدخن المبتدئ كيفية تدخين الماريجونا، وما هي ردود الأفعال المحتملة عند المشاركة في التدخين.

وبالإمكان أن نلخص العلاقة بين النظرية والمنهج على النحو الوارد في الشكل التالي فالتأويلية أكثر قرباً للمناهج الكيفية في حين أن الوضعية والتقريرية أكثر قرباً بالمناهج والأساليب الكمية. وعلى كل ينبغي التأكيد على أن علماء الاجتماع يوظفون نظريات متخصصة لكلي تتيح لهم إمكانية استخدام أساليب بحثية متنوعة.

الفصل الثالث

العلم وعلم الاجتماع

١- ماهية العلم.

٢- علم الاجتماع: علم أم فن؟

٣- الوضعية والوظيفية.

٤- علم الاجتماع الراديكالي ونظرية الصراع.

٥- علم الاجتماع التأويلي.

٦- النظرية واستراتيجية البحث:

(أ) دور النظرية الاجتماعية.

(ب) النظرية والبحث.

الفصل الثالث
العلم وعلم الاجتماع(*)

١-ماهية العلم:

شهد العالم على امتداد المائتين عام الأخيرة تقدمًا رائعًا وغير مسبوق في المعرفة العلمية، حيث تبين للناس أن بالعلم وحده يمكنهم فهم الظواهر الطبيعية والتنبؤ بمسارها وضبطها والتحكم فيها بدرجة كبيرة، وإلى الحد الذي مكنهم من إرسال سفينة فضاء إلى كوكب زحل، واستخدام أشعة الليزر في إجراء العمليات الجراحية الدقيقة، وتفجير الطاقة الكامنة في نواة الذرة. إن قوة العلوم الطبيعية تُعد دليلاً على مصداقيتها وصحتها وكان السؤال الذي يطرح نفسه وبإلحاح على المشتغلين بدراسة المجتمع في كل مجالاته ومظاهره، في الاقتصاد والسياسة والاجتماع وعلم النفس...، هو إلى أي مدى يمكن أن تكون دراساتهم وبحوثهم في هذه المجالات علمية، وبنفس المعنى والقدر الحادث في العلوم الطبيعية؟

وتوجد عده سُبل يمكن من خلالها تعريف العلم. إن كلمة علم Science مشتقة من الأصل اللاتيني Scire وتعنى ليعرف To know ويعرف العلم أيضا بأنه نسق من المعرفة المتراكمة والتي يكتسبها الإنسان باستخدام منهج محدد هو المنهج العلمي، وهي معرفة بالإمكان البرهنة على صدقها والتحقق منها. ويعنى هذا التعريف أن العلم معرفة منظمة ومقصودة ودقيقة ومتعمقة تتكون لدينا عن ظواهر الكون والعالم المحيط بنا وبحيث تكون لدينا المقدرة على إثبات صحة هذه المعرفة وصدقها التام أو الكلي وهذه المعرفة العلمية التي تتكون لدينا بشأن ظواهر الكون هي معرفة تتكون من جانبين متلازمين دومًا. **الجانب الأول** حسي ويتمثل في الخبرات الحسية التي تزودنا بها حواسنا والأجهزة التي نستخدمها لتزيد من كفاءة وقدرة هذه الحواس على الملاحظة

(*) Murray Morison M.A, Methods in sociology, long man inc. New York, 1986. Pp. 17 - 30.

والرصد والتسجيل. **والجانب الثاني** هو الجانب العقلي والمتمثل في إعمال عقولنا في المعطيات والوقائع المحسوسة بحثًا عن القوانين العامة والنوعية التي تحكم حركتها، وعلاَّتها، وعلاقاتها الارتباطية ببعضها البعض. إن أيًّا من الجانبين الحسي أو العقلي لا يؤسس بمفرده معرفة علمية. وعلى حد تعبير كنط فإن معطيات الحس تصبح عمياء بدون المقولات العقلية. وهذه الأخيرة تكون جوفاء بدون معطيات الحس.

ويعد المسح الاجتماعي Social Surrvey، على سبيل المثال، لدخول الأفراد نموذجًا يمكن أن ندرجه في هذه الفئة من المعرفة العلمية، لأن هذه المسوح الاجتماعية من الممكن عند إجرائها في ظل ظروف متماثلة، أن تعطينا نتائج متماثلة أيضًا.

ومن الممكن أن تقدم تعريفًا أكثر دقة وتحديدًا للعلم وذلك عندما نقرن هذا التعريف بالطريقة التي يتم من خلالها تحصيل واكتساب المعرفة العلمية. ففي القرن السادس عشر الميلادي أكد فرنسيس بيكون Bacon على أهمية المنهج التجريبي والمنحي الأمبيريقي في اكتساب العلم وإنتاج المعرفة العلمية. فالمعرفة العلمية تأسس بداية على ما نخبره باحساساتنا، وما يمكن أن تكون على يقين من صدقة وصحته. وهذا النوع من المعرفة التي تتأسس على ما نخبره بحواسنا أو على معطيات الحس، تعتمد على ما يسمي بالمنهج الاستقرائي وهو طريقة علمية مهمة للغاية في تأسيس العلم. وعلى كل فإن العلم يتضمن ما هو أكثر من الملاحظات الموضوعية الدقيقة والمحددة. ويحاول الباحث غالبًا اختبار النظرية العلمية التي تشكل لديه إطارًا تصوريًا يسعى من خلاله إلى الوصول إلى تفسير أو تأويل معين للمشكلة التي يواجهها. وتأسيسا على الطرح السالف يمكن تعريف العلم بأنه منهج وطريقة للفحص والتقصي المقصود والدقيق والمتعمق والمنظم لأي من ظواهر العالم الطبيعي والاجتماعي الإنساني.

وتتطلب البحوث العلمية البرهنة على مـا إذا كانـت الأفكـار الأوليـة للعـالم أو الباحث وكذلك الفروض العلمية التـي يكونهـا بـشأن ظـاهرة مـا، هـل هـي صادقة أم زائفة؟ ويعد البحث العلمـي هنـا بمثابـة الوسـيلة التـي يتحـول عـن طريقها الفرص من علاقة محتملة ومعرفة ظنية إلى قـانون علمـي وإلـى نظريـة علمية يمكن إثباتها بالبرهان. والمراحل أو الخطوات التاليـة توضـح لنـا وببـساطة شديدة عملية البحث العلمي:

١- يواجه الباحث من خـلال ملاحظتـه للظـواهر والوقـائع والأحـداث أن ثمة مشكلة تتطلب حلاً، أو ظاهرة يجب تفسيرها.

٢- يحاول الباحـث تحليـل المـشكلات أو الظـاهرة فـي ضـوء النظريـة العلمية والتي تكـون وثيقـة الـصلة بالمـشكلة أو الظـاهرة موضـوع البحث.

٣- انطلاقًا من النظرية العلمية التي تشكل إطـارًا تـصوريًا لديـه، يقتـرح الباحث مجموعة من الفروض التي تعبـر عـن علاقـات محتملـة بـين متغيرات عدة فـي سـياق المـشكلة أو الظـاهرة التـي يبحثهـا. وتـتم صياغة هذه الفروض بطريقة تجعلها قابلة للاختيار والتحقق.

٤- ومن خلال الملاحظة والتجربـة، يـتمكن الباحـث مـن إثبـات صـحة الفروض وصدقها، أو مـن دحـض هـذه الفـروض نفـسها مـستخدمًا مقاييس تتسم بالدقة والتحديد وفي ظـل الـتحكم فـي ظـروف وشـروط بعينها.

٥- ومحصلة للجهد السابق يحصل الباحـث علـى مجموعـة مـن البيانـات والنتائج التي تستخدم أما لتـدعيم صـحة الفـروض وبيـان صـدقها، أو تستخدم لرفضها وبيان عدم صحتها وذلـك بـالنظر إلـى النتـائج التـي انتهي إليها ويعنى هذه الفروض التـي أمكـن إثباتهـا مـرة بعـد مـرة تتحول إلى قانون ونظرية علميـة. ويـنص القـانون العلمـي علـى أن

عناصر أو عوامل بعينها سوف تتفاعل معًا وبنفس الطريقة إذا ما توافرت نفس الشروط أو الظروف وعلى نحو يتسم بالدقة.

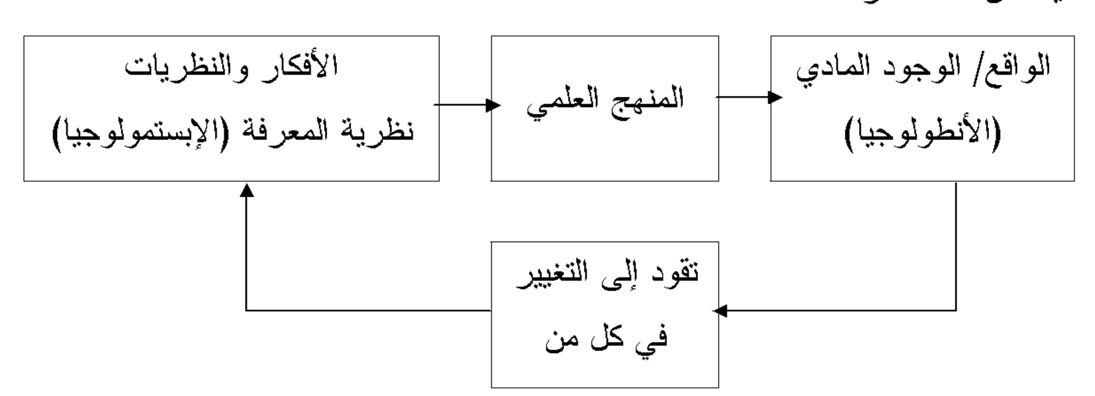
٦- وتعنى هذه العلمية الجدلية أن كلاً من الفروض والنظرية العلمية سيتم تعديلها في ضوء النتائج التي انتهي إليها الباحث والتي سيقوم بنشرها بعد ذلك.

وفي ضوء ما تقدم، فإننا لسنا في حاجة فقط لاستكشاف البراهين والأدلة وأوجه الاختلاف التفصيلية حول نشأة ونمو العلم الحديث وتطوره، ذلك انه من الضرورة والأهمية بمكان أن نلتفت إلى التأثيرات البالغة الأهمية لكل من ديكارت Descartes وبيكون Bacon والتي تؤكد لنا أن العالم المادي الطبيعي الذي نعيش فيه يشبه وإلى حد كبير نظامًا ميكانيكيا بالغ الدقة والإتقان، وأن العمليات التي تحدث داخل هذا العالم تكون محكومة بقوانين علية صارمة، وتكون مهمة العالم أو الباحث، اكتشاف هذه القوانين ولا تتحقق هذه الغاية إلا عبر الاستخدام الموضوعي للمنهج العلمي. وعندما يطبق العالم خطوات البحث العلمي بعناية ودقة ستنكشف له، وعلى نحو تدريجي، أسرار هذا الكون. ولقد نجح العلم الحديث بالفعل في إنتاج المعرفة العلمية التي أثبتت قيمتها من خلال جعلنا نتعامل بكفاءة ومقدرة مع العالم المحيط بنا. وهذه المعرفة العلمية تكون فائدتها عظيمة للبشر إذا ما أخذوا بعين الاعتبار الطريقة التي تمت من خلالها وعن طريقها إنتاج هذا النوع من المعرفة.

إن كل علم من العلوم يتضمن محاولات لوصف وتفسير وتأويل جانب معين من ظواهر العالم المادي المحسوس. ويخبرنا الحس العام المشترك، وخبرات الحياة اليومية بأن ثمة شيئا واقعيا وحقيقيًا ومستقلاً عن وعينا وإرادتنا ووجودنا، وأن هذا الشيء من الممكن أن نبحثه وندرسه ونفهمه ونتنبأ به ونتحكم فيه. والعلم ، كل علم، هو في حقيقته نسق وبنية متسقة من الأفكار والمعاني عن الواقع والوجود المادي، وتكون هذه الأفكار والمعاني مفهومه

وتحمل تفسيرات وتأويلات بعنيها أمكن إثبات صدقها والبرهنة على صحتها. لنأخذ على سبيل المثال علم الوارثة والهندسة الوراثية والجنيات وهو العلم الذي تمكن من تطوير أفكار محكمة ومتقنة ونظريات علمية صحيحة تتعلق بالنباتات والحيوانات. وتعد تطبيقات هذه المعرفة في حياتنا معيارًا مهمًا وأساسيا لبيان مدى صدقها وصحتها وحيث نجح هذا العلم في استنباط وتطوير أنواع وسلالات جديدة من النباتات والطيور والحيوانات.

نستطيع أن نحدد، وكما ذكرنا سلفًا، جانبين أساسيين للعلم. أولهما ما تمدنا به الحواس من معطيات حسية عن الوقائع والأحداث المحسوسة والمتعلقة بالوجود والواقع المادي المحسوس القابل للملاحظة والدراسة والبحث. والثاني، هو الأفكار والنظريات التي نكونها عن هذا الوجود، والواقع المادي ونعني هنا نظرية المعرفة. وعبر استخدام المنهج العلمي يمكننا اختبار معرفتنا بهذا الواقع والتحقق من صحة هذه المعرفة وإنتاج وتأسيس المعرفة العلمية. وفي علم الوراثة والجنيات، على سبيل المثال، كانت التجارب التي أجريت تتضمن عمليات تربية واستنساخ في النباتات والحيوانات. والشكل التالي يحاول أن يلخص هذه الفكرة:



وهناك جدل مستمر ومتواصل في سياق علم الاجتماع حول طبيعة هذا العلم، وإلى أي مدى يمكن اعتباره علمًا بكل ما تحمله الكلمة من معاني. ويدور الجانب الأكبر من هذا الجدل أولاً حول طبيعة المجتمع الإنساني والذي يشكل موضوعا لعلم الاجتماع، وإلى أي مدى يمكن النظر إلى هذا المجتمع على أنه

مماثل في طبيعته لطبيعة الوجود المادي الطبيعي. والأمر الثاني هو، إلى أي مدى يمكن استخدام المنهج العلمي المعتمد في العلوم الطبيعية بنفس الطريقة في بحث ودراسة وفهم موضوع علم الاجتماع. والأمر الثالث، هل بالإمكان وفي إطار علم الاجتماع، أن نصل إلى نتائج علمية وإنتاج معرفة علمية تتسم بدرجة عالية من اليقين ويمكن أن تكون أساسًا لبناء نظرية معرفة حول المجتمع الإنساني.

لقد انبهر علماء الاجتماع في القرن التاسع عشر الميلادي انبهارًا شديدًا بنموذج العلم الطبيعي ووصل الأمر إلى حد الاعتقاد، بل الإيمان، بصحة وسلامة ويقينية العلم الطبيعي والمعرفة العلمية والتقدم العلمي وإلى الدرجة التي ولدت لديهم رغبة قوية في احتذاء نموذج العلم الطبيعي وتطبيق مناهجه في البحث والتحليل في بحث ودراسة وفهم المجتمع الإنساني وفي تأسيس علم الاجتماع على غرار نموذج العلم الطبيعي. وبالإمكان أن تتبين هذا الافتتان بنموذج العلم الطبيعي وبمنجزاته، وبمناهج البحث والتحليل المتبعة في إنتاجه لدى أو جست كونت Comet (١٧٩٨ – ١٨٥٧)، والذي يعده الكثير الأب المؤسس لعلم الاجتماع كتقليد غربي، فهو من منح هذا العلم اسمه كما تحكي القصة التقليدية لنشأه علم الاجتماع والذي استطاع بفضل جهود كونت أن يستخلص نفسه من عبودية تبعية للفلسفة، ومن ثم صار علمًا مستقلاً. ولقد بلغ تأثر كونت الواضح بالعلوم الطبيعية حدًا دفعه إلى اعتبار علم الاجتماع فيزياء اجتماعية Social Phisics، وارتأى أن بالإمكان استخدام التجريب والملاحظات المنظمة كأساليب بحثية في دراسة ظواهر الاجتماع الإنساني، وبالتالي يمكن الوصول إلى صياغة قوانين علمية تحكم حركة الظواهر الاجتماعية على نحو ما هو حادث في علوم الفيزياء والكيمياء، ومن ثم يصبح من الممكن تأسيس علم للمجتمع.

وذهب كونت إلى إن القوانين العلمية الحاكمة لحركة المجتمع الإنساني وتطوره يمكن اكتشافها عبر تطبيق القواعد والمبادئ العقلانية وأن من شأن استخدام التجربة والملاحظة كمناهج لدراسة المجتمع أن ينتهي بنا ذلك إلى إنتاج معرفة علمية ويقينية بالمجتمع وظواهره وهي معرفة تعتمد على المنهج العلمي والموضوعي، كما يمكننا أيضا البرهنة على القوانين الحاكمة لحركة المجتمع وتطوره. ولكل الاعتبارات السابقة، اعتبر كونت أن علم الاجتماع يعد علمًا وضعيًا واستخدم مصطلح الوضعية Positivism لوصف المدخل العلمي العقلاني الذي يتأسس على افتراض أن الظواهر الاجتماعية هي أشياء لها وجود موضوعي مستقل عن وعى الأفراد وإراداتهم، وأنه من الممكن ملاحظة هذه الظواهر وقياسها وإذا أمكننا إثبات أن هذه الظواهر تتفاعل معًا بنفس الطريقة في ظل شروط بعينها مرارًا وتكرارًا، فإنه يصبح بالإمكان التنبؤ بما يحدث في المستقبل حال توافر هذه الشروط.

وارتأى إميل دوركايم Emile Durkeim (١٨٥٨ – ١٩١٧)، في كتابه المهم "قواعد المنهج في علم الاجتماع"، وانطلاقًا من المدخل الوضعي والذي اعتبره شيئًا مقدسا القواعد التي حددها للبحث السوسيولوجي؛ أن الظواهر والحقائق الاجتماعية هي ضروب وأساليب للفعل والسلوك والتفكير والإحساس، وهي أشياء مستقلة عن وجود الأفراد، وتمارس نوعًا من الضبط والقهر الخارجي عليهم؛ إذ يجدون أنفسهم مجبرين على اتباعها وتسيير مختلف شؤون حياتهم وفقًا لها وعلى كل مستويات وجودهم الفردي والاجتماعي. وهذه الظواهر تتسم بالعمومية والانتشار، وهي قابلة للملاحظة والقياس والبحث بنفس الطريقة التي تبحث وتقاس بها الظواهر الطبيعية.

أما كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨ – ١٨٨٣) فقد كان مدخله لدراسة المجتمع الإنساني مغايرًا تمامًا لما اعتمده دور كايم وكونت، وإن كان قد قبل تقرير الطابع العلمي الوضعي لعلم الاجتماع. رأى ماركس أن المجتمع

الإنساني يتغير وفق قوانين عليه صارمة وموضوعية وواضحة، وأن هذه القوانين تعمل بشكل مستقل تمامًا عن وعى الإنسان وإرادته. وسوف نعود إلى تناول قضية الاتجاه الوضعي والوضعية Positivism وإلى اكتساب علم الاجتماع صفة العلمية لا حقًا في هذا الفصل.

نحن في حاجة ضرورية الآن لأن نأخذ بعين الاعتبار والاهتمام ذلك العمل المهم الذي قدمه فيلسوف العلم المعاصر كارل بوبر Karl Popper والذي رأى أن المعرفة العلمية هي معرفة تجريبية أكثر مما يتصوره العلماء أنصار الوضعية.وفي الحقيقة، من وجهه نظر بوبر Popper، أننا لا نستطيع أن نتأكد من حقيقة الأشياء والظواهر، ولا يمكننا أن نزعم بأننا نمتلك معرفة حقيقة ويقينية يقينًا مطلقًا. وقدم بوبر نقدًا حادًا لبعض النظريات السوسيولوجية وخاصة نظرية كارل ماركس، ونظرية هربرت سبنسر H.Spencer وهي النظريات التي تحدثت عما اسماه بوبر بالوضع التاريخي، وحيث ادعت هذه النظريات أن التغير الاجتماعي يمكن أن يأخذ طابعًا منتظمًا ومسارًا خطيًا حتميًا بالضرورة وعبر مراحل محددة، وأنه بالإمكان التنبؤ بمسار هذا التغير في المستقبل.

ووصف بوبر كارل ماركس بأنه النبي المبشر بالثورة وعليه لا يمكن بحال اعتباره عالم اجتماع وذلك لأن ماركس لم يكن، في رأى بوبر، ملتزمًا بالمنهج العلمي في نبوءاته عن ثورة البروليتاريا انطلاقًا من أن ماركس قد سلَّم بشيء لم يحدث بعد. وفي مجال العلم، يقول بوبر، ليس ثمة مكان للنبوءة والدين والأيديولوجيا. وتأسيسًا على ذلك اعتبر بوبر أن الماركسية ليست علمًا على الإطلاق، ولا يمكن أن تكون علمية، لأن الكثير من نظرياتها الرئيسية تشير إلى المستقبل وتتحدث عنه وبالتالي فهي ليست قابلة للاختبار والتحقق، كما أنه يستحيل البرهنة على نحو دقيق على أنه لن تحدث ثورة عمالية لأن المستقبل مجهول بالنسبة لنا، وبالتالي فالادعاء القائل بحدوث هذه الثورة هو محض إدعاء باطل وغير علمي.

وطرح بوبر في هذا السياق سببين رئيسيين يدعمان النقد الذي قدمه لمثل هذه النظريات الاجتماعية، الماركسية على وجه الدقة، **السبب الأول:** يرى أن الدليل الذي قدمته هذه النظريات على أن التغير الاجتماعي يأخذ نمطًا ثابتًا علّيًا ومطردًا وحتميًا؛ يعد دليلاً ضعيفًا ومتهافتًا للغاية، لأنه إما أن تكون هناك حالة واحدة تؤكد هذا الدليل مثل تاريخ المجتمعات التي تم بحثها ودراستها، وأن هناك حالات أخري كثيرة يمكن الاستشهاد بها. وسنجد حينئذ أن أوجه التباين والاختلاف فيما بينها تكون أكثر من أوجه التماثل والتشابه. والسبب الثاني: أن فكرة التنبؤ الصحيح والدقيق بشأن كيفية تطور المجتمع الإنساني تبدو فكرة غير صحيحة بل وخاطئة تمامًا. لأننا لا نعرف ما سيتم اكتشافه أو اختراعه في المستقبل، ولأننا إن فعلنا ذلك سيكون قد تم اكتشافه أو اختراعه بالفعل. وعلى كل، فإن هذه المكتشفات والمخترعات مثل القوة المحركة للبخار، وتفتيت الذرة وغيرها ...، ذات تأثير عميق على المجتمعات الإنسانية. وعلى الرغم من أن المخترعات والمكتشفات التي ستحدث في المستقبل قد تبدو بعيده المنال، ومن الصعوبة بمكان التوصل إليها، إلا أننا لا يمكن التنبؤ بآثارها وبالنتائج المترتبة عليها.

ولقد كان لبوبر Karl Popper تأثير عميق للغاية في الجدل والحوار الدائر حول المنهج العلمي، وما الذي يتعين أن يكون عليه هذا المنهج. وذهب بوير إلى أن العالم أو الباحث عندما يسعى إلى فهم وتفسير، أو تأويل ظاهرة ما، فإنه يعتمد على النظريات العلمية وعلى الحدس أيضًا، وهما أفكار حول الكيفيات التي تحدث بها الظواهر على نحو معين دون غيره، ولماذا حدثت على هذا النحو بالفعل؟ وبينما كان بوبر نافدًا حادًا للاتجاه الأمبيريقي والحسي في العلم، وللاعتقاد السائد بأن معرفتنا بالعالم من حولنا يتم اكتسابها عن طريق الخبرات الحسية فحسب، إلا أنه كان يؤكد على الحاجة الضرورية للتحقق الأمبيريقي للنظريات العلمية التي يتم التوصل إليها وصياغتها، وبالتالي

يتعين اختبار هذه النظريات بصفة مستمرة. وذهب إلى أن أكثر السبل دقة وموضوعية لتحقيق ذلك هي أن يحاول الباحث، إثبات خطأ فروضه العلمية بدلاً منه الإصرار على إثبات صحتها، وهو ما يعرف بمبدأ التكذيب Refutation المشهور عند كارل بوبر.

ويرى بوبر Popper أنه لا يكفي أجراء التجارب للتحقق من صحة فروض بعينها، فنحن نجد على سبيل المثال وعبر ملاحظات عديدة نقوم بها كيف أن ورقة عباد الشمس التي يتم غمرها في محلول حامض تتحول إلى اللون الأحمر. كما تكشف لنا ملاحظات أخرى تنافر الأقطاب المغناطيسية المتشابهة بعيدًا عن بعضها البعض. إلا أن لنا على يقين تام، وثقة تامة بأننا سنحصل على نفس النتيجة حال تكرار هذه التجارب وبنفس الطريقة. ولنضرب مثالاً على ذلك بالمثل التقليدي الشائع الذي يخبرنا بأن مرور ألف بجعة بيضاء أمام عيوننا، فإن هذا لا يعنى بالضرورة أن البجعة التالية بعد الألف ستكون بيضاء حتمًا، وبالتالي يظل هناك احتمال أن تمر بجعة سوداء. وعلى نحو مماثل يمكن أن تقوم بإجراء تجربة ما لألف مرة، وفي كل مرة نصل إلى نفس النتيجة مما يعد برهاناً على شئ ما. إلا أن ثمة احتمالاً بأن نصل إلى نتيجة مغايرة تمامًا في المرة التالية بعد الألف. لذلك يقرر بوبر أن معرفتنا بالعالم من حولنا هي معرفة افتراضية أكثر من كونها معرفة يقينية يقيناً مطلقًا لأنه لا يوجد شيء يمكنه البرهنة على صحته وصدقه على نحو حاسم فالأمر الذي قد نكون متأكدين منه قد يكون غير حقيقي، وبحيث أن رؤية بجعة سوداء واحدة لا تعنى بالضرورة أيضًا أن كل البجع ليس أبيض اللون. إن ممارسة العلم تقتضي نوعًا من الشك المنهجي القوي والحاد والذي أعلن بوبر صراحة عن وجود شواهد قوية عليه خاصة بين العلماء الاجتماعيين. وعلى ما يبدو أن نصيحته هذه كانت دعوة إلى المزيد من البحث والقليل من التنظير لأن منهج

العلم لديه هو فرض واقتراح الاحتمالات والفـروض الجريئـة، وبـذل المحـاولات الجادة لتكذيبها ودحضها أو إثبات عدم صحتها.

والسؤال الآن: إلى أي مـدى يمكـن التـسليم بعلميـة العلـم؟ إن المناقـشات السالفة توضح وبجلاء أن ثمة منهجًا علميًا واحدًا، وطريقًـا أساسـيًا واحـدًا يـسلكه العلماء والباحثون لإنتاج واكتساب المعرفة العلمية. وكما أشرنا سـلفًا، توجـد عـدة اختلافات بين الأسلوب الاسـتقرائي القـائم علـى الملاحظـة الحـسية للظـواهر، والأسلوب الاستدلالي أو الاستنباطي، وذلـك علـى الـرغم مـن اسـتخدام العلمـاء للأسلوبيين معًا في عملهم.

وقد كان لتومـاس كـون Thomas Kuhn تـأثير يـستحق أن نأخـذه بعـين الاعتبار فيما يتعلق بالكيفية التي يجب أن نفكر من خلالهـا بـشأن العلـم والمعرفـة العلميـة. ففـي كتابـة "بنيـة الثـورات العلميـة" The structures of scientific Revolutions والصادر عن جامعة شيكاغو عـام ١٩٦٢، قـدم كـون نقـدًا حـادًا لوجهة النظر الشائعة عن تقدم العلم وازدهار المعرفـة العلميـة، وحـاول الكـشف عن زيف وبطلان وجهات النظر التي تبـالغ فـي تـوقير العلـم، وإضـفاء طـابع القداسة والغموض أحيانًا على العلم وأثار كون العديـد مـن الأسـئلة حـول مـدى الصدق في إيمان العلم بمبـدأي الأمبيريقيـة والموضـوعية، وعمـا إذا كـان هـذا المبدأن وحدهما فقط اللذان يعمل العلم من خلالهما بالفعل.

وارتأى كون أن البعد الذاتي والشخـصي وارد وبقـوة فـي العلـم الطبيعـي وإلى الحد الذي يمكن أن نصف الذاتيـة بكونهـا شـبحًا ملازمًـا للعلـم الطبيعـي وعلى النحو الحادث في العلوم الاجتماعية سواء بـسواء وقـد نـاقش كـون مـسألة اعتبار العلم مجموعة من النظريات والمناهج والنتـائج الواقعيـة والحقيقـة، وذهـب إلى إن العلماء، كعلماء الاجتمـاع مـثلاً، يعتمـدون فـي بحـوثهم علـى النمـاذج والأطر والمداخل النظرية المرتبطة بتخصصاتهم، والتـي تـوجيههم فـي بحـوثهم الأمبيريقية، وتؤثر بالفعـل فـي طبيعـة هـذه البحـوث ومخرجاتهـا. إن العلمـاء

يكتشفون عناصـــر الحقيقـــة، أو القـــوانين العامـــة والنوعيـــة التـــي تحكـــم حركـــة الظواهر وأن ما يكتشفونه من حقائق يأتي متوافقًا ومتطابقًـــا مـــع مـــا نعرفـــه بحـــن بالفعل.

ويظل العلم من وجهة نظر الـــسالفة، قيـــد الاختبـــار التـــدريجي والمتـــصاعد دومًا مع تطور معرفتنا عن العالم المادي إلى حـــدودها القـــصوى والتـــي لا نهايـــة لها. وعلى ذلك فإن ما كان يُعتقد في السابق بأنه حقيقـــي لا يـــتم رفـــضه واســـتبعاده وإنما يضاف للحقائق الموجودة. ولكن هـــذا لا يحـــدث بالفعـــل، مـــن وجهـــة نظـــر كون Kuhn فالعمل العلمي في رأيه وفي أي مجال من مجـــالات المعرفـــة العلميـــة يأخذ بعين الاعتبار الإسهامات السابقة التـــي قـــدمها العلمـــاء الـــسابقون فـــي كـــل مجال. ولذلك يرى أن العلـــم لـــيس مجـــرد مجموعـــة مـــن النظريـــات والمنـــاهج والنتائج الواقعية أو الحقيقية، لأن العلمـــاء يـــستخدمون النمـــاذج والمنظـــورات كـــل في مجال تخصصه، وهذه النماذج والمنظورات العلمية تتغيـــر تغيـــرًا جـــذريًا عنـــد لحظات تاريخية معنية ويحدث هذا التغير الذي يأخـــذ طـــابع الثـــورة أو الانعطافـــة الجذرية والكيفية عندما لا تتناسب المكتشفات الجديدة مع النمـــاذج العلميـــة الـــسائدة والمسيطرة والمستقرة.

وشاهد على ما انتهي إليـــه كـــون، أنـــه حتـــى ظهـــور أعمـــال كـــوبرنيقس Copernicus وأعمال كل من كبلـــر Kepler وجـــاليليو Galileo كـــان الاعتقـــاد السائد قبلهم، ولعدة قرون مـــضت، أن الأرض مركـــز الكـــون وأن الـــشمس تـــدور حولها. وظل هذا النموذج سائدًا ومسيطرًا على الرغم مـــن تزايـــد صـــعوبة ملائمـــة الوقائع الجديدة المكتشفة مع هذا النموذج، حتى قدم كـــوبرنيفس دلـــيلاً علميًـــا جديـــدًا أسقط النموذج القديم، وأصبح النموذج الجديد مقبـــولا وهـــو النمـــوذج الـــذي يؤكـــد علـــى دوران الأرض حـــول الـــشمس. وحـــث هـــذا التحـــول بعـــد نـــشر أعمـــال كوبرنيقس وجاليلو وكبلر. وهو تحول فـــي مـــسار العلـــم يمكـــن وصـــفه بـــالتحول الثوري كل ما تحمله كلمة ثورة من معاني.

ويؤكد كون Kuhn أن العمل العلمي ليس عملاً فرديًا بحال. فالعلماء المعاصرون يشكلون مجتمعًا متجانسًا إلى حد كبير حيث تتابع جهود العلماء وتتراكم وهؤلاء العلماء تجمعهم رؤيتهم الأساسية والعلمية للكون والعالم وتفسيره وفي جميع الأحوال والأمكنة تقدم الإنجازات العلمية المتميزة حلولاً للمشكلات المثارة في مجتمع العلماء.

وتنطوي العلوم الاجتماعية، ومن بينها علم الاجتماع، على نماذج متصارعة ومتناقضة إلى حد كبير، وعلى جماعات من العلماء والباحثين الذين يناقض بعضهم بعضًا. ولهذا يرى كون Kuhn أن علم الاجتماع هو علم ما قبل النماذج المستقرة والمقررة. لأننا عندما تقارن ما تتسمم به العلوم الطبيعية، وما يتميز به منهجيها العلمي من واقعية، ودقة، وتحديد، وموضوعية، مع ما يواكبها من تجرد وضبط وإتقان محكم، بما هو حادث في علم الاجتماع، فإن علم الاجتماع يبدو في سياق هذه المقارنة وكأنه مغامرة تنطوي على كثير من المخاطر. وعليه لا تبدو المعرفة السوسيولوجية كمعرفة صحيحة ودقيقة ومؤكدة.

ويعود كون Kuhn ليشكك في وجهة النظر التي تذهب إلى أن العلم والمعرفة والعلمية تعد معرفة عقلانية خالصة وموضوعية تمامًا. ورأى أن الكثير من العلماء الذين ينتمون إلى مجتمعات علمية متميزة ورصينة قد تصبح المفاهيم والتصورات التي لديهم عن طبيعة العالم معوقة لقدرتهم على الكشف عن أية تناقضات قد تكون متضمنة فيما انتهوا إليه من نتائج ومعلومات من خلال بحوثهم. وأكد كون بالأدلة على أن العلم في تطوره لا يأخذ طابعًا تراكميا ولا ينمو على نحو تدريجي وإنما أكثر من ذلك فالتحولات العلمية تأخذ طابع التغيرات الثورية.

وسيكون مفيدًا أن نعرض لبعض الأمثلة التي توضح لنا ما قصده كون بالتغيرات الثورية في مجال العلم من خلال رؤية وتفحص الطريقة والكيفية

التي يفكر بها العلماء في المشكلات والقضايا. لنأخذ ذلك الخلاف المعاصر، والمثير للجدل، والمرتبط بنظرية التطور إن الكثير من علماء الأحياء، وعلى ما يبدو، يمارسون عملهم البحثي في البيولوجيا في سياق الأفكار والتصورات والقوانين التي انتهي إليها تشارلز داروين Darwin في القرن التاسع عشر والتي تدور حول الصراع من أجل البقاء، والبقاء للأصلح والتغير الذي يحدث بفعل الانتخاب الطبيعي، إلا أن الأصوليين المسيحيين وحدهم، ومعهم أصولي الديانات التوحيدية، يفكرون ويعملون وفق نموذج Paradigm يختلف تمام الاختلاف عن نموذج التطور والنشؤ والارتقاء الذي قدمه داروين. إن النموذج الذي يتبناه الأصوليون يؤكد على علمية الخلق Creation بفعل قوة وإرادة إلهية بدلاً من عملية التطور والنشوء والارتقاء.

وبالإمكان العثور في سياق نموذج الداروينية على بعض الاختلافات المهمة بين العلماء بشأن الوقائع والعناصر التي تتضمنها نظرية داروين. مما يعد دليلاً على أن النظرية تنطوي على بعض الوقائع والعناصر المتناقضة. ومن وجهة نظر كون Kuhn فإن هناك عددًا من التفسيرات الموجودة بجانب بعضها البعض في مجال البيولوجيا، ولكن بالرغم من ذلك فإنه لا يوجد حتى الآن نموذج متاح يمكن أن يحل محل نظرية داروين.

وثمة مثال آخر نجده في علم الفيزياء والذي شهد تحولا ثوريًا من التصور الميكانيكي والآلي للكون، وهو التصور والنموذج الذي صاغه اسحق نيوتن Newton والذي كان مسيطرًا في الفيزياء القديمة، التي شهدت تحولاً ثوريًا مع ظهور نظرية النسبية لأينشتين والتي تتمحور حول المبدأ القائل بنسبية Relativism الزمان والمكان، وكذلك نظرية الكم Quantum Theory التي ترى أن انبعاث وامتصاص الطاقة لا يتم على نحو متصل أو بشكل موجات، وإنما على مراحل وجزئيات منفصلة كل منها يمثل انبعاث وامتصاص مقدار معين من الطاقة يسمي الكم Quantun. إن حجم ومدى

التغير الذي أحدثته كل من نظرية النسبية وميكانيكا الكم في نموذج الفيزياء والتحول من الفيزياء التقليدية وتصورها الميكانيكي للكون، إلى الفيزياء الحديثة وتصورات النسبية وميكانيكا الكم، وصف بأنه تغير وتحول ثوري لأن شهد انبعاث وبزوغ رؤية جديدة متسقة للعالم وللكون مغايرة تمامًا لما كان سائدًا من قبل، وهذه الرؤية الجديدة لم تكن وليدة لجهود الجماعة العلمية المغلقة لعلماء الفيزياء، وإنما جاءت كمحصلة للجدل والحوار والمناقشات المستمرة والدؤوبة والتطورات التي قادها مجموعة من علماء الفيزياء الذين تتجاوز اهتماماتهم العلمية الجوانب التقنية والفنية المحدودة لأبحاثهم. لقد كان هؤلاء العلماء مهمتين وبعمق بكل الجوانب والقضايا الفلسفية التي أثارتها وانطوت عليها الفيزياء الحديثة، وحاولوا وبعقل منفتح البرهنة على صحة فهمهم الجديد لطبيعة الواقع والعالم من حولهم.

وعلى النقيض تمامًا من التصور الديكارتي الميكانيكي للعالم، فإن الرؤية الجديدة لهذا العالم والتي بزغت مع التحولات الثورية التي شهدتها الفيزياء الحديثة أصبحت تتسم بسيادة مفاهيم ومصطلحات جديدة مثل العضوية، والأيكولوجيا...، ومع هذه التصورات لم يعد ينظر إلى العالم بحسبانه مكونًا من مجموعة من الأجزاء المنفصلة، وإنما يتم النظر إلى هذا العالم بحسبانه قوة دينامية، وكل عضوي لا يتجزأ وداخل هذا الكل توجد علاقات متبادلة وضرورية بين عناصره ومكوناته المترابطة، وبالإمكان فهم هذا الكل فقط بالنظر إليه باعتباره أحد الأنماط الدينامية للعلميات الكونية أو للكون بأسره.

ويعود هذا الاهتمام الذي استغرق الكثير من النقاش حول النماذج والأطر النظرية والتصورية Paradigms بسبب صلتها الوثيقة بعلم الاجتماع. فهذا العلم يتم توجيه النقد إليه بشكل دائم ومستمر بأنه ليس علمًا على الإطلاق لأنه ينطوي على أنماط عديدة من التفسيرات، والرؤى والأطر التفسيرية والنماذج للحقيقة الاجتماعية الواحدة مثل الوظيفية، والماركسية، ونظرية الصراع، ونظرية الفعل الاجتماعي وهو الأمر الذي يفقد هذا العلم الكثير من مصداقيته

عند مقارنته بما هو حادث في العلوم الطبيعيـة والتـي تنطـوي أيـضًا علـى رؤى متنوعة ونماذج وأطر تصورية عديدة للعالم. ورغم ذلك فـإن العلـوم الطبيعيـة قـد أوجدت إحساسًا بالإجماع على المدخل النظري والمنهجـي بدرجـة أكبـر وأوضـح مما هو حادث في علم الاجتماع الذي مـا زال علمًـا بعيـدًا عـن أن تتحقـق فيـه وحدة النموذج.

ولا تكتمل مناقشتنا للعلاقة بين العلم وعلم الاجتمـاع بـدون أن ننظـر بعـين الاعتبار ما قدمه هايزنبرج Heisenberg . لقـد رأينـا أن مكونـا أساسـيًا ومهمًـا فـي المـنهج العلمـي كونـه يتـضمن القيـاس الموضـوعي الـدقيق والمحـدد، والملاحظات الموضوعية. وعلى ما يبـدو أن العلمـاء يمكـنهم القيـام بملاحظـاتهم دون الوقـوع تحـت تـأثير مـا يلاحظونـه. إن مبـدأ عـدم التحديـد واللايقـين Uncertainty Principle الذي قدمه هـايزنبرج يقتـرح شـيئًا آخـر. فهـو يؤكـد على أن عملية الملاحظـة Process of Observation تـؤثر دومًـا فـي الـشيء الملاحظ إلى حد ما، وأن العالم أو الباحث يتـدخل بدرجـة مـا فـي التـأثير علـى السلوك الذي يلاحظه. وليس مهمًا إن كان هـذا التـأثير قلـيلاً. ووفقًـا لهـايزنبرج فإن الملاحظ والشيء الذي يقوم بملاحظتـه ليـسوا منفـصلين عـن بعـضهما، وأن كلاً منهما يعُد مكونًا في نسق أو نظام واحـد، ويعُـد هـذا مثـالاً كلاسـيكيًا علـى مسألة الذاتية في العلم. وتشكل العلوم الاجتماعية جميعهـا وفـق مبـدأ اللايقـين، أو عدم التحديد، مصدرًا دائمًا للحيرة والـشك، حيـث تـتم عمليـات دراسـة الأفـراد والمجتمعات المتغيرة دومًا وفق مسارات غير متوقعـة بـل ويـصعب التنبـؤ بهـا. إلا يعنى ذلك أن علم الاجتماع وفق هذه التصورات مـن المحتمـل ألا يكـون علمًـا بالمعنى المتعارف عليه؟ يتعين علينا أذن أن نقِّيم مكانة علـم الاجتمـاع فـي سـياق مقارن مع العلوم الطبيعية.

٢- علم الاجتماع: علم أم فن؟:

عندما تقارن علم الاجتماع بمنهجية البحث المتبعة في العلوم الطبيعية والقائمة على أدراك وجود المشكلة، ثم تحليلها في ضوء النظرية، وفرض الفروض، والملاحظة، والتجريب والقياس واختبار الفروض في ظل التحكم في شروط التجربة، والحصول على البيانات وتحليلها.... الخ؛ فمن المؤكد ستظهر أمامنا الكثير من أوجه الاختلاف. فمن الصعوبة بمكان على العلماء الاجتماع أن يقوموا بأجراء تجارب على غرار ما يفعل علماء العلوم الطبيعية، إما لأسباب إمبيريقية تتعلق بالمتغيرات الاجتماعية والتي تكون على درجة بالغة من التركيب والتداخل والتعقيد، وإما الأسباب أخلاقية وأدبية. فالمتغيرات والظواهر الاجتماعية مثل الطبقة Class، والقوة Power، لا يمكن تحديدها وتعريفها بنفس الدرجة من الدقة والتحديد التي نعرف بها مفاهيم مثل الوزن ودرجة الحرارة. وحتى إذا ما قدمنا تعريفًا جيدًا لمفهومي الطبقة والقوة، فإنه من المستحيل قياسهما بأي شئ تتوافر فيه الدقة والتحديد المعتاد في العلوم الطبيعية.

ويفترض علماء الاجتماع أن بإمكانهم محاكاة العلوم الطبيعية وإنتاج علم المجتمع Science of Society، على أن يكون علمًا موضوعيًا وغير متحيزًا أو متحذيًا. وهذه الأمنية لتأسيس علم اجتماع موضوعي ومتحرر من القيم وغير متحيز كامنة في صلب المدخل الوضعي داخل علم الاجتماع، وبصفة خاصة في الاتجاه النظري المعروف بالوظيفية.

٣- الوضعية والوظيفية : Positivism and Functionalism

يعد علم الاجتماع من المنظور الوضعي علمًا بالمعني الحقيقي للكلمة. فالوضعية تفترض أن المجتمع الإنساني له سمات موضوعية محسوسة ومنتظمة تماثل تمامًا ما تم اكتشافه في العالم الطبيعي. وكما هو حادث في العالم والنظام الطبيعي المحكوم بقوانين صارمة؛ فإنه من المفترض أن تكون هناك أيضًا قوانين عامة ونوعية تحكم ظواهر الاجتماع الإنساني. وبالنسبة لكثير من علماء الاجتماع الوظيفيين فإن الهدف من علم الاجتماع هو اكتشاف

هذه القوانين من خلال استخدام مداخل وتقنيات تقترب إلى حد كبير بما هو حادث في العلوم الطبيعية.

وتعد دراسة دوركايم Durkheim للانتحار Suicide مثالاً كلاسيكيا نقدمه هنا للمدخل الوضعي. لقد أكد دوركايم، كما ذكرنا سلفًا، على ضرورة دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة موضوعية وبحسبانها أشياء خارجية موجودة خارج شعور الأفراد وسابقة في الوجود على وجودهم الفردي، وأن مهمة البحث السوسيولوجي هي التعرف على هذه الظواهر في واقعها الذي تكون عليه في المجتمع وكشف القوانين التي تتحكم فيها وترتيبها من الخاص إلى العام اعتمادًا على الملاحظة الحسية والتجريب واستقراء القوانين العامة والنوعية التي تحكم حركة الظواهر الاجتماعية وتفسرها في جميع صورها.

وانطلاقًا من هذا التصور، حاول دوركايم وبموضوعية إثبات أن ثمة علاقة سببية وعلِّيه بين درجة التكامل الاجتماعي داخل المجتمع ومعدل الانتحار. وحاول أن يوضح أن بإمكان علم الاجتماع تفسير الانتحار بحسبانه ظاهرة اجتماعية Social Phenomenon أكثر من كونه مجرد عملاً فرديًا خالصًا، وذلك برده إلى علِّل وأسباب اجتماعية خالصة. وانتهى إلى بلورة نظرية حول أثر التكامل الاجتماعي، أو تضامن الجماعة على اختلاف معدلات الانتحار. وكيف أن هذه المعدلات تختلف اختلافًا عكسيًا باختلاف درجة التكامل أو التضامن الاجتماعي.

ويندرج هذا التوجه الوضعي في إطار علم اجتماع الوحدات الكبرى ويمكن لعلماء الاجتماع افتراض وجود مبادئ وقوانين وضعية تحكم حركة الظواهر الاجتماعية ويمكن الكشف عنها بالمسوح الاجتماعية فهناك أنماط من الظواهر الاجتماعية قابلة للقياس، ويمكن أن نجمع بيانات ومعلومات بشأنها اعتمادًا على طرق وأساليب بحثية موضوعية وغير متحيزة.

٤- علم الاجتماع الراديكالي ونظرية الصراع **Radical Sociology and:**

يتعين علينا قبل الحديث عن علم الاجتماع الراديكالي الإشارة إلى التحليل الماركسي الأساسي للمجتمع الإنساني. فالنظرية الماركسية تختلف إلى حد كبير عن النظرية الوظيفية. فبينما ترى الماركسية أن المجتمع يتكون من طبقات اجتماعية متعارضة في مصالحها وأهدافها، وأن علاقة الناس بوسائل وأدوات

الإنتاج، وموقعهم من عملية التنظيم الاجتماعي للعمل، وحجـم ونـوع العائـد الـذي يحصلون عليه من عملية العمل، هذه المتغيـرات هـي التـي تحـدد الطبقـة التـي ينتسبون إليها وأن كل طبقة تسعى إلى تحقيـق مـصالحها، وهـذا بـدوره يجرهـا إلى صراع مع الطبقات الأخرى المقابلة لها. وعلى النقيض من ذلـك تمامًـا تميـل النظرية الوظيفية إلى تركيز الاهتمام البحثي على الاجتمـاع والاتفـاق القيمـي فـي المجتمع الذي تترابط عناصـره بنائيـا وتتـساند وظيفيًـا بـالنظر إلـى الاعتمـاد المتبادل وما يتطلبه من استقرار وتوازن وتناغم وانـسجام، وهـي شـروط أساسـية لازمة وضرورية لقيام المجتمع بأداء وظائفه على نحو فعال.

وعلى الـرغم مـن ذلـك الاخـتلاف، فـإن كلتـا النظريتـان، الماركـسية والوظيفية تتفقان في التصور الوضعي للمجتمـع الإنـساني وهـو التـصور الـذي يفترض أن الظواهر الاجتماعية لها وجود موضوعي مـستقل عـن وعـى الإنـسان وأرادته، وأنها أشياء تقريرية قابلة للملاحظة والدراسـة والبحـث والقيـاس اعتمـادًا على الأساليب البحثية الموضوعية.

وتشكل ظواهر الفقـر، وغيـاب العـدل الاجتمـاعي، والظلـم والاضـطهاد، والقمع، والاستبداد داخل المجتمعات المعاصـرة محـاور الاهتمـام الرئيـسية لعلـم الاجتماع اليـساري الراديكـالي، هـذا فـضلاً عـن اهتمامـه بالرؤيـة والتنـاول الموضوعي للعمليات الاجتماعية المرتبطة بالنوع الاجتمـاعي والـسلالة، والطبقـة الاجتماعية. ويركز علم الاجتماع الراديكالي على التنـاول النقـدي لمظـاهر غيـاب العدل والمساواة في المجتمعات المعاصرة، ويهتم بإمكانيـة تغييـر هـذه الأوضـاع لـصالح الجماعـات المـضطهدة والفئـات الـضعيفة فـي المجتمـع كـالفقراء، والعاطلين، الطبقات العاملة، والأقليات، والنـساء، ويؤكـد علـى ضـرورة التغييـر الجذري الراديكالي للنظم الراهنة ويطـرح البـدائل الممكنـة للتنظـيم الاجتمـاعي القائم.

وقد ناقش ماركسا، كما لاحظنا قبلاً، قضية التحليل العلمي للمجتمع الإنساني وظواهره، وأكد على أن المهمة المطروحة ليست فقط تحليل المجتمع الإنساني وفهمه، وإنما تغييره أيضًا. وهو الأمر الذي يباعد بين الماركسية والوظيفية التي تؤكد على الاستقرار والانسجام والتناغم والتوازن الاجتماعي داخل المجتمع. ونحن نجد هذا التصور القائم على اعتبار أن المجتمع يمكن دراسته دراسة موضوعية لدى العلماء اجتماع آخرين إلا أنهم يؤكدون على أن المجتمع ليس بطبيعته في حالة توازن أو صراع ذلك أن وضع المجتمع يختلف من مرحلة تاريخية إلى مرحلة أخرى، فقد يسودها الاضطراب لفترات تاريخية طويلة وممتدة، ثم يعاوده الاستقرار لعدة عقود.

٥- علم الاجتماع التأويلى Interpretive Sociology:

يُعد علم الاجتماع التأويلي أحد الاتجاهات النظرية المهمة الموجودة على ساحة التنظير السوسيولوجي وهو اتجاه نظري كبير ويرتبط بصفة خاصة بعلم اجتماع الوحدات الصغرى (الميكروسوسيولوجي) Micro Sociology ، ويسمي هذا الاتجاه أحيانًا باتجاه الفعل الاجتماعي Social Action أو الاتجاه التأويلي في علم الاجتماع. وقد أسهم ماكس فيبر Max Weber (١٨٦٤ – ١٩٢٠) إسهاما مهمًا في هذا الاتجاه إلى حد اعتباره الأب المؤسس للاتجاه التأويلي في علم الاجتماع وبنفس قدر إسهامه في تأسيس الاتجاه البنائي.

إن المهمة الأساسية لدى علم الاجتماع التأويلي هي دراسة الفرد وفعله باعتباره وحدة البحث الأساسية في علم الاجتماع. فالفرد هو النهاية القصوى للفعل ذي المعنى، والناقل الوحيد له. ومهمة علم الاجتماع التأويلي هي اختزال مفاهيم مثل الدولة والنظام...، إلى فعل قابل للفهم طالما أن هذه المفاهيم ترمز إلى أنماط معنية من التفاعل الإنساني.

ولقد دافع فيبر Weber عن الحاجة إلى تطوير الفهم السببي للعمليات الاجتماعية والتاريخية، وكيفية تأويل الناس للأوضاع والمواقف التي يوجدون

فيها؟ وما الذي تعنيه هذه المواقف بالنسبة لهم، والمعاني التي يخلعونها على هذه المواقف؟ وقد جاء الإسهام الرئيسي الآخر في هذا الاتجاه النظري من قبل جورج هربرت ميد G. H. Mead ونظريته التفاعلية الرمزية Symbolic interactions أو التفاعلية ويعد هذا الاتجاه اكثر المنظورات التأويلية تأثيرا وأيسرها على الفهم. وأهتم أصحاب هذا الاتجاه بإدخال البعد الذاتي في علم الاجتماع وهو يؤكد على صعوبة قياس الظواهر الاجتماعية بنفس درجة ومستوى التأكيد الحادثة لدى الاتجاه الوضعي وعلماء الاجتماع الوضعيين. ومع اهتمام علم الاجتماع التأويلي بكيفية وصف الناس وفهمهم للمواقف التي يوجدون فيها ويخبرونها وتأويليهم لها، يصبح من الصعوبة بمكان اعتبار علم الاجتماع ألتا ويلي علمًا، أو إضفاء الطابع العلمي عليه بالمعنى الكلاسيكي المتعارف عليه لدى أصحاب الاتجاه الوضعي لأن المنظورات التأويلية تهدف إلى جعل المعنى والقصد الفرديين جزءًا لا يتجزأ من نظرية علم الاجتماع وهذه المنظورات، نظريات التفاعلية الرمزية والاثنوميثودلوجيا أو المنهجية الشعبية، والظاهراتية، لا تبدي بالتفسيرات السببية والعلية للظواهر الاجتماعية ووصفها وصفًا موضوعيًا واقعيًا، الأمر الذي وقع البعض إلى تقرير أن علم الاجتماع التأويلي أقرب للإنسانيات منه إلى العلوم بدعوى أنه في جوهره مناقض للعلم.

ويؤكد ماكس فيبر Weber على الحاجة إلى الموضوعية وعدم الانحياز في البحث والقياس السوسيولوجي. ودعا إلى ضرورة أن تكون الأساليب البحثية التي يستخدمها علماء الاجتماع، أساليب موضوعية أيضًا بحيث تمكنهم من وصف الظواهر الاجتماعية لأقرب ما تكون عليه بالفعل وفي الواقع، وعلى الرغم من دعاوى التحرر ومزاعم عدم الانحياز فإن عالم الاجتماع تظل لديه قيمه الخاصة، ورؤاه، وانتماءاته، وحاجاته الذاتية الأمر الذي يعني تلازم وتقاطع الذاتية والموضوعية معًا في مجال البحث السوسيولوجي فكل من علماء

الاتجاهين الوضعي، والتأويلي يتقبلون وبنفس الدرجة تقريبًا البعد الذاتي في فهم المجتمع وظواهره وفي بحوث علم الاجتماع. ومن رأى الفريقين المتقابلين أن البعد الذاتي يرد في البحث السوسيولوجي من خلال أن الباحثين أنفسهم، وكما ذكرنا سلفًا، لديهم قيميهم الخاصة وانتماءاتهم، والأمر الثاني أن المبحوثين أنفسهم يتصرفون على نحو فردي لا يمكن بحال التنبؤ بمساراته وعلى نحو دقيق.

إن استقراء واقع الحال لنظريات علم الاجتماع يعطي انطباعًا عامًا أننا بصدد علم شديد الانقسام، فثمة انقسام حاد على مستوى النظرية يبدو أحيانا وكأن هناك حربًا عنيفة بين المنظورات البنائية الوظيفية، والماركسية في جانب، والمنظورات التأويلية، الفعل الاجتماعي والتفاعلية، الاثنوميثودلوجيا، والظاهراتية، في الجانب الآخر. هذا فضلاً عما ينطوي عليه كل اتجاه من الاتجاهين الكبيرين من انقسامات وتقابلات حادة أيضًا كالتناقص والتقابل الحادث بين الماركسية والوظيفية مثلاً داخل الاتجاه البنائي. الأمر الذي دفع إلى تقرير أن هذا الانقسام الحادث داخل علم الاجتماع ليس مفيدًا، بل يقرر البعض أنه غير دقيق أحيانا أخرى.

ويتعين علينا قبول هذا الواقع والاعتراف بأن ثمة اتجاهات نظرية متقابلة وأن علماء الاجتماع يحملون تصورات وأفكار، ويستخدمون أساليب بحثية تنتمي لأكثر من اتجاه نظري. فالنظريات البنائية تؤكد أن المجتمع شئ خارج وعن الأفراد ومستقل عن وعيهم وإراداتهم وهو يصوغ سلوكهم ويحدد هذا السلوك. وهذه العوامل والمتغيرات الخارجية تشكل مجتمعة ما يسمي بالبناء الاجتماعي. وتركز النظريات البنائية على بحث الوحدات الكبرى وتعتمد المناهج والأساليب الكمية والمسوح الاجتماعية والمقارنة وتستخدم الاستبيانات والمقابلات المقننة. وفي مقابل ذلك فإن النظريات التأويلية تركز على الأفعال الفردية ذات المعنى والهدف أو القصد والغرض، وتميل إلى استخدام المناهج

والأساليب البحثية الكيفية، وتعتمد الملاحظة المشاركة وغير المشاركة والمقابلات غير المقننة، وهي أساليب تختلف كثيرًا عن الأساليب المتبعة في النموذج الكلاسيكي للعلم. وفيما يتعلق بمن يتبنون الإطار التصوري الوضعي فإن افتراضاتهم تقوم على أساس أن علم الاجتماع يمكنه النمو والتطور كنسق معرفي علمي وموضوعي اعتمادًا على اكتشاف القوانين الموضوعية العامة والنوعية التي تحكم حركة الظواهر الاجتماعية التي يمكن ملاحظتها وبحثها ورصدها. أما بالنسبة لأصحاب الاتجاهات التأويلية، فإن علم الاجتماع بالنسبة لهم هو مصدر الفهم السببي والتفسيري للعالم المحيط بنا.

وفي ختام هذه المناقشة فإن علم الاجتماع يعتبر نوعًا من العلوم ومن الفنون أيضًا وفي آن واحد. فهو مثل بقية العلوم يستخدم أساليب بحثية موضوعية ومؤكدة، وعندما نسترجع تحليلات كون Kuhn، وهايزنبرج Heisenberg يمكننا أن نقرر أن دراسة المجتمع تختلف فقط في الدرجة عن العلوم الطبيعية. ويكون علم الاجتماع فنًا بقدر ما يقدم من صور وانطباعات وتصوير للتغير الحادث في طبيعية المجتمع الإنساني، صور وانطباعات تفتقد للقياس والتحديد الكمي.

٦- النظرية واستراتيجية البحث **Theory and Research Strategy**:

لدى علماء الاجتماع، كما هو حادث في العلوم الطبيعية، نظريات متنوعة ومتقابلة أيضًا، وعلى حد تعبير كارل بوبر Popper لديهم حدس، ومعارف تخمينية وظنية عن المجتمع الذي يدرسونه ويبحثون ظواهره. وترتبط هذه النظريات عادة بالاتجاهات والمداخل النظرية السوسيولوجية التي حددناها سلفًا. ونحن هنا في حاجة للإجابة عن السؤالين التاليين:

أ- ما الدور الذي تنهض به النظرية الاجتماعية في البحث السوسيولوجي؟

ب- وما علاقة النظريات بعمليات البحث العلمي السوسيولوجي.

أ- دور النظرية الاجتماعية:

من شأن النظريات أن توفر لنا إطارًا تفسيريًا للظـواهر التـي نقـوم ببحثهـا ودراسـتها. والنظريـة عبـارة عـن مجموعـة مـن الافتراضـات، والقـضايا، والتعميمات المترابطة ترابطاً منطقيًا في نـسق مـنظم، وعلـى نحـو يجعـل مـن اليسير استنباطها بعضها مـن بعـض. وتحـاول النظريـات الكـشف عـن العلـل والأسباب، والعلاقات الارتباطيـة الكامنـة خلـف الأحـداث والوقـائع والعمليـات المحددة. وتعمل النظرية علـى توجيـه دوائـر البحـث العلمـي الاجتمـاعي منـذ اللحظات الأولى التي نختار فيها مشكلة مـا أو قـضية بعينهـا كموضـوع للبحـث مرورًا بصياغة مـشكلة البحـث والمفـاهيم والأسـاليب البحثيـة، ووصـولاً إلـى النتائج. إن النظرية تضفي المغـزى والدلالـة علـى النتـائج التـي ننتهـي إليهـا. وتساعد التوجهات والتعميمات النظرية علـى تنميـة وتطـوير البحـث. فالنظريـة تعمل على توجيه اهتمام الباحثين إلى بحث أنماط سـلوكية محـددة والابتعـاد عـن أنماط أخرى، وهـي تقـوم بتوجيـه البحـث الميـداني، وتـوفر إطـارًا مفاهيميًـا وتصوريًا يتم من خلاله تنفيذ البحث. ولذلك فحـال غيـاب النظريـة يعنـي أن كـل ما يمكن أن يفعله عالم الطبيعة، أو عالم الاجتمـاع، هـو فقـط الملاحظـة الحـسية Just observe . فهما يفتقـدان لأي تعريـف محـدد للمـشكلة موضـوع البحـث، وستكون هذه الملاحظة محض تدريب فاشل وجهد لا قيمـة لـه. لأنـه مـع غيـاب النظرية لن تكون هناك أية معايير أو محكـات موضـوعية تحـدد لنـا مـا الـذي يتعين علينا أن نبحثه ونلاحظـه فـي الظـاهرة موضـوع البحـث والدراسـة. إن النظريات الاجتماعية مـن الممكـن أن تكـون علـى درجـة بالغـة مـن التعقيـد والتركيـب مثـل نظريـة تـالكوت بارسـونز Talcott parsons عـن الأنـساق الاجتماعيـة، أو أن تكـون النظريـة مجـرد مجموعـة محـددة مـن الفـروض والتعميمات على نحو ما هو حادث في النظريات المفـسرة للـسلوك الانتخـابي، أو تلك النظريات المتعلقة بمظاهر السلوك والفعاليات الدينية.

ب- النظرية والبحث Theory and research:

يعد البحث عملية عقلية قوامها التنظيم المنطقي لخطوات ومراحل المسيرة العلمية لفهم الظواهر على حقيقتها اعتمادًا على استخدام منهج معين ذي سمات محددة هو المنهج العلمي. وتهدف هذه العملية إلى التعرف على الظواهر الاجتماعية في صورها المتباينة داخل الثقافات المغايرة، وتقصي أسبابها وعلاتها وعلاقاتها الارتباطية بغيرها من الظواهر، وبيان العوامل المتقابلة التي أوجدتها، ومحاولة إحداث تغيير فيها، والتنبؤ بمآلها في الوقت الراهن وفي المستقبل. وقد استخدم رايت ميلز C. W. Mills مصطلح النظريات الكبرى grand Theory للإشارة إلى كل النظريات المرتبطة بمفكرين من أمثال ماركس Marx، وبصفة خاصة تاكلوت بارسونز T. Parsons . فقد كانت المفاهيم التي استخدمها بارسونز على درجة عالية من التجريد، وحاول هو وماركس تفسير العملية الكاملة للمجتمع الإنساني، وافترضا أن النماذج التي قدموها عن النظام الاجتماعي تعد نماذج كونية/ عالمية يمكن أن تنسحب على كل المجتمعات الإنسانية. وهذه النظريات صعبة للغاية ويستحيل إخضاعها للتجريب ويصعب اختبارها. إن أصحاب النظريات الكبرى يعتبرون الآباء المؤسسين لعلم اجتماع الوحدات الكبرى Macrosociology ، وكان لهم تأثير بالغ على عملية البحث السوسيولوجي حيث حددوا وبوضوح تام الخطوط الرئيسية لمسار عملية البحث، والمشكلات التي يتعين على علماء الاجتماع دراستها وبحثها. ومنهم الماركسيين، على سبيل المثال، في دراساتهم وبحوثهم عن التعليم والتربية، والكشف عن الدور الذي تقوم به الطبقة الاجتماعية والانتماء الطبقي في النجاح التعليمي، ذلك لأن النظرية الماركسية تفترض وجود مثل هذه العلاقة بين الانتماء الطبقي والتفوق الدراسي.

ونجد على الجانب الآخر مفهوم النظريات الصغرى، وقد استخدم هذا المفهوم للإشارة إلى النظريات التي يتم تطويرها من خلال استقراء الواقع

الاجتماعي خلال عملية البحث السوسيولوجي. وترتبط هذه النظريات ارتباطًا وثيقًا بعلم اجتماع الوحدات الصغرى Microsociology، ومنظور الفعل الاجتماعي مع التأكيد على التأويلات والمعاني التي يخلعها المبحوثون على المواقف التي يخبرونها. وعلى الرغم من انطلاق عالم الاجتماع من النظرية التي يستمد منها تصوراته وافتراضاته، ثم يعمد إلى اختبار هذه الافتراضات، إلا أن السمات الأساسية للنظرية تتحدد من خلال التعريفات والأوصاف التي يقدمها الناس الذين يدرسهم ويبحث أحوالهم وأوضاعهم. وحتى مع هذا المدخل الأمبيريقي، بل الموغل في الإمبريقية، فإن عالم الاجتماع ما يزال في حاجة إلى الأفكار والتصورات النظرية الموحية والموجهة عن المشكلة التي يقوم بدراستها، والتي توجه مسار عملية البحث وتحدد له الجوانب والمتغيرات التي يتعين أن يركز عليها اهتمامه البحثي.

وقد ظهر اتجاه ثالث بين هذين الاتجاهين المتطرفين، اتجاه النظريات الكبرى، واتجاه الإمبريقية المجتزأة، في البحوث السوسيولوجية. وهذا الاتجاه الثالث ينطلق من ما يمكن أن نطلق عليه بالنظريات متوسطة المدى Middle Level Theory وقد ارتبط هذا الاتجاه باسم عالم الاجتماع الأمريكي روبرت ميرتون وهذه النظريات المتوسطة المدى لا تدعي محاولة تفسير العمليات الاجتماعية للمجتمع بكامله ولا تميل إلى الركون إلى افتراضات عامة وواسعة عن طبيعة المجتمع الإنساني مثل الوجود الاجتماعي، والوعي الاجتماعي، والصراع الطبقي، وإنما تكون بؤرة اهتمامها البحثي الموضوعات والقضايا الأكثر تحديدًا كدراسة الاغتراب Alienation ، ودراسة ثقافة الفقر Culture of poverty ، ودراسة الجندر أو النوع gender من حيث الذكورة والأنوثة.

إن نمط النظرية الاجتماعية وهويتها، والتي سننطلق منها ونتبناها تؤثر حتمًا في اختبارنا للمشكلة التي ندرسها، وفي صياغة هذه المشكلة، وفي تحديد للمفاهيم المستخدمة، وتحدد لنا الأسلوب البحثي الذي نختاره والطرق والتقنيات

البحثية التي سنلجأ إليها، كما تحدد أيضًا هوية النتائج والمعرفة والبيانات التي ستتولد عن عملية البحث. وعلى كلٍّ يتعين علينا أن نضع في الاعتبار أن علماء الاجتماع يستخدمون أساليب بحثية سوسيولوجية في بحوثهم، وأنهم من الممكن أن يجمعوا بين الأساليب الكمية Quantitative ، والأساليب الكيفية Qualitative في بحوثهم.

الفصل الرابع
المسح الاجتماعي والبحوث الكمية

١- المسح الاجتماعي وطريقة العينات.

٢- العينة العشوائية.

٣- العينة العشوائية الطبقية.

٤- عينة كرة الثلج.

٥- عينة الحصص النسبية.

٦- صياغة طرح الأسئلة.

٧- الصدق.

٨- الثبات.

٩- صياغة الاستبيان.

١٠- المقابلات.

١١- قياس الاتجاهات.

١٢- الاستبيان البريدي.

الفصل الرابع
المسح الاجتماعي والبحوث الكمية(*)

١- المسح الاجتماعي وطريقة العينات:

يعرف المسح الاجتماعي بأنه محاولة بحثية منظمة لتسجيل ورصد وجمع الحقائق والبيانات والمعلومات من الناس في بيئة معينة من حيث واقعهم المعاش، وأنشطتهم المتباينة، وتكوينهم الاجتماعي، أو جمع بيانات ومعلومات عن جماعة اجتماعية معينة، أو مشكلة، أو وضع اجتماعي، أو جانب معين من جوانب الحياة الاجتماعية، وعلى نحو موضوعي يصور الواقع لأقرب ما يكون عليه بالفعل، وباستخدام أدوات بحثية مقننة كالاستبيان، أو المقابلة، أو أي أداة أخرى من أدوات البحث الاجتماعي، على أن تتم بعد ذلك عمليات تحليل وتفسير وتأويل هذه الحقائق والبيانات والمعلومات والتصميم منها على مجتمع المسح أو الجماعات المستهدفة. وعادة ما يقوم علماء الاجتماع الراغبون في إنتاج بيانات إحصائية أصلية بإجراء المسح الاجتماعي، الأمر الذي يعني أن الأساليب البحثية الكمية مرادفة بالفعل للمسح الاجتماعي.

ولا تعتمد البحوث الاجتماعية المعاصرة على طريقة المسح الشامل لمجتمع البحث Population ، وإنما تعتمد على بحث عينة مختارة أو مسحوبة من هذا المجتمع الأصلي للبحث أو جمهور البحث. وهو في حقيقته تعبير إحصائي يشير إلى كل مفردات الظاهرة موضوع البحث، وقد تكون أفرادًا، أو أنماط سلوك، أو سمات شخصية، أو جماعات اجتماعية، أو تنظيمات اجتماعية، أو عمليات اجتماعية، مجتمعات محلية، أو مجتمعات كبيرة.

ويدور المسح الاجتماعي الشامل حول جميع مفردات الظاهرة موضوع البحث. والباحث الذي يعتمد المسح الشامل يقابل مجموع سكان المجتمع بأكملهم لأجل الحصول على الحقائق والبيانات والمعلومات المطلوبة والتي يهتم

(*) Murray Morison M. A., Methods in sociology, Longman Inc New York, 1986. PP. 31-42.

بها بحثه، وهي عملية معقدة ومتشعبة وشائكة وتتطلب جهودًا وطاقات وموارد هائلة لتنفيذها. وعلى الرغم من كلفتها المادية والبشرية فإن الحقائق والبيانات والمعلومات التي نحصل عليها عن طريق المسح الشامل قد لا تتميز بالضرورة بالدقة والموضوعية والشمول. ولهذه الاعتبارات تم التحول منذ بداية العقد الثاني من القرن العشرين من طريقة المسح الكلي الشامل والاتجاه إلى طريقة العينات Sampling Method.

ويتضمن أي بحث سوسيولوجي الآن عملية اختيار الجماعة الاجتماعية التي يتعين بحثها ودراستها، وتعتمد عملية الاختيار هذه على مجموعة من الأسس المحددة والواضحة. وتتوقف قيمة العمل البحثي في جانب مهم منها على الكيفية التي تمت بها عملية اختبار هذه المجموعة بحيث تكون ممثلة بالفعل للمجتمع الأصلي للبحث أو جمهور البحث. فعلى سبيل المثال التقرير البحثي الذي قدمه جيمي بول Jimmy Boyle والذي أشرنا إليه في فصل سابق، تتأتى قيمته السوسيولوجية من كونه يقدم لنا حقائق وبيانات ومعلومات مهمة عن العصابات والسجون في مدين جلاسكو. وهي حقائق نفترض أن لها علاقات ارتباطية بخبرات أشخاص آخرين. لذلك تعد مسألة العلاقة بين الموقف الذي يبحثه علماء الاجتماع والمجتمع الكبير، على جانب كبير من الأهمية. لأنه ما لم نتمكن من تعميم النتائج والاستخلاصات التي ننتهي إليها من البحث الذي نقوم به، فإن هذا يعني غياب وافتقاد النظرة المتعمقة للمجتمع وللنظم الاجتماعية.

وطريقة العينات Samplaing Method لا تدرس جميع مفردات المجتمع الأصلي للبحث، أو جمهور البحث Population، وإنما تدرس جزءًا صغيرًا من هذا المجتمع الأصلي للبحث في جميع خصائصه المهمة. إن طريقة العينات هي عملية من خلالها يصبح الأفراد أو المفردات الذين يتم اختيارهم ممثلين للمجتمع الأصلي للبحث. وتحدد العلاقة بين العينة والمجتمع الأصلي، والكيفية

التي تمت على أساسها اختيار هذه العينة، مدى تمثيل هذه العينة بالفعل للمجتمع الأصلي للبحث.

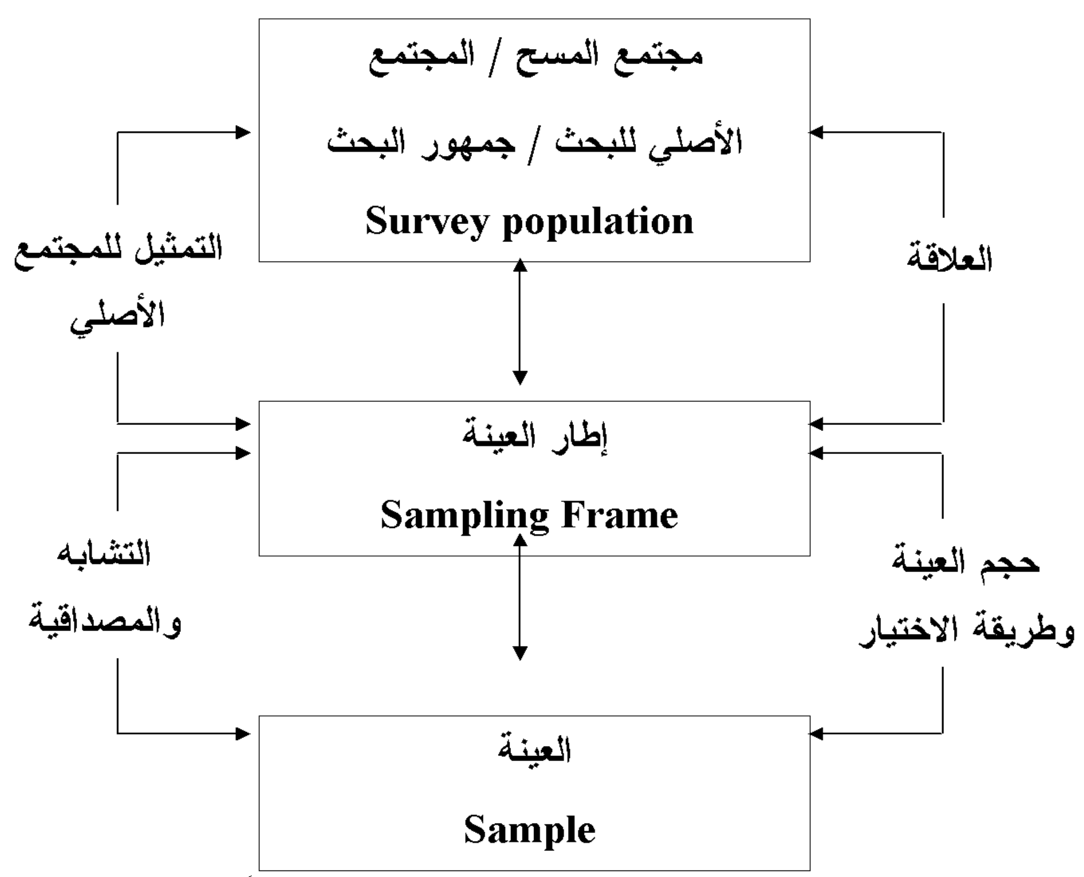
ويوجد ثلاثة مستويات للعينة، المستوى الأول سنطلق عليه مجتمع المسح Survey Population أو المجتمع المستهدف Targt Population (انظر الشكل التالي). وهذا هو المجتمع الأصلي للبحث أو جمهور البحث، والذي نأمل أن نخرج بنتائج واستخلاصات وتعميمات عنه. فعلى سبيل المثال قد يكون المجتمع الأصلي للبحث الأشخاص الذين اعتنقوا الديانة المسيحية مؤخرًا، أو النساء العاملات في وظائف مدنية من المستويات المتوسطة والعليا، أو ربات البيوت، أو الأسر، أو العصابات الإجرامية في مدينة ما. ومن الممكن ألا يكون مجتمع البحث أو الجمهور الأصلي للبحث بشرًا كأفراد أو جماعات اجتماعية، وإنما من الممكن أن يكون نشرات الأخبار في التليفزيون، أو سجلات الكنيسة، أو الجرائد والمجلات، أو المدن، أو المجتمعات المحلية كالأحياء والقرى. وتستخدم كتب مناهج البحث المختلفة عناوين متباينة للإشارة إلى هذا المستوى من عمليات اختيار العينة، منها العالم العام، أو مجتمع البحث، أو جمهور البحث. وتجدر الإشارة هنا إلى أن مجتمع المسح يعد دائمًا جماعة فرعية تنتمي إلى المجتمع الكبير، ولهذا فإن مجتمع المسح، أو مجتمع البحث يعد في حد ذاته نوعًا من العينة.

ويطلق على المستوى الثاني عادة مصطلح إطار العينة Sampling Frame. وإطار العينة هو الجماعة التي سنختار منها عينة البحث بشكل مباشر وفعلي. وتحتاج العينات إلى أطر كاملة وموثوق بها وأمينة تحتوي على جميع مفردات مجتمع البحث إنه قوائم كبيرة تحتوي على جميع أسماء السكان، أو الأسر، أو التنظيمات الاجتماعية. كما يمكن أن يكون إطار العينة أيضًا على شكل خريطة جغرافية تحتوي أسماء الشوارع والحارات والأزقة، أو البيانات، أو المؤسسات الحيوية في المجتمع، كما يكون الإطار أيضًا دليل الهاتف، أو

السجلات الانتخابية في منطقة محددة، أو قوائم الموظفين أو العمال في مؤسسة إنتاجية أو خدمية معينة، أو قوائم المدارس في مرحلة تعليمية محددة داخل مدينة بعينها، أو قوائم تتضمن كل المنازل في شوارع بعينها.

شكل رقم ( )

يوضح مستويات العينة



إن إطار العينة Sampling Frame قد يكون مماثلاً تمامًا للمجتمع الأصلي للبحث في بعض الأحيان: كما هو الحال في تقرير بحثي يتضمن أسماء كل العلماء والمفكرين والأدباء والقادة الذين على قيد الحياة والحاصلين على جوائز نوبل Noble في مختلف المجالات. ويتعين أن تكون العلاقة بين أطر العينات والمجتمع الأصلي للبحث واضحة ومحددة، وأن تكون هذه الأطر كاملة وتامة وحديثة ومفصلة حتى تساعد الباحثين على اختيار عيناتهم منها

بسهولة ومقابلة مفرداتها لأجل الحصول على البيانات والمعلومات المطلوبة والتي يتطلبها البحث. لذلك يجب على الباحث أن يتأكد من عدم تكرار الأسماء في القوائم، وأن هذه القوائم يتم تحديثها، وأنه لم تسقط أية أسماء منها، أو أن هناك أسماء لأشخاص لا يجب أن تكون أسماؤهم مقيدة في هذه القوائم.

والمستوى الثالث، هو العينة نفسها Sample. وتعرف العينة بأنها تمثيل صغير، محدد النطاق، نوع من النماذج المصغرة، أنها وكما ذكرت قبلاً، صورة مصغرة تمثل قدر الإمكان أعضاء إطار العينة ومن ثم أعضاء / مفردات المجتمع الأصلي للبحث، أي أن العينة تتضمن، أو تمثل خصائصهم المهمة والنمطية بنفس النسبة. ويتم اختيار العينة من داخل إطار العينة وباستخدام واحدة من الطرق المعروفة في اختيار أو سحب العينات.

ويعتمد تمثيل العينة للمجتمع الأصلي للبحث على عاملين مهمين. العامل الأول هو حجم العينة، وهو من العوامل المؤثرة في تمثيل العينة للمجتمع الأصلي. ويختلف الحجم السليم للعينة تبعًا لاختلاف المجتمع الذي يراد دراسته، والثاني هو طبيعة الطريقة التي تم بها اختيار وسحب العينة من الإطار أو من مجتمع البحث. ولا يعني الحجم الصحيح للعينة تحديد النسبة المئوية التي تم على أساسها اختيار العينة من الإطار أو مجتمع البحث، ولكن تعتمد هذه المسألة على العدد الفعلي الذي تتكون منه العينة، وطبيعة الظاهرة أو المشكلة التي نقوم ببحثها إن تحديد الحجم الأمثل للعينة الغاية منه ضمان أن تعكس العينة المسحوبة الخصائص النمطية والمهمة للمجتمع الأصلي وعلى نحو تحقق درجة مقبولة من الثبات.

وتجدر الإشارة إلى أنه لا توجد معايير ومحكات محددة تحدد حجم العينة الكافية. فلكل بحث مشكلاته ورؤيته الخاصة. فإذا كنا بصدد بحث ظاهرات متجانسة فإن عينة صغيرة من الممكن أن تكون كافية. أما إذا كانت مفردات المجتمع الأصلي على درجة كبيرة من التباين وعدم التجانس، فإنه يصبح من

الضروري في هذه الحالة سحب عينة كبيرة الحجم. وعلى هذا فإن حجم العينة يتحدد بالنظر إلى عدة عوامل يأتي في مقدمتها طبيعة مجتمع البحث ومن ثم إطار العينة من حيث تجانس مفرداته أو تباينهم، ونوع التصميم الذي تم إعداده للبحث، ومستوى الدقة المطلوبة، ونسبة الخطأ المقبول بالنسبة للعينة وميزانية البحث ومجاله الزمني. وبالنظر إلى هذه الاعتبارات فإن الاستبيانات التي تجري لتجديد النوايا الانتخابية ليس من الضروري أن تتم بالنسبة لكل السكان داخل مجتمع معين، وإنما من الممكن أن تتم عادة مع عدد يصل إلى ١٢٠٠ مفردة منهم، أو ما يقترب من هذا العدد من المبحوثين وعلى كل فإن هذه الطريقة تحقق نجاحًا متفاوتًا.

وتهدف طرق اختيار العينات إلى السيطرة على كل أشكال الانحياز الذي يمكن أن يقع عند اختيار العينة ذاتها، فهذا الانحياز يقضي على التماثل والتشابه بين العينة، وإطار العينة، كما يكون من شأنه أن يفقد العينة تمثيلها للمجتمع الأصلي للبحث. ويتم اختيار العينات اعتمادًا على أنماط متباينة من طرق الاختيار. فإذا ما كانت كل مفردات مجتمع البحث معروفة للباحث، فإنه يختار عينة تكون ممثلة إلى أقصى حد للمجتمع الأصلي حتى تكون لديه مشروعية تصميم النتائج التي سيصل إليها من بحث هذه العينة على هذا المجتمع الأصلي. في هذه الحالة فإن الباحث سيعمد إلى اتباع طريقة اختيار العينة العشوائية أو الاحتمالية Random Sample أما إذا كانت مفردات مجتمع البحث غير معروفة للباحث، فسوف يختار أفراد عينته على أساس ما يتوافر لديه من معلومات عامة عن هذا المجتمع وهو هنا لا يمكنه أن يقرر ما إذا كانت هذه العينة ممثلة للمجتمع الأصلي للبحث، وبالتالي لا يستطيع أن يقرر أيضًا، أن نتائج بحثه تنطبق بدقة على المجتمع الأصلي للبحث كله. هنا الباحث سيلجأ إلى استخدام أسلوب العينة غير العشوائية أو غير الاحتمالية Non-random Sample.

٢- العينة العشوائية Random Sample:

وتعني هذه الطريقة في اختيار وسحب العينـات، أن كـل مفـردات المجتمـع الأصلي للبحث تتمتع بفرص متساوية ومتكافئـة للـدخول فـي العينـة، أو التمثيـل في العينة فكل فـرد، أو مفـردة مـن المجتمـع الأصـلي تكـون أمامهـا فرصـة متساوية ومتكافئة للدخول في العينة. أي تتـاح لكـل المفـردات فرصًـا متـساوية تمامًا لأن يتم اختيارها في العينة ودون تدخل أي من عوامـل التحيـز فـي عمليـة الاختيار. ولا تعني العشوائية هنا الاختيار كيفما اتفق وإنمـا تعنـي الاعتمـاد علـى قوانين حساب الاحتمـالات Probability، وهـي قـوانين إحـصائية فـي اختيـار مفردات العينة تعطي وتضمن فرصة متكافئة لكـل المفـردات فـي أن تمثـل فـي العينة.

وإذا كانت جميـع مفـردات المجتمـع الأصـلي للبحـث معروفـة للباحـث، ويوجد قدر كبير من التجانس بين هذه المفردات في الـسمة التـي يبحثهـا الباحـث فإنه يـستخدم أسـلوب العينـة العـشوائية البـسيطة Simple random sample، أو أسلوب العينـة العـشوائية المنتظمـة Systematic Sampling حيـث يـتم اختيـار الاسم رقم ٥ أو رقم ١٠ من قـوائم الأسـماء، علـى سـبيل المثـال. أو باسـتخدام جداول الأرقام العـشوائية، أو الأرقـام العـشوائية التـي يقـدمها الحاسـب الآلـي وباستخدام معادلات إحصائية معينة وهذه الطريقة تكون أكثـر دقـة وإجرائيـة مـن استخدام العملة أو الطوس، وتحتاج هذه الطريقة إلى تـوافر قائمـة مفـصلة تحتـوي على جميع أسماء المجتمع الأصلي للبحث، وتكـون هـذه الطريقـة مرقمـة ترقيمًـا متسلسلاً، فإذا كان مجتمع البحث مكونًا مـن ١٠,٠٠٠ أسـرة مـثلاً، وأسـماء هـذه الأسر مرقمة ومتسلسلة تسلسلاً تصاعديًا يبدأ من رقـم١ وينتهـي بـالرقم١٠,٠٠٠، ونريد أن نختار عينة تتكون من ٥٠٠ أسرة مـن مجتمـع البحـث، فـإن الاختيـار يتم أولاً بتجديد الرقم العشوائي المناسب وتحديد مسافة الاختيـار فقـد نختـار مـثلاً رقم ٥ من القائمة الكبيرة التـي تحتـوي علـى جميـع أسـماء المجتمـع الأصـلي

للبحث، وبعد ذلك نحدد مسافة الاختيار بقسمة عدد مفردات عينة البحث (٥٠٠ أسرة)، على المجموع الكلي لمجتمع البحث الذي سنسحب منه العينة (١٠,٠٠٠) أي:

$$\frac{٥٠٠}{١٠٠٠٠} = \frac{١}{٢٠}$$

وبالتالي فإن مسافة الاختيار تكون ٢٠ ويعني هذا أن كل مفردة في العينة أو كل أسرة في العينة تمثل ٢٠ أسرة في المجتمع الأصلي للبحث ٥ ، ٢٥ ، ٤٥ ، ٦٥ ، ٨٥ ، ١٠٥ ، .... وهكذا حتى نختار ٥٠٠ أسرة من القائمة. أو كتابة جميع أسماء مجتمع البحث على قطع من الورق الصغير بحيث تحمل كل ورقة صغيرة اسمًا من أسماء مجتمع البحث، وتوضع هذه الأوراق الصغيرة في كيس كبير أو صندوق، وتمزج بعضها مع بعض مزجًا جيدًا، وبعد ذلك يختار منها الباحث العدد المطلوب بحثه ودراسته دون تحيز أو تمييز من جانبه. وتسمى هذه الطريقة بالطريقة التقليدية للاختيار العشوائي للعينة lottery Method .

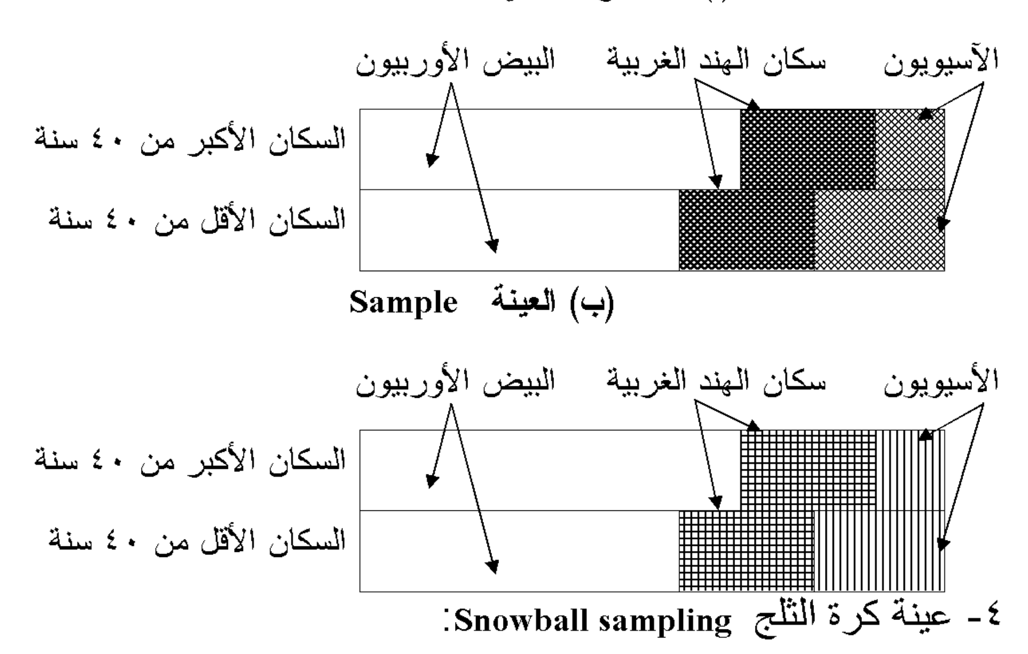
٣- العينة العشوائية الطبقية **Stratified random sample**:

ويلجأ الباحث إلى هذا الأسلوب في حالة ما إذا كانت مفردات المجتمع الأصلي للبحث جميعها معروفة للباحث ولكنها غير متجانسة وتوجد بينها تباينات في السمة أو السمات التي يبحثها، وبالتالي يلجأ إلى هذه الطريقة للحصول على عينة أكثر تمثيلاً للمجتمع الأصلي للبحث من الطريقة السابقة التي تعتمدا على الاختيار العشوائي المباشر من إطار العينة – إن هذه الطريقة في اختيار العينات تستخدم، كما ذكرت سلفًا، عندما يكون المجتمع الأصلي تغلب عليه صفة عدم التجانس في سمات محددة كالعرق، والفئات العمرية، والنوع، ومكان السكن ... إلخ إلى غير ذلك من السمات. هنا يعمد الباحث إلى تقسيم المجتمع الأصلي للبحث إلى قطاعات وأقسام وفئات حسب الصفات التي

يبحثها، ثم يقوم باختيار عينة عشوائية من داخل كل قطاع، أو قسم، أو فئة. فعلى سبيل المثال: الرجال والنساء، الهنود الغربيون والآسيون والأوربيون، الأفراد البالغون الأقل من ٤٠ سنة والأفراد البالغون الأكثر من ٤٠ سنة. وبحيث ينتج لنا في النهاية عينة ممثلة بالفعل للمجتمع الأصلي للبحث وبحسب تمثيل كل فئة أو جماعة فرعية داخل هذا المجتمع الأصلي، انظر الشكل التالي. إن العينة العشوائية تعمل على تقليل أخطاء طرق اختيار العينات، وفي المقابل فإن الطريقة التالية وهي العينة العنقودية أو متعددة المراحل تعمل على ازدياد هذه الأخطاء.

العينة الطبقية

(أ) المجتمع الأصلي للبحث Population



٤- عينة كرة الثلج **Snowball sampling**:

يبني هذا النوع من العينات بداية على استجابة فرد واحد كمبحوث كأن يكون عضوًا في جماعة دينية مثلاً، ثم يقوم بدعوة أفراد آخرين من الجماعة للانضمام إلى عينة البحث، والآخرين يدعون آخرين، وهكذا حتى يتم استيفاء العدد المطلوب لتمام عينة البحث. وقد سميت كذلك، إذا صحت هذه التسمية،

لأن كرة الثلج الصغيرة أثناء تدحرجها من أعلــى قمــة جبــل الجليــد إلــى الــسفح يتجمع حولها المزيد من الجليد ليتضاعف حجمهــا مــرات ومــرات. ويــسمى هــذا النوع من العينــات أيــضًا بعينــة الفرصــة Opportunity Sample. وقــد يكــون اللجوء إلى هذه الطريقة في اختيار العينات يفتقر تمامًــا إلــى أي أســاس إحــصائي للاحتمالات والعشوائية أو التمثيــل الــصحيح للمجتمــع الأصــلي للبحــث، وعلــى الرغم من ذلك فهذا النوع من العينات من الممكن أن يؤدي الحــصول علــى نتــائج مثيرة ومهمة. ويغلب استخدام عينات كرة الثلج فــي البحــوث الكيفيــة أكثــر مــن استخدامه في البحوث الكمية.

٥- عينة الحصص النسبية **Quota Sample**:

وتستخدم بحوث السوق هذا النوع مــن العينــات تقريبًــا، حيــث يــتم اختيــار العينة بطريقة عمدية وقصدية وبحيث لا تعطــي كــل مفــردات المجتمــع الأصــلي للبحث فرصة متساوية للدخول في العينة أو التمثيــل فيهــا. فالباحــث يحــدد حجــم العينة المطلوبة ويقوم بــإجراء المقــابلات مــع ربــات البيــوت الــسود مــثلاً، أو الرجال غير المتزوجين الذين تتراوح أعمارهم مــا بــين ٢٠-٣٠ ســنة، أو مــلاك الوحدات السكنية ... إلخ. وهذه المقابلات قد تكون رســمية أو غيــر رســمية، ويــتم اختيار مفرداتها بشكل عمدي يحقق غرض البحث، ولكــن مــن يــتم اختيــارهم قــد لا يمثلون في خصائصهم المجتمع الأصلي للبحــث وبالتــالي فــإن النتــائج البحثيــة في هذه الحالة لا تتمتع بالشرعية الكافية لتعميمها علــى المجتمــع الأصــلي. فهــي تتسم بعدم الدقة ولا يمكن التعويل عليها كما هو الحــال فــي العينــة الطبقيــة التــي تعد أكثر دقــة وتمثــيلاً للمجتمــع الأصــلي للبحــث إلا أن هــذه الطريقــة تتميــز بالسرعة وقلة التكاليف.

وتعتمد معظم البحوث السوسيولوجية ذات التــأثير علــى العينــات الــصغيرة إلى حد ما. مثال ذلك أن بــوت Bott فــي بحثهــا الــشهير عــن الأســرة وشــبكة العلاقات الاجتماعية (العمل الاجتماعي) في عام ١٩٥٧ قــد أجــرت مقــابلات فقــط

مع ٢٠ عـشرين أسـرة. كمـا قـام جولـد ثـورب Gold Thorpe ، ولـوك وود Lock Wood بإجراء مقابلات مع ٢٢٩ عـاملاً مـن العمـال المـشتغلين بأعمـال يدوية في بحثهما عن العمال الشبان صغار السن. وهـذا العـدد تـم اختيـاره مـن مدينة واحدة، وكانت مدينة جديدة وغير عادية أي لـم تكـن مـن المـدن التقليديـة للطبقة العاملة. وقد تم اختيار هذه المدينة بشكل عمدي مـن قبـل البـاحثين لأنهـا لا تشكل نموذجًا ممثلاً للمجتمعات الطبقة العاملة الكلاسيكية والأكثر رسوخًا.

ويـستخدم علـم الاجتمـاع التـأويلي Interpretive Sociology عينـات صغيرة الحجم في بحوثـه ودراسـاته. وتعـد كلمـة عينـة Sample كلمـة غيـر مناسبة تمامًا في هذه النوعية من البحوث، لأن الجماعة التـي يقـوم أصـحاب هـذا التيار في علم الاجتماع ببحثها لا تكون ممثلة بـأي حـال مـن الأحـوال للمجتمـع الأصلي للبحث وعلى نحو ما هو حادث فـي علـم الاجتمـاع الوضـعي والعينـات العادية. ومثال ذلك دراسة كولين لاسي Colin Lacey عـن القواعـد فـي أطـراف المدينة أو الضواحي، والتي أجريـت فـي عـام ١٩٧٠ واعتمـدت علـى البيانـات والمعلومات التي تم جمعها من مدرسة واحدة، ودراسـة جـيمس باتريـك، ووايـت James Patrick and W. F. Whyte حيـث قامـا بدراسـة عـصابة إجراميـة واحدة. وفي مثل هذه الحالات يتعين علينا أن نقيِّم مـا إذا كانـت نتـائج مثـل هـذه الدراسات يمكنها أن تخبرنا شيئًا حقيقيًا وذي قيمة عـن المجتمـع الأصـلي للبحـث، كمجموع الأسر، أو الطبقـة العاملـة، العـصابات الإجراميـة الأخـرى التـي لـم تدرس. خاصة عندما لا تستخدم هذه النوعيـة مـن البحـوث الطـرق الكلاسـيكية المعروفة في اختيار العينات.

٦- صياغة طرح الأسئلة **Asking Questions**:

يتمحور الكثير من المهارة المطلوبة في كـل أنمـاط البحـوث الـسوسيولوجية حول قدرة الباحث على صياغة وطرح الأسـئلة علـى المبحـوثين، وتتـراوح هـذه الأسئلة ما بين الأسئلة المقفولة والمحددة على نحو مـا هـو حـادث فـي الاسـتبيان

البريـــدي Mailed Questionnaire والمقابلـــة Interview وفـــي اســـتمارة المقابلـــة كما في المسح الاجتماعي الشامل للأسر؛ إلـــى الأســـئلة المفتوحـــة وغيـــر المقننـــة تمامًا، والتي يتم أحيانًـــا صـــياغتها بـــشكل مباشـــر وفـــوري أثنـــاء قيـــام الباحـــث بالملاحظة بالمشاركة. وفي كل الحالات يكون هـــدف الباحـــث واحـــدًا ومـــشتركًا ألا وهو الحصول على الحقائق والبيانات والمعلومـــات القيمـــة وذات الـــصلة بمـــشروع البحث. قد تكون الطريقة مختلفة في الحالات المـــشار إليهـــا ســـلفًا، ولكـــن الباحـــث السوسيولوجي يحاول أن يعمق فهمه للظواهر التـــي يقـــوم ببحثهـــا ودراســـتها فـــي كل الحالات. وسوف نعود في الفصل التالي إلى الملاحظـــة كـــأداة لجمـــع البيانـــات والمعلومات، ولكن سنعمد هنا إلى تنـــاول المهـــارات الـــضرورية المطلوبـــة للقيـــام بعمليات إعداد وصـــياغة أســـئلة الاســـتبيان Questionnaire واســـتمارة المقابلـــة Interview ولكن قبل القيام بهذه المهمة نرى أنـــه مـــن الـــضروري والمناســـب أن نعرض للكيفية التي يتم عن طريقها تقييم إجراءات وضـــع وصـــياغة الأســـئلة ومـــا يتعلق بمسألتي الصدق Validity والثبات Reliability.

٧- الصدق Validity:

يتحدد صدق أي سؤال، وأية طريقة بحثيـــة مـــن خـــلال صـــلاحيتهما لقيـــاس ما يتعين أن يقيسه، أو لقياس ما صممت من أجـــل قياســـه، وإلـــى أي مـــدى يمكـــن أن يأتي بإجابات صادقة، وبقدرتهما على أن يعكـــسا وبـــصورة صـــادقة وصـــحيحة ما يعتقده المبحوث، أو خبراته، أو مواقفه. إن سؤال مثل:

كم عدد الأطفال لديك ؟

سيقدم بلا شك إجابة تتمتع بدرجة عالية مـــن الـــصدق والـــصحة والـــصلاحية من قبل الأم التي سيطرح عليهـــا هـــذا الـــسؤال، اللهـــم إلا إذا كانـــت لـــديها مـــن الأسباب القوية التي تدعوها إلى تـــضليل الباحـــث وتقـــديم إجابـــات غيـــر واقعيـــة وكاذبة. ولكن سؤال آخر مثل:

- ما هي الطبقة الاجتماعية التي تعتقد أنك تنتمي إليها ؟

* الطبقة العليا ( )
* الطبقة الوسطى ( )
* الطبقة الدنيا ( )

قد يكون هذا النوع من الأسئلة غير صالح بالفعل لقياس الوضع الطبقي. ففي الولايات المتحدة الأمريكية لا يقبل المبحوثون وصف أنفسهم بأنهم ينتمون إلى الطبقة الدنيا إلا القليل من الأمريكيين الذي قبلوا ذلك. هذا على الرغم من سعادتهم البالغة عندما يصفون أنفسهم بانتمائهم إلى الطبقة العاملة. ولتحقيق درجة عالية من الصدق والصلاحية لأسئلة الاستمارة يتعين استخدام المصطلحات والمفاهيم بطريقة محددة ودقيقة وعلى نحو تجعل السؤال مصاغاً بشكل جيد ويكون صالحًا بالفعل لقياس ما صمم من أجله وليس شيئًا آخر. ومن الصعوبة تحقيق هذا الهدف على نحو جيد ما لم يؤخذ في الاعتبار كل من النظرية والأسلوب البحثي المستخدم في البحث.

ومن الممكن حساب مستوى صدق أو تقييم صلاحية أي مقياس أو طريقة أو أداة بحثية، أو أي عنصر آخر في عملية البحث من خلال مقارنة النتائج والحقائق التي نحصل عليها باستخدام مقياس آخر نثق في كفاءته وصلاحيته لقياس الصفة التي نبحثها ونقيسها، فعلى سبيل المثال يمكن اختيار صدق وصلاحية ساعة اليد بمقارنتها بتوقيت جرينتش. والمقابل لذلك في اختبارات الصدق والصلاحية في العلوم الاجتماعية لن يكون بمثل هذه السهولة ذلك لأن مفاهيم مثل الوضع الطبقي، والاغتراب، والفشل ... إلخ، هي مفاهيم نسبية بالضرورة وأقل وضوحًا، وغامضة أحياناً وغير محددة بدقة مثل الزمن.

٨- الثبات **Reliability**:

يدل ثبات السؤال أو المقياس على المطابقة الكاملة بين نتائجه في المرات المتعددة التي يطبق فيها على نفس الأفراد. أي أننا نعين ونقيم ثبات السؤال أو المقياس أو أي إجراء بحثي من خلال تكرار واتساق الإجابة حال تكرار نفس السؤال أو عند إعادة استخدام نفس المقياس. فإذا طرحت نفس السؤال من قبل الباحث نفسه، وفي ظل ظروف متشابهة فإننا نحصل على النتيجة ذاتها التي حصلنا عليها في المرة الأولى. مثال ذلك:

- هل تعتقد أن النساء يجب أن يحصلن على حقوق مساوية للرجال؟ قد نحصل على استجابات متسقة بمرور الوقت وحال تكرار ذات السؤال، ولكن السؤال لا يمكن اعتباره مقياسًا صالحًا لقياس اتجاهات الناس نحو مسألة النوع الاجتماعي Gender، فالاستجابة كثيرًا ما تكون مشروطة بما يفكر فيه المبحوث، وبمعتقداته وتصوراته، وبما يعتقد أن الباحث يريد أن يسمعه منه. ويمكن التحقق من ثبات السؤال داخل استمارة الاستبيان أو المقابلة من خلال إعادة تكرار السؤال بطرق مختلفة، وفي مواضع متباينة. إن صياغة استمارة البحث ستضمن بلا شك الاعتماد عليها في الحصول على استجابات ثابتة ومؤكدة. ولكن في كثير من الأحوال لا تكون الاستمارة، الاستبيان أو المقابلة، أداة صالحة لقياس ما صممت من أجله. وتتمتع المقاييس الكمية بدرجة عالية من الثبات، في مقابل تتمتع المقاييس الكيفية بدرجة أكبر من الصدق والصلاحية. وتعتبر الدراسة التجريبية لاستمارة البحث Pre-Test وسيلة جيدة لزيادة الصدق والثبات.

ولا يستطيع الباحث مهما كانت قدراته ومهاراته البحثية، أن يتنبأ بالكيفية التي سيقوم من خلالها المبحوثون بتأويل الأسئلة التي سيطرحها عليهم، أو على أي نحو سيفهمون الفقرات الواردة في استمارة البحث والتي من المحتمل أن يجدوا صعوبة في فهمها. ولهذه الاعتبارات يتعين عمل اختبار قبلي للاستمارة

أو أداة البحث قبل استخدامها في البحث الأساسي. ويسمى هذا الاختبار القبلي بالدراسة الإرشادية أو الموجهة Pilot Study. وهي ذات قيمة وفائدة مهمة للباحث لتعديل أداة البحث التي سيستخدمها في جمع الحقائق والبيانات والمعلومات اللازمة للإجابة على تساؤلات البحث، ولجعل هذه الأداة أكثر صلاحية وصدقًا وثباتًا. وفي المسوح الاجتماعية الكبيرة يمكن أن تكون الجماعة التي سيطبق عليها الاختبار القبلي عبارة عن عينة فرعية مصغرة يتم سحبها من العينة الأساسية للبحث ويتراوح عددها ما بين ٣٠ إلى ١٠٠ مفردة شريطة أن تعكس هذه الجماعة الفرعية الخصائص الأساسية والنمطية للمجتمع الأصلي للبحث. وإذا كان المسح يتضمن مقياسًا للاتجاهات ويتطلب تحديد مدى صدق وصلاحية وثبات هذا المقياس فإنه من الضروري أن تكون العينة الفرعية التي سيجري عليها تجريب الاستمارة أو المقياس، كبيرة العدد نسبيًا.

وتكشف الدراسة القبلية والتجريبية للاستمارة عما إذا كانت الأسئلة في حاجة لإعادة صياغتها، وما إذا كان الاستبيان بكامله أو استمارة المقابلة بكاملها في حاجة إلى إعادة تنظيم بطريقة أخرى مغايرة. ومن ناحية أخرى، من شأن تجريب الاستمارة وعمل الاختبار القبلي أن يتيح الفرصة الكاملة للباحثين لاختبار مهاراتهم وقدراتهم البحثية على إجراء وتطبيق أداة جمع البيانات والمعلومات، والكشف عن مدى كفاءة هذه الأداة، كما يتيح الاختبار القبلي والتجريبي الفرصة لتدريب الباحثين الهواة قبل اشتراكهم في التطبيق الفعلي للبحث. كما ترجع أهمية الاختبار القبلي أيضًا إلى أنه يكشف عن درجة استجابة المبحوثين للبحث بصفة عامة ومدى تقبلهم للأسئلة الواردة في الاستمارة بصفة خاصة، وبيان المدة الزمنية التي يمكن أن يستغرقها الباحث في ملئها، والكشف عن الصعوبات اللغوية الواردة في الاستمارة وهل هي في مستوى فهم المبحوثين قدرتهم على استيعابها أم لا. ويتيح الاختبار القبلي إمكانية الوقوف على الأثر الذي يحدثه تتابع أسئلة الاستمارة على النحو الذي

تكون عليه، والكشف عن الحاجة إلى تعديل أو إرجاء الأسئلة التي قد تبدو محرجة إلى أجزاء أخرى من الاستمارة. وبعد ذلك يتم تعديل الاستمارة بما يتفق والنتائج التي أسفرت عنها الدراسة التجريبية حتى تصبح كل بنود الاستمارة منسجمة وقادرة على جمع البيانات والمعلومات أو قياس ما يجب أن تقيسه فعلاً. أي تكون أداة صالحة لتحقيق أغراض البحث.

٩- صياغة الاستبيان **Questionnaire**:

تستلزم عملية جمع البيانات والمعلومات عن طريق الاستبيان أو المقابلة إعداد خطة مفصلة للاهتداء بها عند جمع البيانات والمعلومات. وتكون تفاصيل هذه الخطة مكتوبة في شكل أسئلة وأمامها فراغات ليملأها المبحوث بنفسه أو يملأها الباحث بناء على استجابات بطريقة مختلفة إلى حد ما عن الطريقة التي يتم بها صياغة دليل المقابلة، وعلى الرغم من ذلك يمكن القول بأنه لا توجد فروق جوهرية بين الاستمارتين ولا حتى في طريقة إعداد كل منهما. ويشترك الاثنان في كثير من المبادئ، كأن يكون محتوى الاستمارة مفهومًا لدى المبحوثين، وأن تكون الاستمارة مصاغة على نحو لا يبعث الحيرة أو يسبب الإرباك والتشوش لدى المبحوثين أو تكون منفرة لهم وباعثة على الضيق.

ويجب بداية وضع خطة تفصيلية توضح وتحدد نوع المعلومات والبيانات والحقائق التي يرغب الباحث في الحصول عليها وذلك بالنظر إلى الإطار العام لموضوع البحث ومشكلة البحث والأسئلة التي يسعى للإجابة عليها، والأهداف التي يسعى إلى إنجازها، وبناء على خطة محكمة تترجم كل ذلك إلى سلسلة من الأسئلة وبحيث تتضمن احتواء الاستمارة على القضايا الرئيسية والفرعية التي يشتمل عليها البحث، كما يضمن تسلسل هذه القضايا على نحو منطقي. وبناء على ذلك يحدد الباحث الأبواب والبنود الأساسية للبحث ثم يضع قائمة بالنقاط التي يحتويها كل باب أو بند تمهيدًا لصياغة الأسئلة المتعلقة بها ويتم

تحديد الأسئلة وترتيبها ترتيبًا منطقيًا ومتسلسلاً. مثـال ذلـك أن تبـدأ مـن الأسـئلة الأكثر عمومية من قبيل:

- هل قمت بمشاهدة التليفزيون خلال الأسبوع أو الأسبوعين الماضيين؟

ثم تتوالى الأسئلة بعد ذلك وتتدرج مـن العـام إلـى الخـاص وصـولاً إلـى المنطقة التي يهتم بها الباحث ويحـرص علـى الحـصول علـى حقـائق وبيانـات ومعلومات.

- هل تعتقد أن التغطية الإخبارية لاضرابات عمال المنـاجم كانـت منـصفة وعادلة بالنسبة للاتحادات العمالية ؟

ويوجد، بوجه عام، نوعان مـن الأسـئلة التـي يمكـن أن تحتويهـا اسـتمارة البحث، الاستبيان أو المقابلة. الـنمط الأول هـو الأسـئلة ذات النهايـات المفتوحـة Open-ended، وهي الأسئلة التي يترك للمبحوث حريـة الإجابـة عليهـا بطريقتـه الخاصة. إنها أسئلة تـسمح للمبحـوث بـالتعبير الحـر والتلقـائي عـن مـشاعره وانفعالاته وخبراته ومواقفه، فـالمبحوث لا يتقيـد هنـا بإعطـاء إجابـات نمطيـة محددة وضعت له مقدمًا من قبل الباحث، ولكنه يكـون حـرًا مـن ناحيـة إعطـاء الجواب الذي يراه مناسبًا للسؤال مهما كان هذا الجـواب طـويلاً ومتـشعبًا. ويجـب على الباحث الذي يجري المقابلـة تـدوين جـواب الـسؤال المفتـوح بأكملـه فـي استمارة المقابلة، مثال ذلك:

- ما رأيك في الوضع الراهن في أيرلندا الشمالية؟

وفي هذه النوعية من الأسئلة يتـرك للمبحـوث، كمـا ذكـرت قـبلاً، حريـة القيام بصياغة إجابته على النحو الذي يريده هـو، والـذي يـراه صـحيحًا ومقبـولاً من وجهة نظره هو. وهناك أمثلة لأسـئلة يمكـن أن تكـون أكثـر انفتاحًـا ومثـال ذلك أن تسأل المبحوث:

- أريد منك أن تحدثني عن انطباعاتك بشأن أيامك الأولى في المدرسة ؟

- هل تعتقد أن المدرسة تبعث على الملل والضيق والسأم ؟
- ما هي أكبر مشكلة تتوقع مواجهتها في عملك الجديد ؟

والنوع الثاني من الأسئلة هو الأسئلة المقفولة أو المغلقة Closed Questions وهي الأسئلة التي يطلب فيها من المبحوث الاستجابة لأحد الاختيارات المحددة المرفقة مع السؤال. إنها أسئلة تحدد فيها الإجابة تمامًا ليختار من بينها المبحوث إما بنعم، أو لا، أو بمجموعة ثابتة من الإجابات التي تترك حرية الاختيار من بينها للإجابة التي يراها متوافقة مع رؤيته ووجهة نظره. وتعتبر هذه سمة مميزة خاصة في الأسئلة التي تسأل عن الواقع والحال، مثال ذلك:

- هل ولدت في بريطانيا العظمى ؟

* نعم ( )
* لا ( )

ومن الممكن أن تقدم إجابات متعددة وعلى نحو متدرج مثال ذلك:

- كيف ترى طبيبك المعالج ؟

* مفيد جدًا ( )
* مفيد ( )
* غير مفيد ( )
* غير مفيد تمامًا ( )
* لا أعرف ( )

ويعتبر السؤال المقفول أو المغلق أسهل بكثير في صياغته وفي المعالجة الإحصائية لنتائجه فهو يسهل تكميم الإجابات وإن كان يحد من حرية المبحوث في الإجابة فضلاً عن كونه يعطي إحساسًا زائفًا بالدقة عند التعبير الكمي عن الإجابات وهو تكميم يعكس فقط ملائمة الأسئلة واختيارات الإجابة عنها، وذلك

خلافًا للأسئلة المفتوحة وإن كانت الأخيرة تتيح فرصة أكبر للتعمق في موضوع البحث والظواهر التي يعالجها. وهي وإن كانت كذلك، إلا أنها ستكون أكثر صعوبة في التعامل والمعالجة الإحصائية نظرًا لأن إجابات هذه الأسئلة المفتوحة تأتي من مبحوثين مختلفين بالقطع، هذا فضلاً عن صعوبة المقارنة بين هذه الاستجابات. وتجدر الإشارة إلى أنه كلما كانت الأسئلة قصيرة وواضحة قدر الإمكان، كلما كانت الاستجابات التي تأتي بها هذه أكثر صدقًا وثباتًا.

ويجب أن تحتوي الاستمارة على مجموعة قليلة من الأسئلة، وتكون الأسئلة من النوع القصير والواضح، ومركزة وتخلو من المفاهيم والمصطلحات الفنية، وسهلة وبسيطة ومتمشية مع مستوى ثقافة المبحوثين، ولا تشتمل على وقائع شخصية أو محرجة. ويلاحظ أنه كلما كانت الأسئلة أكثر وضوحًا وأكثر تحديدًا، كلما زادت إمكانية الاعتماد على الإجابات التي تأتي بها هذه الأسئلة. ولكل ذلك يعتبر صياغة أسئلة الاستبيان أو المقابلة نوعًا من الفن، ويتعين أن تخضع الاستمارة للفحص الدقيق وبعناية حتى يتم التأكد من دقتها ووضوحها. إن سؤال من قبيل:

- كم عشت هنا ؟

يُعد سؤالاً غامضًا ومبهمًا تمامًا لأنه لا يحدد ما الذي نريد أن نعرفه من المبحوث على وجه الدقة والتحديد: كم عشت في منزلك ؟ ، أو في شقتك الحالية؟، وكلمة هنا في السؤال مبهمة وغامضة لأنها قد تعني المنزل، أو المدينة، أو القرية، أو الدولة. وحتى مع وضوح الأسئلة يجب إعادة تقييمها بعناية بالغة للحد من الأسئلة الموحية والتي يغلب عليها اللغة التأثيرية التي توحي للمبحوث بإجابات بعينها مثال ذلك:

- هل يجب أن يسمح للناس بالحصول عنوة على أموال من التأمين الاجتماعي ؟

- في ظل التهديد الروسي هل أمامك أي خيار آخر سوى الإبقاء على الأسلحة النووية ؟
- أظهرت نتائج البحوث أن الرجال أقل تسامحًا من النساء بوجه عام هل تعتقد أن هذا يعد صحيحًا؟
- هل تعتقد أن الحركة العمالية قد صارت أكثر راديكالية وبشكل متصاعد لدرجة أنها أصبحت تمثل تهديدًا للديمقراطية ؟

وتخضع البيانات والمعلومات التي نحصل عليها عن طريق الاستبيان والمقابلة للمعالجة والتحليل الإحصائي غالبًا. ولتسهيل هذه المهمة يجب أن تصاغ الأسئلة على نحو مغلق أي تكون أسئلة مقفلة حتى في دليل المقابلة أيضًا. ويقوم الباحث الذي يجري المقابلة بوضع دائرة حول الرقم المعادل لإجابة المبحوث. مثال ذلك:

س/ كم عدد الأطفال لديك ؟

١- لا يوجد أطفال.	١
٢- طفل واحد.	٢
٣- طفلان.	٣
٤- ثلاثة أطفال.	٤
٥- أربعة أطفال فأكثر.	٥

وفي الاستبيان الذي يملأه المبحوث بنفسه فمن الممكن أن يقوم المبحوث بعملية التكويد هذه. مثال ذلك:

- هل ستقوم بالفعل بالمشاركة والتصويت في الانتخابات العامة المقبلة؟ ضع علامة عند الإجابة التي تراها.

١- نعم	١
٢- لا	٢
٣- لا أعرف	٣

وبعد الانتهاء من التطبيق وملأ الاستمارات يتم جمعها من المبحوثين والباحثين وتتحول البيانات والمعلومات الواردة في الاستمارات إلى بطاقات وعلى نحو سريع، أو إدخالها إلى جهاز الحاسب الآلي. أما الأسئلة المفتوحة أو ذات النهايات المفتوحة، فإن عملية تكويد الإجابات وتنميطها لا تتم إلا بعد الانتهاء تمامًا من تطبيق كل الاستمارات، وحيث تقوم بإعداد ما يسمى بإطار التكويد وهو يعتمد على الإجابات التي يتم سحبها من إجابات المائة استمارة الأولى، وهذه الإجابات ستحدد الفئات التي ستندرج تحتها الإجابات في باقي الاستمارات.

ولنعود ثانية إلى نماذج الأسئلة الموحية والتي أشرنا إليها سلفًا. إن كلمات من قبيل "يحصلون عنوة" هي كلمة موحية ومؤثرة وقد تدفع.

المبحوث إلى استجابات سلبية، وكذلك العبارة التي تتحدث عن "التهديد الروسي" تقود المبحوث إلى إجابة بعينها. أما افتتاحية السؤال التي تتحدث عن "أظهرت نتائج البحوث" فهي تنطوي على ما يعرف بانحياز الهيبة وحيث يشعر المبحوث معها أنه مضطر للإجابة بالموافقة خشية الاتهام بالجهل وعدم الاطلاع. والسؤال الأخير المتعلق "براديكالية الحركة العمالية ..." فيعتبر سؤالاً مزدوجًا وقد يوافق المبحوث على الجزء الأول من السؤال "راديكالية الحركة على نحو متصاعد وزائد عن الحد ..."، ولكنه قد يعترض على الجزء الثاني والأخير من السؤال والذي يتحدث عن "تمثل تهديدًا" للديمقراطية.

وهناك مشكلات أخرى قد تنتج عن الكيفية التي تمت بها صياغة أسئلة استمارة البحث، الاستبيان أو المقابلة، ونعني بها تلك الأسئلة التي تسبب نوعًا من الإرباك والتشوش لذاكرة المبحوث بفعل تداخل الأفكار الواردة في السؤال، أو عندما يتعرض السؤال لقضايا حساسة وشخصية، أو عندما يفتقد المبحوث القدرة على تذكر الإجابة المطلوبة. ويتعين على الباحث ألا يمارس أية ضغوط على المبحوث لدفعه إلى تكوين أو تقديم إجابة محددة. وفيما يتعلق بالقضايا

ذات الحساسية كالجنس، والعلاقات الأسرية، والعرق، والسياسية ... إلخ، فيجب أن تصاغ الأسئلة عن هذه الموضوعات بمهارة بالغة، وأن يتم تقويمها باهتمام وعناية، وينصح بعدم تناول قضايا معقدة تتصل بهذه الموضوعات في الاستبيان البريدي.

١٠- المقابلات **Interviews**:

تجمع المقابلة بين الباحث والمبحوث في موقف مواجهة ومن شأن هذا الموقف أن يسمح للباحث بإمكانية التعمق في فهم الظواهر التي يبحثها، وملاحظة سلوك المبحوث. وتستخدم المقابلة لجمع بيانات وحقائق تتعلق باتجاهات المبحوثين وعقائدهم ودوافعهم ومشاعرهم والمواقف التي خبروها بشأن موضوعات وقضايا معينة وتعتمد على التقدير الذاتي للمبحوث. وإن شئنا الدقة هي موقف مواجهة يقوم على التفاعل المستمر، والتأثير المتبادل بين الباحث والمبحوث.

ومن الممكن أن تصنف المقابلات وفقاً لنمط الأسئلة التي تحملها ونوع البيانات والحقائق التي نحصل عليها. فالمقابلة المقننة هي في حقيقتها استبيان ولكن يتم تطبيقه من قبل الباحث في موقف مواجهة مباشرة مع المبحوث وتكون أسئلتها مغلقة ومحددة تحديدًا دقيقًا سواء بالنسبة لعدد الأسئلة وترتيبها ونوعها ويهدف أساسًا إلى توفير بيانات كمية أو يسهل تكميمها. أما في المقابلة غير المقننة فتكون الأسئلة مفتوحة وهي تأتي ببيانات كيفية.

ويتطلب إجراء المقابلات توافر مهارات اجتماعية بعينها لدى الباحث الميداني الذي يقوم بإجراء هذه المقابلات. فيجب أولاً تصميم دليل المقابلة بشكل جيد، وعند إجراء المقابلة يتعين خلق مناخ من الألفة والمودة مع المبحوثين حتى يحوز الباحث قبولهم وثقتهم وموافقتهم على إجراء المقابلات. وعلى الباحث ألا يقول شيئًا أو يأتي بتصرف يكون من شأنه أن يدفع المبحوثين إلى تحريف إجاباتهم وإلى عدم الصدق في التعبير عن آرائهم

ومواقفهم. كما يجب أن يبتعد الباحث عن التهويل، أو التهوين، أو التشويش، أو الإيحاء للمبحوثين بتقديم إجابات بعينها.

وتتميز المقابلة في أنها تتيح للباحث الفرصة إلى معرفة الكثير من التفاصيل، والانتقال إلى الموضوعات الأكثر حساسية وتعقيدًا، ورصد سلوك المبحوثين وتعبيراتهم مباشرة وذلك خلافًا لما هو حادث في الاستبيان البريدي. ويمكن للباحث خلال المقابلة أن يقوم بتفسير بعض الأسئلة للمبحوثين، وأن يناقش معهم ما يقدمونه من إجابات لتبين المعنى الحقيقي الذي يقصدونه من هذه الإجابات وبذلك يتفادى الباحث أشكال سوء الفهم من قبل المبحوثين. وهناك احتمال أن يظهر بعض الباحثين نوعًا من الانحياز وعدم الموضوعية عندما يقومون بالإيحاء للمبحوثين بتفضيلاتهم لإجابات بعينها دون أخرى. ويلاحظ أن الباحث الأسود البشرة قد يتلقى إجابات تختلف عن الباحث الأبيض البشرة عند قيامهما بإجراء المقابلات. والمرأة الباحثة قد تكون أكثر قدرة على إجراء مقابلات مع النساء وبكفاءة عالية لا يستطيع أن يحققها الباحث الرجل. وتتفاوت المقابلات بدرجة كبيرة، كما أشرنا قبلاً، ما بين المقابلات الرسمية والمحددة والمقنونة، وتلك غير الرسمية وغير المقننة وذات الأسئلة المفتوحة. وفي المقابلات من النوع الأخير أي غير المقننة وذات الأسئلة المفتوحة تكون الحدود غير واضحة وغير فاصلة تمامًا بين المقابلة والملاحظة بالمشاركة حيث نجد أن هاتين الأداتين قد تستخدمان معًا لتكمل إحداهما الأخرى.

١١- قياس الاتجاهات **Attitude Measurement**:

يعتبر قياس الاتجاهات من المشكلات البحثية الصعبة في تصميم وتنفيذ البحوث السوسيولوجية. وتحتوي طرق قياس الاتجاهات في جوهرها على ما يشبه الميزان والذي يمكن بواسطته قياس الاتجاه نحو فكرة بعينها. ومن بين التقنيات المستخدمة في قياس الاتجاهات وضع سلسلة متدرجة من الاختيارات، يقوم المبحوث بوضع علامة حول الإجابة المعبرة عن موقفه أو اتجاهه، مثال ذلك:

الاختيارات / القضايا	موافق بشدة	موافق	غير متأكد	غير موافق	غير موافق بشدة
ليس من السهولة بمكان أن يحافظ على هدوء أعصابه مع الأطفال الصغار.					

وتجدر الإشارة إلى أن إجراء اختبار للتأكد من صدق وثبات المقاييس يُعد عملاً صعبًا للغاية، لأن الباحثين يواجهون دومًا بمشكلة الفجوة بين الإجابة التي يقدمها المبحوث على أسئلة المقياس، وهي إجابة يمكن تصديقها وقبولها، وبين السلوك الفعلي والواقعي لهذا المبحوث. ويلاحظ أن تقديرات المبحوث الذاتية في الأمور المرغوبة اجتماعيًا وأخلاقيًا لا تكون صادقة تمامًا نظرًا لتأثر استجابة المبحوث بما يمكن أن نسميه بنزعة رياء الذات، والتأثر بعامل الرغبة الاجتماعية التي تجعله يميل إلى إظهار نفسه بمظهر براق اجتماعيًا وأخلاقيًا فيعمد إلى المبالغة في تقدير نفسه على السمات المرغوبة اجتماعيًا وأخلاقيًا، في حين يقلل من تقدير نفسه على السمات التي تظهره بمظهر غير مقبول اجتماعيًا وأخلاقيًا. ولكل ذلك يتعين على الباحث اتخاذ كافة السبل التي يكون من شأنها التقليل من آثار المحاذير السابقة، وحتى يمكن الحصول على بيانات ومعلومات من المبحوثين تعكس رؤيتهم بصدق، ومن بين هذه السبل طمئنة المبحوثين وإعلامهم بضمان سرية المعلومات التي سيدلون بها وبقاء شخصياتهم وهوياتهم الفردية مجهولة، هذا بالإضافة إلى التدريب الجيد للباحثين الذين يقومون بتطبيق هذه المقاييس.

١٢- الاستبيان البريدي **Mailed Questionnaire**:

وقد سمى كذلك تمييزًا له عن الاستبيان غير البريدي الذي يتولى الباحث توزيعه وجمعه من المبحوثين، حيث يقوم المبحوث في هذا النوع من

الاستبيانات بالإجابة بنفسه على كل أسئلة الاستمارة وملئها ودون أية مساعدة من جانب الباحث.

وتتميز الاستبيانات البريدية بأنها وسيلة قليلة التكلفة إلى حد ما في عمليات الاستفتاء وجمع البيانات والمعلومات خاصة عند استخدامها في إجراء دراسة مسحية تغطي عددًا كبيرًا من المبحوثين إذ تقدر تكلفتها بحوالي ثلث ٣/١ تكلفة البحث إذا ما استخدم دليل المقابلة المباشرة مع المبحوثين. وتعد الاستبيانات البريدية ذات فائدة كبرى إذا كان من الضروري القيام بمسح اجتماعي لمنطقة جغرافية واسعة. ومن مميزاتها أيضًا أنها تمنح المبحوثين وقتًا أطول للتفكير في إجاباتهم وتقديم المعلومات والحقائق المطلوبة دون الإحساس بأنهم واقعون تحت أية ضغوط قد يمارسها عليهم الباحث على نحو ما يحدث أحيانًا عند إجراء المقابلات المباشرة.

ويعطي الاستبيان المبحوث فرصة كافية للإجابة بدقة عن الأسئلة الواردة في الاستبيان خاصة إذا كانت البيانات المطلوبة تتعلق بأسرته، كما يسمح للمبحوث بكتابة البيانات في الوقت الذي يراه مناسبًا له ودون التقيد بوقت بعينه، وهو يساعد في الحصول على البيانات المتعلقة بموضوعات حساسة ومحرجة، حيث يخشى المبحوثون في كثير من الأحيان إعلان رأيهم والتصريح بمواقفهم في حضور الباحث. ويجب أن تصاغ أسئلة الاستبيان بدقة وعناية فائقة تراعي معايير الوضوح والسهولة والسلاسة والبعد عن المصطلحات الفنية نظرًا لأن المبحوثين يقومون بالإجابة على الأسئلة بدون توجيه من الباحث ويجب أن يصمم بمهارة كبيرة ليكون جذابًا ومشوقًا للمبحوثين بدرجة تحفزهم على الإجابة عن الأسئلة الواردة فيه. ولمواجهة ما قد يعتريهم من نفور وضيق عند القيام بالإجابة على أسئلة الاستبيان مما يدفعهم إلى الملل وإهمال الإجابة على الأسئلة.

ومن أكبر المشكلات التي يواجهها الاستبيان البريـدي هـي انخفـاض وتـدني نسبة الردود المتحققة والتي قـد تتـراوح مـا بـين ٤٠% - ٦٠% مـن مجمـوع العينة التي أرسل إليها الاستبيان. ويمكن مواجهـة هـذه المـشكلة بإرسـال أغلفـة بريدية جاهزة للاستخدام والإرسال البريـدي ليقـوم المبحـوث بوضـع الاسـتبيان بعد الإجابة عنه فـي صـندوق البريـد، كمـا يمكـن إرسـال خطابـات تذكيريـة للمبحوثين بعد فترة تتراوح مـا بـين عـشرة إلـى عـشرين يومًـا مـن إرسـال الاستبيان لهم تـذكرهم بأهميـة اسـتجاباتهم وضـرورة الإجابـة عـن الاسـتبيان وإرساله للباحث أو الهيئة المنفذة له. وحتى مع كل هـذه الإجـراءات، فـإن معـدل الاستجابة قد يصل بالكاد إلى حوالي ٨٠% من مجموعة العينة التـي أرسـل إليهـا الاستبيان. وتشير نتائج البحوث إلى أنـه حتـى مـع انخفـاض نـسبة المـستجيبين للاستبيان إلى ٧٠% فإن ظروف التقنين تكون أكثـر ممـا تـوافر لوسـيلة أخـرى من وسائل جمع البيانات والمعلومات. ومع تـدني نـسبة العائـد مـن الاسـتبيانات المرسلة، فإن الباحث لا يستطيع أن يعمـم نتائجـه علـى المجتمـع بكاملـه بـسبب عدم تمثيل المجتمع تمثيلاً صحيحًا. ومن الممكـن أن تكـون الاسـتبيانات البريديـة مقدمة وتمهيدًا يسبق إجراء المقابلات المباشرة والمتعمقـة مـع المبحـوثين، حيـث يمكن إجراء هذا النوع من المقـابلات مـع كـل المبحـوثين الـذين طبـق علـيهم الاستبيان البريدي، أو اختيار عينة فرعية لإجراء دراسة أكثر عمقًا.

الفصل الخامس

البحوث الكيفية: الملاحظة

١-تقاليد الدراسة الحقلية.

٢-الطرق البحثية للملاحظة بالمشاركة.

٣-نموذج الملاحظة بالمشاركة.

٤-اختيار العينة.

٥-الدخول إلى مجتمع البحث، وحارس البوابة، والأخباري الأساسي.

٦-تبني الباحث لدور ما داخل الجماعة موضوع البحث.

٧-الحوار: مشكلة المقابلات.

٨-تسجيل البيانات والمعلومات.

٩-قضايا ومسائل أخلاقية.

١٠- التاريخ الشفهي.

الفصل الخامس

البحوث الكيفية: الملاحظة(*)

١-تقاليد الدراسة الحقلية:

تترسخ جذور الدراسات الحقلية والملاحظة بالمشاركة في الدراسات والبحوث الأنثروبولوجية الكلاسيكية التي قام بها كل من مالينوفسكى Malinowski، ومارجريت ميد Margaret Mead، وإيفانز بريتشارد Evans pritchard -. ولقد كان للتصوير والوصف الفني والرائع الذي قدموه عن الجماعات البدائية من البشر عظيم الأثر في بيان قيمة وأهمية الملاحظة كأداة بحثية في دراسة الثقافات المغايرة والغريبة. وعلى الرغم من الاختلاف حول دقة هذه الملاحظات وموضوعيتها، إلا أن الأساليب والأدوات البحثية التي طورتها الأنثروبولوجيا أصبح من الممكن استخدامها أيضًا من قبل علماء الاجتماع. ويمكن العثور على جذور أخرى لاستخدام الملاحظة بالمشاركة في أعمال جورج هربرت ميد G.H. Mead، فأعماله عن الذات الاجتماعية Social Self، ونظرتيه عن التفاعلية الرمزية Symbolic interactionism، قد أظهرت وبوضوح ضرورة الاهتمام بالطرق التي تتم بها علميات الاتصال بين الأفراد، وما تعنيه هذه الاتصالات بالنسبة للفاعلين المشاركين في هذه العمليات.

وقد ذهب كل من Ackroyd، و Hugher إلى أن المدخل النظري التأويلي Interprtive perspective، يقتضي منهجية وأساليب بحثية مغايرة تمامًا لتلك المستخدمة في علم الاجتماع الكمي Quantitative Sociology. وقد شرحا مدخل الملاحظة بالمشاركة على النحو التالي:

(*) Marray morison M., A,. Methods in sociology, & angman inc., new gark, 1986. Pp 43 - 56.

الملاحظة بالمشاركة تستند إلى رؤية وتصور نظري يعارض تمامًا بل ويقف على النقيض من التوجه الكمي الشائع في كثير من بحوث العلوم الاجتماعية. فهي تفضل عوضًا عن ذلك الاعتماد على المدخل الكيفي Qualitative approach. وقد اعتمد الجدل والحوار حول هذه القضية على اعتبار أن الحياة الاجتماعية تتشكل من خلال المعاني التي لا يمكن دراستها اعتمادًا على مفاهيم القوانين المحددة الصارمة، وإنما يمكن فهمها من خلال عمليات التأويل، وهذه العمليات ممكنة فقط من قبل من يشاركون في هذه الحياة ويقومون بصناعتها، ويخبرونها، وتكون مفهومة لديهم.

وترتبط منهجية الملاحظة بالمشاركة ارتباطًا وثيقًا بتوجه نظري محدد داخل علم الاجتماع، وهو التوجه الذي يؤكد على الطابع التفاعلي والتفاوضي للنظام الاجتماعي، والذي يتم خلقه وتكوينه من خلال المعاني التي يخلعها الفاعلون الاجتماعيون على أفعالهم ومواقفهم، والتي يستخدمونها للشعور بالعالم الاجتماعي الذي يعيشون فيه، وكيفية إدركهم وفهمهم لهذا العالم وبالكيفية التي يقومون من خلالها بتأويل هذا العالم. ويوجد هنا معنى بسيط ومحدد للبناء الاجتماعي الموضوعي من نوعية المعاني التي قدمها علماء الاجتماع باعتباره يحتوى على عدد لا نهاية له من المشاهد التمثيلية والمسرحية، حيث يتحرك الممثلون، الفاعلون الاجتماعيون، باستمرار، وتتغير حواراتهم وتحركاتهم وفقًا للأدوار التي يقومون بها. إنه مفهوم ضيق للمجتمع بحسبانه بناءً كبيرًا، ورغبة في دراسة قطاع محدد بدرجة ما للحياة الاجتماعية الواقعية والمرئية، وحيث تكون هذه العلميات والمجموعات ملموسة ومألوفة لدى الممثلين أو الفاعلين المنخرطين في هذه العمليات.

ومثل هذه العوالم صغيرة الحجم، بالإضافة إلى التأكيد على أن يقوم الباحث الاجتماعي ببحثها وفحصها من وجهة نظر المشاركين والفاعلين الاجتماعيين أنفسهم، تقدم للباحث المفترض أن يقوم بالملاحظة المشاركة، تقدم

له المشكلات البحثية، وتحقـق لـه الاقتـراب التـدريجي والـدخول إلـى عـوالم المبحوثين. وهي في الأغلب الأعم مسألة تكـوين حكـم ورأى دقيـق وصـائب. إن واحدة من أهم البراهين والحجج التـي تعتمـدها الملاحظـة بالمـشاركة هـي أنهـا تمكن الباحث من دراسة الأشخاص والجماعات فـي المـواطن والأمـاكن الطبيعيـة التي يوجدون فيها عادة، وذلك خلافًا للظروف التـي يـتم اصـطناعها، أو الطـرق المعزولة والبعيدة على نحو ما هو حـادث فـي المـسوح الاجتماعيـة والمقـابلات التي تتم من خلالها. لقد تأسست قواعد الملاحظة بالمـشاركة علـى النقـيض تمامًـا مما هو حادث في المداخل الوضعية، وبكل تأكيد، فإن النظريـة التـي تقـوم عليهـا الملاحظة بالمشاركة تختلف اختلافًا بينًا عن النظريـات التـي تنـدرج فـي إطـار الاتجاه الوضعي وفي علـم الاجتمـاع الوحـدات الكبـرى. وقـد انعكـست هـذه الاختلافات والفروق على الإجـراءات المنهجيـة والطـرق البحثيـة التـي تتبناهـا الملاحظة بالمشاركة.

٢- الطرق البحثية للملاحظة بالمشاركة:

تعنى الملاحظة البسيطة ملاحظة الظـواهر الاجتماعيـة كمـا تحـدث علـى نحو عفوي وتلقائي فـي ظروفهـا الطبيعيـة ودون إخـضاعها لأسـاليب الـضبط العلمي الصارم، وبدون استخدام أدوات دقيقة للقياس للتأكـد مـن دقـة الملاحظـات وموضـوعيتها. وبالإمكـان التمييـز بـين نـوعين مـن الملاحظـة، الأول هـو الملاحظة بدون مشاركة حيث يكـون الباحـث ملاحظًـا فحـسب للظـواهر دون أن يشترك في أي نشاط تقوم به الجماعـة أو المجتمـع موضـوع الملاحظـة. ويمكـن هذا النوع من الملاحظة الباحث من رصد الـسلوك الفعلـي للجماعـة فـي أحوالـه الطبيعية وكما يقع ويمارس بالفعل في مواقف الحيـاة اليوميـة. أمـا النـوع الثـاني فهو الملاحظـة بالمـشاركة، وهـي تتـضمن الاشـتراك الفعلـي للباحـث القـائم بالملاحظة في حياة الجماعة أو المجتمع الذي يقوم بملاحظتـه ومـساهمته فـي كـل

أوجه النشاط التي يقوم بها هــذا المجتمــع. ومــن شــأن هــذه المــشاركة الذاتيــة للباحث أن تساعده على إدراك وفهم الظواهر التي يقوم بدراستها.

تستلزم الملاحظة بالمشاركة إذن انــدماج وانتمــاء الباحــث فــي الجماعــة أو المجتمع الذي يدرسه ومسايرته والتجاوب معه، وأن يخبــر نفــس الظــروف التــي يمر بها هذا المجتمع وكذلك كل المــؤثرات التــي تــؤثر فيــه. وتــسمح المــشاركة الكاملة للباحث بملاحظة سلوك الناس بــصورة أكثــر تلقائيــة وبعيــدة تمامًــا عــن التصنع والزيف والرياء، وتتيح له إمكانية التعمــق فــي فهــم مختلــف المــؤثرات التي يخبرها هذا المجتمع.

ويصف إيفانز بريتــشارد Evans - Pritchard كيفيــة تعلمــه إجــراء بحــث ميداني اعتمادًا على الملاحظة بالمشاركة على النحو التالي:

عندما كنت طالبًا مبتدأ في لندن، فكرت أنه مــن الــضروري الحــصول علــى بعض النصائح والتوجيهات ممن كانــت لهــم خبــرات واســعة بالبحــث الميــداني وذلك قبل شروعي في الذهاب إلى وســط أفريقيــا. وقــد بــدأت باستــشارة وســتر مارك Wester marck وكل ما حصلت عليه منه قولــه لا تتحــدث مــع أحــد مــن الاخبارين لأكثر من عشرين دقيقة لأنك إذا لم يصبك أنــت الملــل والــضجر، فمــن المؤكد أن هذا الإخباري سيصيبه الملل والضجر والتبــرم إلــى أبعــد الحــدود بعــد مرور هذه المدة الزمنية. وقد كانت هذه نصيحة مفيدة وإن كانــت غيــر كافيــة. ثــم لجأت إلى هادون Haddon، وهو واحد مــن المــشتغلين فــي البحــوث الميدانيــة، أخبرني بأنها في الحقيقة مهمة بسيطة إلى حد بعيــد وغيــر معقــدة تمامًــا، وعلــى الباحث الميداني أن يكون تــصرفه فــي منتهــى اللياقــة والأدب، وأن يقــدم نفــسه كناصح أمين. وقد أخبرني أستاذي ســيلجمان Seligman أن أتنــاول كــل ليلــة مــا يقرب من عشرة أقراص من مــادة الكينيــين وهــي مــادة قلويــة شــديدة وتعمــل كمضاد قوي للملاريا وأن ابتعــد عــن النــساء. أمــا عــالم المــصريات الــشهير سيرفلندرز بيترى Sir Flinders Petrie فلم يقل لي شــيئًا أكثــر مــن أننــي يجــب

ألا ينتابني القلق من شرب المياه غير النظيفة لأنني وبمرور الوقت ستتكون لدى مناعة ذاتية وطبيعية ضد أضرارها. وفي النهاية سألت مالينوفسكى الذي أخبرني بأنه يتعين على ألا أكون غبيًا أو قاسيًا وعدوانياً، أو مخادعًا.

٣-نموذج الملاحظة بالمشاركة:

الملاحظة بالمشاركة، وكما هو واضح من تسميتها، تعنى كما أشرنا سلفًا أن يصبح الباحث القائم بالملاحظة جزءًا أو عضوًا في المجتمع أو الجماعة التي يقوم بدراستها، لكي يتمكن بالفعل من إجراء هذه الدراسة وعندما أراد أرفنج جوفمان Erving Goffman أن يدرس مؤسسة صحية للأمراض العقلية سعى للحصول على وظيفة ممرض بالمستشفي، ومن خلال هذا الدور تمكن من ملاحظة ورصد جميع التفاعلات اليومية التي تدور داخل المستشفي والتي أخرجها في كتاب عام ١٩٦٨ ويحمل عنوان "مستشفيات الأمراض العقلية". وكان جوفمان يعمل كباحث وملاحظ متنكرًا حيث لم يعلن عن هويته الحقيقية للعاملين بالمستشفي. وفي عام ١٩٥٦ تمكن ليون فستنجر Leon Festinger من الانضمام إلى طائفة دينية معينة، وانخرط في ممارستها كأحد أعضاء هذه الطائفة حتى يتمكن من دراستها من خلال الملاحظة بالمشاركة. وفي عام ١٩٧٠ كان على لود هيمفرس laud Hamphrey أن يقوم بدور المنحرف جنسيًا لكي يتمكن من دراسة جماعة من الشواذ جنسيًا أو المثليين. وقد وصف جولد Gold في عام ١٩٥٨ الأدوار التي قام بها هؤلاء الباحثون بأنها مشاركة كاملة، واقترح تقسيم الملاحظة وتنميطها إلى ثلاثة أدوار يمكن أن يقوم بها الباحث وهي:

- **المشارك كملاحظ.**
- **الملاحظ كمشارك.**
- **الملاحظة الكاملة.**

وهذا الدور الأخير للملاحظ الكامل يستحيل تأديته والقيام به تقريبًا لأن الملاحظ في هذه الحالة يكون حضوره التام نوعًا من المشاركة. وقد حاول كنج R. king أن يحقق هذا في بحثه داخل الفصول الدراسية للناشئة والذي أخرجه في كتاب يحمل عنوان "كل الأشياء مشرقة وجميلة" عام ١٩٧٨ ومن خلال محاولته عدم الانخراط في الحوار والمحادثات كان يهدف إلى التأثير المستتر وغير الظاهر. ويمكن استخدام طريقة الملاحظ كمشارك فقط عند القيام بإجراء مقابلات في مناسبات معنية ومن ثم فإن الملاحظة بالمشاركة المؤثرة والفعالة عمومًا تتضمن النوعين الآخرين من الملاحظة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الباحث القائم بالملاحظة ليس مجرد آله تصوير وترصد وتسجل ما يقع وبحدث إمامها، وإنما بالإضافة إلى قيام الباحث بعملية رصد وتسجيل الوقائع والأحداث فإنه يتعين عليه أن يحدد الأهمية السوسيولوجية لما يلاحظه، والكشف عن أنماط التفاعلات التي تدفع المبحوثين للقيام بأفعال وممارسات بعينها؛ والمعاني التي تنطوي عليها هذه الأفعال من وجهه نظر المبحوثين أنفسهم، ولماذا تأتي هذه الأفعال والممارسات على هذا النحو دون غيره.

وثمة مشكلة محددة تواجه القائم بالملاحظة الكاملة وهي أنه يتعين عليه أن يصبح واحدًا من أفراد المجتمع الذي يقوم بدراسته. وهناك عدد من علماء الأنثروبولوجيا توقفوا عن الاستمرار في دراساتهم وانخرطوا في حياة المجتمعات التي كانوا يدرسونها ليصبحوا أحد أعضائها الفعليين. لقد انتموا واندمجوا بالكامل في هذه المجتمعات وعلى نحو يصعب معه انسلاخهم منها، وبالتالي فقدت بحوثهم موضوعيتها. وعلى أية حال ثمة مخاطر وصعوبات في الإبقاء على عامل الموضوعية عن طريق كتابة ملاحظات والانسحاب التدريجي من مجتمع الدراسة وبانتظام وعدم الانخراط الكامل فيه وهي أمور قد تؤدي إلى الكشف عن هوية الباحث وافتضاح أمره.

وينطوي موقف الملاحظة على مجموعة من العناصر والمكونات المجددة لعل أولها قيام الباحث القائم بالملاحظة بتحديد خصائص المبحوثين الذين يلاحظهم ومحددات وجودهم الفردية والاجتماعية. وثانيًا، يتعين عليه أن يقدم وصفًا موضوعيًا للموقف الاجتماعي الذي تحدث فيه الأحداث والوقائع التي يلاحظها ويرصدها مع بيان السمات الاجتماعية للمكان أو الموقف وأنماط السلوك الاجتماعي المرتبط به. ويجب على الباحث بعد ذلك أن يحدد الهدف أو الأهداف من تجمع الأفراد موضع الملاحظة والكشف عن مدى عفوية وتلقائية هذا التجمع أو قصديته، وإلى أي مدى يرتبط بممارسات وأنشطة أخرى للمبحوثين وما الآثار المترتبة عليه. والعنصر الرابع في عملية الملاحظة هو قيام الباحث برصد وتسجيل السلوك الاجتماعي للمبحوثين: ماإذا يفعلون لتحقيق أهدافهم؟، ما هي دوافعهم للقيام لهذا السلوك؟، وما الآثار المترتبة عليه؟ وما الاتجاهات والأنماط والصفات التي يتخذها هذا السلوك؟ وأخيرًا يتعين على الباحث القائم الملاحظة الكشف عن مدى الانتظام والتواتر في الموقف والسلوك الممارس ودرجة هذا الانتظام والتواتر والمتغيرات الفاعلة التي تؤدى إلى وجوده.

ولنعرض للخبرة البحثية التِّي مَّر بها لود هيمفرس Laud Hamphreys في دراسته للمثليين والتي أشرنا إليها سلفًا:

لم تكن المقاهي التي قضى فيها هيمفرس ساعات طوال خلال بحثه مجرد متنزها ومقاهي أمريكية عادية بقدر ما كانت أماكن عامة للرجال. وكانت أبحاثه عن العالم السري للمنحرفين جنسيًا والذين يستخدمون المراحيض العامة في هذه الأماكن لاختلاس لقاءاتهم الجنسية العابرة. كانت هذه الأماكن تشكل عالمًا سريًا بكل ما تحمله الكلمة من معاني للرجال المثليين الذين يتزوجون بعضهم بعضًا ويخلقون عالمًا ومجتمعًا منغلقًا عليهم وخاصًا بهم وحدهم. إنه العالم السري للجاي أو الرجال المثليين أو المعروفين بالشواذ جنسيًا. وبقدر ما

كانوا معرضين للملاحقة والقبض عليهم من قبل السلطات والحكم عليهم بالسجن، فإن شركائهم في علاقاتهم الجنسية لم يكونوا معروفين لبعضهم البعض. لذلك كانت طرق الاتصال فيما بينهم والأساليب التي يستخدمونها لإتمام لقاءاتهم الجنسية كانت خاصة وسرية للغاية. وقد استخدم هيمفرس طريقة الملاحظة المستترة في محاولته فيما بعد القيام بدور المنحرف جنسيًا بعد أن تجاوز دور المراقب واختلاس النظر للممارسات الجنسية للمثلين في المراحيض العامة، ولم يتحقق له ذلك إلا بعد قبوله من هذه الجماعات ثم كشفه عن هويته الحقيقية كباحث، وبدأ بعدها يجرى حوارات مفتوحة مع المثليين. لقد كانت مشكلة بالنسبة له أن يتم قبوله وأن يسمحوا له بمقابلتهم بدلاً من الاكتفاء بدور الباحث الملاحظ عن بعد والذي يجلس في المقهى يختلس النظرات بينما المثليين منخرطون في ممارساتهم الجنسية الشاذة. وبمجرد قبول هيمفرس كمنحرف وشاذ جنسيًا داخل هذه الجماعات تمكن من إجراء اثنتى عشر مقابلة مع أعضاء هذه الجماعات. وكان الجميع على استعداد تام للتعاون والحديث معه شريطة توافر صفة السرية وإلا يتم التعرف عليهم أو الكشف عن هوياتهم. وعلى الرغم من ذلك فإن هذه العينة الصغيرة لا يمكن اعتبارها عينة ممثلة لمجتمع المثليين. وكما اعترف هيمفرس، فإن رغبتهم في التعاون معه قد أبعدتهم عن مجتمع المثليين الحقيقي والواقعي وعلى نحو ما سنرى فإن الحصول على عينة ممثلة وصحيحة من هذا المجتمع سوف تستغرق شهورًا طويلة من العمل الشاق والصبور.

إن تخفي الباحث القائم بالملاحظة بالمشاركة ليس سهلاً فهذا الدور من الممكن اختراقه وكشف هوية الباحث، ولهذا السبب فإن الكثيرين من الملاحظين الذين تبنوا دور الملاحظ كمشارك آثروا أن يعلنوا منذ بداية انضمامهم للمجتمع الذي يقومون بدراسته عن هويتهم الحقيقية كباحثين يقومون بإجراء بحوث ميدانية وبمرور الوقت يألفه أفراد الجماعة أو المجتمع الذي يقوم

بدراسته، ويصبح وجوده أمرًا طبيعيًا ويــتمكن مــن جمــع البيانــات والمعلومــات اللازمة من الأفراد على اختلاف مــستويات وجــودهم الفرديــة الاجتماعيــة، كمــا يتيح له أن يوجه لهم ما يشاء من الأسئلة والاستفــسارات. ومثــال ذلــك أن هوايــت Whyte خلال بحثه عن الأحياء الفقيرة في الولايــات المتحــدة الأمريكيــة اســتخدم هذه الاستراتيجية وأعلن منذ البداية عن هويتــه وأنــه يجــرى الأمريكيــة. وأيــضًا لاسي C. Lacey في بحثه عن المدارس الثانوية فــي الــضواحي وأطــراف المــدن تمكن بعد الإعلان عن هويته كباحث من إجــراء المقــابلات وتطبيــق الاســتبيانات بعد أن حظي بالقبول كباحث من قبل المبحــوثين المــستهدفين بحثًــا ويؤلــف كتابًــا عن الأحياء الفقيرة.

وقد اقترح كــل مــن كــولينز وبــنش Collins and pinch نموذجًــا مثاليًــا بديلاً للملاحظة بالمشاركة وناقشا نموذجي المشاركة الكاملــة، والملاحظــة الكاملــة انطلاقًا من منطلقات نظرية ومنهجية مختلفــة، أعنــى التأويليــة والوضــعية، كــل الاختلاف. والمقاييس المفضلة التي اقترحاها هي المقاييس غيــر الفــضولية والتــي تتضمن عمل الناس وأفعالهم كمــا فعــل همفــرس فــي دراســته للمثليــين. إنهــا المشاركة الــشاملة القائمــة علــى الفهــم والإدراك، وهــذا هــو النمــوذج الــذي استخدماه. وقد ارتأى كــل منهمــا أننــا يمكــن أن نحقــق الإدراك والفهــم عنــدما نتجاوز ما يبدو لنا على أنه مثير، ومنفر، ومشوش لنقبلــه علــى صــورته الطبيعيــة التي يكون عليها بالفعل فــي المجتمــع الــذي نقــوم بدراســته. ولا توجــد أدنــي مسئولية على الباحث تحتم عليه أن يُبقي الأشياء على مــا هــي عليــه وأن ويحــافظ على اســتقامتها وانتظامهــا ولا أن يعيــد صــياغة جميــع التفــاعلات التــي قــام بملاحظتها وإنما على النقيض من ذلك تمامًــا فالباحــث يتعــين عليــه أن يتــصرف ويسلك بنفس الطريقة التي يتصرف ويــسلك بهــا أبنــاء المجتمــع الأصــلي الــذي يقوم بدراسته، أي يكون على طبيعتــه مــثلهم تمامًــا ويحــاول أن يتــذكر ويــسجل تفاصيل تفاعلاتهم.

ومؤخرًا استخدمًا مفهوم المشاركة القائمة على الاستبطان، أي استبطان الباحث المشارك لأفكاره ودوافعه ومشاعره، وحيث يضفي الباحث سماته الشخصية على الدور الذي ينهض به في المجتمع الذي يلاحظه والتفكير في التجارب الخاصة بأفراد هذا المجتمع الأمر الذي يمكنه في النهاية من تشكيل وتكوين رؤية صحيحة عن هذا المجتمع. وبعبارة موجزه يتقمص الباحث دورًا ما في المجتمع ويحاول إعادة إنتاج هذا الدور في مواقف الحياة اليومية والطبيعية.

وبالنظر إلى أن ذات الباحث القائم بالملاحظة بالمشاركة ستكون حاضرة وبقوة في عملية الاستبطان والتذكر وتسجيل التفاعلات التي يشارك في صنعها وصياغتها في مجتمع الدراسة؛ فإن هذه الطريقة المنهجية تطرح بالضرورة مسألة الموضوعية، كما أنها ستطرح بالضرورة العديد من القضايا الأخلاقية. إن المشاركة القائمة على الاستبطان والفهم والإدراك، وكذلك المشاركة التامة والكاملة للباحث وبالمعنى المحدد الذي استخدماه سلفًا تعد طرقًا منهجية مقنعة ومستترة، فالباحثون لا يعلنون بأي حال لمجتمع الدراسة أنهم باحثون يقومون بإجراء بحوث علمية. وفي الحالات المغايرة التي تعتمد الطرق الأكثر علانية للمشاركة كملاحظ، فإن الجماعة أو المجتمع موضوع للدراسة يكونان على وعى إدراك تام أنهما موضوع الدراسة وأنهما يخضعان للملاحظة ومن ثم تكون حرية الاختيار سواء بالنسبة للاستمرار كموضوع للدراسة والبحث أو رفض المسألة برمتها.

٤- اختيار العينات:

تشتمل جميع البحوث السوسيولوجية على اختيار طريقة معنية من طرق اختيار وسحب العينة، والبحوث التي تعتمد الملاحظة بالمشاركة ليست استثناءً من ذلك. فالمجتمع الذي نلاحظه، وعصابة المجرمين التي نلتحق بها، والطائفة الدينية التي تتسلل إلى داخلها... الخ، كل هذه الحالات تم اختيارها وفق أسس

ومعايير محددة. والمقاهي التـــي أختارهـــا هيمفـــرس Humphries لتكـــون عينـــة ممثلة للأماكن التي يرتادها الرجال المثاليين أو الشواذ جنسيًا. وفـــي هـــذه البحـــوث التي أشرنا إليها، وكما في غيرها من البحـــوث الأخـــرى المماثلـــة يكـــون الهـــدف الأساسي هو الوصول إلى نتائج ذات مغزى ودلالـــة عامـــة تتجـــاوز المجموعـــات الصغيرة التي قام الباحث بدراستها. ويتعين أن نأخذ بعـــين الاعتبـــار العلاقـــة بـــين العينة والمجتمع الواسع والأصلي للبحث الذي سحبت منه هـــذه العينـــة. وقـــد أكـــد جـــون هونجمـــان John Honigman إن عـــالم الاثنوجرافيـــا لا يمكنـــه بحـــال أن يتجنب اختيار أفـــراد بعيـــنهم، أو اختبـــار موضـــوعات أو أحـــداث بعينهـــا ليقـــوم بدراستها ومن ثم يقضي على احتمال دراسة الآخـــرين. إنـــه والحـــال هكـــذا، فثمـــة تحذير شديد اللهجة لتوجيه انتباه الباحـــث الاثنـــوجرافي إلـــى ضـــرورة أن يكـــون على وعى تام بطابع عينة بحثه وخصائصها وبعبـــارة أخـــرى، أن الباحـــث يجـــب عليه ألا يترك ويتجاوز ما هو غير معتـــاد وبـــراق لأن هـــذا مـــن شـــأنه أن يـــشوه إجراءات اختيار العينة كما يدفع في اتجاه الانحياز وعدم الموضوعية.

٥- الدخول إلى المجتمع البحث، وحارس البوابة، والإخباري الأساسي:

غالبًا ما يواجـــه الباحـــث الـــسوسيولوجي صـــعوبات كبيـــرة للـــدخول إلـــى الجماعة التي ستكون موضـــوعًا لبحثـــه. وقـــد رأينـــا أن الباحـــث الـــذي ســـينتهج طريقة البحث المستتر، والباحث المقنع كطريقة منهجية فـــي الملاحظـــة، فإنـــه فـــي هذه الحالة عليه أن يتقمص بالفعل شخـــصية أعـــضاء هـــذه الجماعـــة، أي يـــصبح كأحد أفرادها تمامًا. ويتعين عليه أن يجد منفذًا للاتـــصال بأحـــد أعـــضاء الجماعـــة موضوع البحث ويكون هذا الـــشخص مدخلـــه للانتمـــاء وإلـــى عـــضوية الجماعـــة التي تقبل انتماء أعضاء خارجين إليهـــا. وقـــد نجـــح هميفـــرس Humphries فـــي القيام بكل ذلك في دراسته عن الرجال المثليين بارتدائـــه الملابـــس غيـــر الرســـمية وبتغير مسلكه في المقاهي التي يلتقي فيها هؤلاء الرجال.

وقد وضع كانز Cans حدودًا للدور المقنع والمستتر إذا ما كان الباحث القائم بالملاحظة يدرس مجتمعًا بكامله، فإنه من الضروري أن ينتمي إلى جماعات بعينها داخل هذا المجتمع ويستثني جماعات أخرى لا يرتبط بها. وربما لا يكون الدخول والانتماء سهلاً وممكنا بالنسبة للأقسام والجماعات الأخرى من المجتمع:

أخبرت الناس منذ البداية وبشكل مباشر بأنني باحث وأنني آمل أن يتقبلوني بينهم بهذه الصفة. ولم ينشأ عن هذا الإعلان أية مشكلة، حيث شرحت للناس في مجتمع البحث أنني أدرس الكيفيات التي من خلالها ينشأ الغرباء مجتمعًا لهم داخل المدينة وكان هذا موضوعًا لطيفًا وغير شخصي وذلك بالنظر إلى أن سكان المدينة موضوع البحث كانوا لا يزالون حينئذ غرباء عن بعضهم البعض وكانوا أيضًا مهتمين بهذا الموضوع بدرجة كبيرة. أما في أقصي الغرب، فإن الدخول والانتماء إلى مجتمع البحث كان أمرًا بالغ الصعوبة لأن الناس الذين ينتمون إلى الطبقة العاملة الصناعية لم يكن لديهم دراية بموضوع الأبحاث العلمية ولم يألفوها من قبل كما كانوا أكثر شكًا وارتيابا في الناس الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطي. فأفراد الطبقة العاملة لم يكن من السهولة بمكان أن يقبلوا وجود أي دخلاء وأجانب من أي نوع في وسطهم، ولا يتكلمون بسهولة مع أي شخص أجنبي، أو لا يسمحوا له بالانضمام إلى جماعاتهم غير الرسمية والتي تتأسس بدرجة كبيرة على علاقات القرابة، وكانت لديهم حجرة صغيرة لاستقبال الزائرين الغرباء. وبطريق الصدفة وحدها سمحوا للباحث أن يدخل إلى جماعتهم بعد أن شاهدوه اكثر من مرة، وبدرجات تكفي لأن يثقوا فيه، ولأنهم لم يكن لديهم أية مبررات للتشكك في أغراض البحث.

إن الدخول إلى الجماعات موضوع الدراسة والبحث ربما تكون مفاتيحه لدى أفراد بعينهم داخل هذه الجماعات. إنهم من يمنحون تأشيرة المرور والعبور إلى الجماعة التي ينتمون إليها. وهؤلاء من الممكن أن يكونوا على

سبيل المثال رؤساء الطوائف الدينية، مديري المكاتب، مأموري السجون، رؤساء الاتحادات العمالية...، وما شابه ذلك. وهؤلاء يمكن أن نسميهم بحراس البوابات Gatekeepers. وفي حالة إجراء البحث في مدرسة مثلاً فإننا سنجد أن لها أكثر من حارس بوابة واحد، كمدير المدرسة، ومدرسيين بعينهم، وعدد من الطلاب أو التلاميذ ممن لديهم إمكانية النفوذ والتأثير في زملائهم، ونحن نجد حارس البوابة حتى عندما نريد الدخول إلى جماعات من الأطفال. وقد تمكن وايت Whyte من الحصول على كثير من المعلومات والحقائق عن التشكيل العصابي الذي قام بدراسته من خلال دوك DOC قائد هذا التشكيل والذي كون معه صداقة قوية وكان بمثابة حارس البوابة الذي سمح لوايت بالنفاذ إلى داخل العصابة وكان يأمنه على أسرار بحثه على الرغم من أنه لم يكشف عنها للآخرين من أفراد الجماعة، وكان دوك متعاونًا لأقصي حد مع وايت. لقد كان الإخباري الأساسي الذي اعتمد عليه وايت في إمداده بالمعلومات والحقائق المهمة عن أعضاء الجماعة بصفة عامة.

ويصور وايت W. F. Whyt هذه الخبرة البحثية على النحو التالي في كتابه عن مجتمع النواصي Street Corner Society الصادر في عام ١٩٥٥ عن جامعة شيكاجو:

كانت دراسات وايت عن Cornerville وهي منطقة يسكنها الأمريكيون من أصل إيطالي في منطقة وسط المدينة، وهي تؤكد أن الحياة كانت أكثر تنظيمًا في هذه المنطقة مما كان متوقعًا. وقد تعمد وايت إخفاء صفته كباحث سوسيولوجي وأعلن أنه يؤلف كتابًا عن المنطقة وذلك لكي يبرر وجوده فيها، إلا أنه بمرور الوقت تبين له أن قبوله لدى أهالي المنطقة يعتمد بدرجة أساسية على العلاقات الشخصية أكثر من أية تبريرات يمكن أن يقدمها لمن يسأله عن عله وجوده في هذه المنطقة. ويقول وايت أنه كان محظوظا عندما تعرف على دوك DOC زعيم عصابة شارع Norton، فقد قبله دوك وأقام معه علاقة

شخصية قوية وعمل معه في البحث كأخباري أساسي ومهم لإمداده بالمعلومات والحقائق، وكان دور دوك حاسمًا ومهمًا للغاية في ما عملية البحث.

وكان لإدراك دوك التام والصحيح لطبيعة دراستي أن دفعته لأن يبحث معي ويرشدني إلى الملاحظات التي أهتم بها في بحثي وغالبًا ما كنت اصطحبه إلى الشقة التي يقيم فيها مع أخته وزوجها، ويخبرني بأنني كنت أتجول في المنطقة وأنني كنت سعيدًا بذلك، وكان يبدأ في إخباري بكل ما حدث. ومثل هذه الملاحظات كانت ممتعة ومثيرة بالنسبة لي، كما كانت في الوقف ذاته عظيمة الفائدة بالنسبة للبحث الذي أقوم به. وقد وجد دوك أن خبرة العمل معي كأخباري مثيرة وممتعة له، هذا على الرغم من أن علاقتي به كان يشوبها الكثير من العيوب. وفي إحدى المرات خاطبني دوك قائلاً لقد كلفتني الكثير منذ مجيئك إلى هذه المنطقة، والآن عندما أشرع في عمل شئ ما، يتعين على أن أفكر كثيرًا فيما ينبغي أن يعرفه وايت، وكيف يمكنني أن أفسره له في حين أنني كنت قبل ذلك أفعل أي شئ بغريزتي وعلى نحو فطرى.

وبالرغم من ذلك، فإن دوك لم يكن يرى في ذلك عقبة خطيرة. وفي الحقيقة، وبدون أية تدريبات خضع لها، فإن دوك كان ملاحظًا جيدًا وواعدًا، وكل ما كان يحتاجه هو الدعم والتشجيع لكي يكشف لي المزيد من فعاليات التنظيم الاجتماعي في مجتمع النواصي.

٦- تبني الباحث لدور ما داخل الجماعة موضوع البحث:

بعد أن ينجح الباحث الذي يعتمد أسلوب الملاحظة بالمشاركة في الدخول إلى الجماعة موضوع البحث، فإنه لا يزال واقعًا تحت تأثير مجموعة من الضغوط القوية والتي لا يمكنه تجاهلها بحال من الأحوال. فعليه أن يؤسس لنفسه دورًا محددًا داخل الجماعة أو المجتمع الذي انضم إليه، وفي الوقت ذاته عليه أن يحافظ على درجة من التوازن بين كونه ملاحظًا من جهة، ومشاركًا من جهة ثانية. وبالنسبة لجانز Gans تتطلب الملاحظة بالمشاركة ضرورة قمع

وتأجيل إشباع الرغبات والحاجات الشخصية أو الذاتية للباحث، والتظاهر بمشاعر المشاركة الحقيقية في الجماعة، وهذه المشاعر ربما تكون غير حقيقية. إن الباحث الميداني القائم بالملاحظة المشاركة هنا أشبه ما يكون برجل السياسة الذي دائما ما يكون لديه أجندة أو قائمة مخفية أو مستترة، والذي لا يمكنه أن يتحدث بحرية وصدق وصراحة عن نفسه وعن دوافعه الحقيقية.

وقد اضاف فالدوبونز Valdo pons (١٩٦٩) العديد من المساوئ، وربما الميزات في بحثه داخل مجتمع محلي في إحدى المدن الأفريقية في الكونغو لقد كنت اوروبيا أبيض البشرة، وأجنبي من خارج المنطقة، ومشكوكًا في دوافعه، ولم تكن لي أية علاقات مسبقة أو ارتباطات مع أي أحد من داخل هذا المجتمع، وكانت هذه هي نظرة الكثير من سكان المنطقة لي. ولقد اكتشفت أنني يمكن القيام ببعض الأدوار والأعمال المفيدة ولصالح هؤلاء السكان ككتابة الخطابات وكيفية تسجيل أنفسهم في مكاتب العمل، وكان من الممكن الاستفادة من وضعي كأوروبي داخل هذا المجتمع في إجراء اتصالات ببعض المسئولين لإنجاز بعض المهام وقضاء بعض المصالح لهؤلاء السكان. وبمرور الوقت اكتشفت أنني بدأت أتعرف على الناس بسرعة أكبر وأعرف الكثير عن حياتهم أفضل من أي من القادمين الجدد إلى هذا المجتمع، كما استطعت خلال شهور قليلة أن أجمع قدرًا هائلاً من المعلومات والحقائق مكنتني في حالات قليلة أن أقوم بإجراء محادثات وحوارات مع أهل المنطقة وعلى نحو أفضل بكثير مما يستطيعه سكان المنطقة أنفسهم.

وتمثلت المشكلة التي واجهها ريتشارد جنكز Richard Jenkins في دراسته التي تعتمد على الملاحظة في مدنية بلفاست Belfast في إمكانية تبنيه دورًا مناسبًا ومقبولاً. وقد ساعده في ذلك حقيقة أنه يمكن أن يقدم نفسه لمجتمع الدراسة، ولو كان ذلك بطريقة أقل شرعية أو أكثر، على أنه عامل شاب. وقد مكّنه هذا الدور من الدخول إلى معظم الجماعات التي كان يرغب في الانضمام

إليها ودراستها. ولكن من السخرية أنه قد وجد أن إجراء مقابلات مع الفتيات المحترمات أو المواطنات على حد وصفه لهم كانت صعبة للغاية لأنهن لا يرغبن في إقامة أية علاقات أو ارتباطات الشباب من العمال.

ويصف ريتشارد جنكز هذه الخبرة البحثية (١٩٨٣) على النحو التالي: مع كل العنف والرعب الذي شهدته مدنية بلفاست على امتداد أكثر من عقد من الزمان، كان من الصعوبة بمكان القيام بأي دراسة أو بحث في هذه المدينة، وبالرغم من ذلك يحاول ريتشارد أن يصف الهدف من بحثه على أنه محاولة لرصد وفهم عملية الانتقال والتحول من فترة المراهقة إلى البلوغ، وبين الانتقال من مرحلة التحصيل والتعليم إلى دخول سوق العمل للشباب من الجنسين، وأوضاع الطبقات الاجتماعية والمساكن في الضواحي الخارجية لمدنية بلفاست. وقد تطلب ذلك مناقشة ثقافة الشباب والانتقال من مرحلة الدراسة من ناحية، ومن ناحية أخرى وضع ايرلندا الشمالية.

إن المشكلة التي يواجهها الباحث هنا هي النظرة إلى الشخص الأجنبي الوافد إلى هذا المجتمع، وهي نظرة تقوم على الشك والريبة وفقدان الثقة والمصداقية. وقد واجه جيكنز مشكلة الدور الذي يتعين أن ينبتاه خصوصًا وأن الناس لا تتفهم دور الباحث أو الدارس. ولكن ما سهل مهمته هو قيام بدور عامل شاب، وكانت لديه ميزة مهمة وهي أنه في السنة السابقة على القيام بحثه كان قد قام بالعمل كعامل شاب والآن ستساعده هذه الخبرة السابقة كثيرًا على القيام بهذا العمل على أساس أنه عمل تطوعي.

ولقد وصف نفسه بأنه انثروبولوجي، يقوم بملاحظة الناس في أماكنهم وأوضاعهم الطبيعية. وقد اقترح في بحثه تصنيف الشباب في المدنية التي كانت مسرحًا لبحثه إلى ثلاثة فئات أساسية هي الرجال وتشمل جميع الذكور منهم، والمواطنين وتشمل جميع الإناث، والأولاد العاديين وتتضمن كلاً من الذكور والإناث. وقد بزغت هذه الفئات، كما قال جيكنز، من خلال ممارساته

البحثية ذاتها أكثر من كونها اعتمدت على فـروض نظريـة مـسبقة، وقـد شـكلت هذه الفئات الثلاثة مصدرًا أساسيًا للعينـة التـي قـام بدراسـتها وإجـراء مقـابلات معها على التوالي.

إن العمل الميداني بالنسبة للمرأة التي تقـوم بالملاحظـة يخلـق العديـد مـن المشكلات ويواجه بالكثير من المصاعب. وسواء كـان البحـث مـستترًا أو معلنًـا، فهناك دائمًا مشكلة المعاملـة الفظـة والخـشنة، أو عـدم إثـارة اهتمـام الرجـل. خصوصًا في الأماكن التي يـسيطر عليهـا الرجـال. فعنـدما يبـدأ الملاحـظ فـي الحديث مع أحد الرجال تبدأ على الفور لعبـة الرجـل والمـرأة فـي الظهـور. إن الباحثة الأنثى عند قيامها بالملاحظة في العمـل البحثـي يـتم النظـر إليهـا غالبًـا ومعاملتها من قبل المبحوثين على أنهـا مجـرد سـاعي مكلـف بحمـل الرسـائل إليهم، أو على أنها أبنه بديلة، وفي كل الأحـوال وبـالرغم مـن هـذه الـصعوبات، فإن عمل المـرأة الباحثـة وقيامهـا بالملاحظـة لا يخلـو أيـضًا مـن المميـزات والحسنات.

إن المشكلة التي ذكرت قبلاً إذا لم تؤخذ بجدية واهتمـام أكثـر مـن الممكـن أن يتم توظيفها لمصلحة شخص مـا. وإذا لـم يـتم التعامـل مـع الباحـث بجديـة واهتمام نظرًا لكونها امرأة شابة وصغيرة السن، فإن ذلـك سـيترتب عليـه الـدخول في مصاعب أخرى، وسيخلق أوضاعًا لا يمكن قبولهـا. فعلـى سـبيل المثـال مـن الممكن لأحد منا أن يسمح له بدخول مدرسة لعلوم الدفن والمـوت الخاصـة بكبـار السن، إن المرأة الشابة الباحثة المعروفة يتم إنكارها هنـا ولا يـسمح لهـا بالـدخول أو الاقتراب من هذه المدرسة، في حـين إن الباحـث الـشاب الرجـل يـسمح لـه بالدخول إلى المدرسة المذكورة على اعتبـار النظـر إليـه كتعويـذه تجلـب الحـظ السعيد، أو فأل حسن، ومن خلال تقديمه عن طريق أحـد أعـضاء هيئـة التـدريس بهذه المدرسة. إن وضع الباحث الشاب هنا، وكذلك البحـث الـذي يريـد أن ينفـذه تم وصفه وشرحه لعميد المدرسة، حارس البوابة، الـذي رحـب بـه علـى الفـور،

وسمح له بالدخول إلى المدرسة وكان كل اهتمام مدير هذه المدرسة أن الباحث يتعين عليه أن يرتدي الملابس المناسبة لبيئة المدرسة.

٧- الحوار: مشكلة المقابلات:

يتطلب القيام بالملاحظة المشاركة ضرورة توافر مجموعة من المهارات المهمة الضرورية مثل مهارة دقة الملاحظة، وطرح الأسئلة، وإجراء المقابلات. وإذا ما كان الباحث يرغب وبصدق في رؤية العالم بعيون الجماعة التي يقوم بدراستها، فإنه يتعين عليه أن يتملك القدرة على استخدام تكنيك المقابلة غير المقننة. وهذا النوع من المقابلات كما يتضح من تسميتها، تتطلب أن تتوافر لدى الباحث مهارة إدارة الحوار مع المبحوثين، وحيث يكون الباحث مرشدًا وقائدًا يحاول أن يسبر غور المبحوث الذي يجرى حوار معه حتى يمكنه الحصول على البيانات والمعلومات اللازمة لبحثه. ولا يعني كون المقابلة غير مقننة أنها مقابلة عفوية وتلقائية. ذلك أن الباحث إذا لم يعد نفسه جيدًا لهذه المقابلة فإنه سيبدد ويضيع الكثير من وقته وجهده، فعليه مثلاً أن يدرس جيدًا خصائص الإخباريين الذين سيقابلهم وسيكونون مصدرًا للمعلومات والبيانات سواء كانوا قادة رسميين للاتحادات العمالية، أو زعماء عصابات، أو مفتشي المدارس، أو أي شخص آخر سيكون موضوعًا لدراسته. وهؤلاء جميعهم لا يعرفون نوعية وطبيعة الأسئلة التي سيوجهها لهم الباحث خلال المقابلة، ولكن على الباحث أن يمنح الإخباريين فرصة توجيه الحوار والمناقشة في الاتجاه الذي يرونه مناسبًا وذلك حتى يكون بمقدور الباحث أن يصل إلى فهم رؤية المبحوثين للعالم الذي يعيشون فيه وكذلك تأويلاتهم لهذا العالم.

وكما هو حادث في كل المقابلات على اختلاف أنواعها تطرح مشكلة فحص ومراجعة ما قاله المبحوثون، حتى ولو كان الباحث قد استخدم الأسلوب المستتر والمقنع في الملاحظة. كما توجد مشكلة أكبر من السابق، إلا وهي دقة رصد وتسجيل ما قاله المبحوث خلال المقابلة وما يتطلبه ذلك من ضرورة

تمتع الباحث بذاكرة قوية استبطان واسترجاع كل ما قيل، مع ضرورة استقلال أول فرصة تتاح لتسجيل الملاحظات.

ومن الخطأ أن نتصور أن الملاحظة بالمشاركة لا تتضمن إجراء مقابلات رسمية. وبوجه عام، يستخدم علماء الاجتماع في بحوثهم مجموعة من الأساليب والطرق البحثية. وغالبًا ما يستخدمون طرقًا أو أساليب بحثية متنوعة وذات أبعاد ثلاثية في معالجة مشكلاتهم البحثية. وتعكس هذه الاستراتيجيات البحثية الإطار النظري التصوري الذي ينطلقون منه، ولكن الطرق والأساليب البحثية المستخدمة فعلاً تكون متنوعة ومتعددة. وقد استخدم هيمفرس Humphreys، على سبيل المثال، طرق بحثية معقدة ومتقنة وقام بتوظيفها على نحو جيد لاختيار عينة من الرجال المثليين والذين تمكن بعد ذلك من استكمال ملاحظاتهم وتتبعهم في السنوات التالية بعد إتمام ملاحظاته الأولى لهم. وقد تمكن بعد ذلك من إجراء مقابلات رسمية معهم داخل الأطر والبنيات الاجتماعية والاقتصادية التي ينتمون إليها. واستطاع هيمفرس إن يجمع بين هذه العينة التي قام بدراستها بآخرين من أمثالهم من المثليين غير المرتبطين ببحثه، إلا أنه لم يطرح على المجموعة الثانية أية أسئلة تشير إلى معرفته بأشباههم من المثليين. وبالنسبة للباحث الذي يستخدم الأسلوب المعلن عن نفسه وعن بحثه والهدف منه، فإنه إذا لم يقم وعلى وجه السرعة بتسجيل وتدوين ملاحظاته فإنه سيواجه صعوبات كثيرة لأن المادة البحثية التي قام بملاحظتها ستتعرض للنسيان الجزئي أو ربما بفقدها كلها.

٨- تسجيل البيانات والمعلومات:

بينت نتائج البحوث والدراسات التي اعتمدت الملاحظة بكل أنماطها كوسيلة لجمع البيانات والمعلومات؛ أن الملاحظة الدقيقة والمثمرة ليست أمرًا سهلاً تمامًا، فالحواس كثيرًا ما تخدع الباحث القائم بالملاحظة فلا يرى الأشياء على النحو الذي وقعت عليه بالفعل. بل إن عقل الباحث نفسه من الممكن أن يكون مصدرًا للخطأ

في عمليــة الملاحظــة والرصــد للظــواهر التــي يقــوم بملاحظتهــا بحكــم العــادات المترسخة في ذهن الباحــث والتــي تدفعــه إلــى مــلء التغيــرات دون وعــى، ووفقًــا لخبراته ومعارفه السابقة، وما يتفق مع اتجاهاته وأغراضه.

ولكل هذه الاعتبارات يجــب علــى الباحــث القيــام بالملاحظــة بالمــشاركة والتركيز على ضرورة القيــام بتــدوين وتــسجيل ملاحظتــه البحثيــة اليوميــة أولا بأول. والنصيحة التي تقدم للباحثين في هذا المجال هي: أكتــب وســجل كّــل شــئ لأنك لا تعرف الآن ما الشيء الذي سيكون أكثر أهميــة فيمــا بعــد. والــسبب فــي ذلك أن الباحث الملاحظ المشارك عنــدما يزيــد مــن مــشاركته واســتغراقه فــي الجماعة أو المجتمع الذي ببحثه قد يتوقف عــن تــسجيل وتــدوين ورصــد الأشــياء التي أصبحت مألوفة لديه بحكم المشاركة، فإذا لم يقــم بتــسجيلها وقــت ملاحظتهــا المرة الأولي عندما كانت غريبة وغير مألوفة بالنــسبة لــه فإنــه سيتقاضــى عنهــا بعد ذلك فلا يرصدها أو يسجلها.

وقد شرح وايت Whyte في كتابه "مجتمــع النواصــي" بأنــه كــان يــسجل كل ملاحظاته أولا بــأول وبحــسب ترتيــب نوعهــا الزمنــي فــي ملــف منفــرد. وبمرور الوقت، ومع غزارة المادة البحثية التي قــام بجمعهــا التــي قــام بجمعهــا التي قام بجمعها وتسجيلها توقف عن ذلك علــى أســاس كفايــة المــادة التــي قــام بجمعها لأغراض البحث. وبدون تفكير حاد فــي المــشكلة ارتــأى وايــت أن عليــه أن يقوم بتصنيف المادة التي قام بجمعها إلى مجموعات علــى أن يقــوم بعــد ذلــك بتصنيفها على أســاس وحــده الموضــوع بعــد أن تتكــون لديــه معرفــة أعمــق بالموضوعات المرتبطة بالبحث. وعنــدما تراكمــت المــادة البحثيــة قــام بتنظــيم ملاحظاته وفقًا للمجموعات الاجتماعية وبالطريقة التــي تتفــق وتقدمــه فــي عمليــة البحث وبعد مرور بعض الوقت أدرك أن المعلومات الموجــودة داخــل كــل ملــف من الملفات كبيرة للغاية، وأنها تحتاج إلى نوع من الفهرسة والتنظيم والتبويب.

وتتراوح الملاحظات الميدانية ما بين الملاحظات المختصرة والموجزة والتي تم تسجيلها على عجل، والملاحظات التي تنطوي على تحليلات نظرية للباحث. ويذهب بيرجيس Bargess (١٩٨٢) إلى أن الملاحظات الميدانية التامة والكاملة ستكون واحدة من الأنماط **الثلاثة الآتية:** الملاحظات الميدانية الواقعية والفعلية التي تعطي تفاصيل للملاحظات والمحادثات المهمة والأساسية، **ثانيًا:** الملاحظات المنهجية التي تشمل تقريبًا على التفاصيل المتعلقة بالظروف التي أحاطت بعملية جمع البيانات والمعلومات والأساليب والطرق البحثية المستخدمة، **وثالثًا:** الملاحظات الميدانية التحليلية حيث يتم تطوير الفروض واختبار النظريات. وتجدر الإشارة هنا إلى الأهمية البالغة للوضوح والدقة في عمليات الملاحظة والرصد والتسجيل لأن ذلك يضع الأساس الأمبيريقي لأية نظريات لاحقة.

٩- قضايا ومسائل أخلاقية:

تواجه طريقة الملاحظة المشاركة عدة انتقادات من بينها أنها عمل غير أخلاقي إذ تنطوي في كثير من الأحيان على التحايل والخداع كما أنها قد تكون سببًا في تورط الباحثين في بعض المشكلات والمعضلات فعلى سبيل المثال وفي جنوب الولايات المتحدة الأمريكية، وجدت إحدى الباحثات نفسها وقد تم إلقاء القبض عليها من قبل جماعة من الغوغاء أثناء القيام ببحثها. ولم تدر ما الذي يتعين عليها أن تفعله خاصة وقد صدر حكم بقتلها. وارتأت إنها إن بلغت الشرطة فلن تقدم لها أية مساعدات، كما أن ذلك قد يفسد بحثها، وبدلاً من ذلك حاولت إقناع هؤلاء الغوغاء بحسن التصرف وقد أحست بارتياح شديد عندما هرب الرجل الذي كانت تطارده هذه الجماعة. وفي حالات أخرى تم الاعتداء بالضرب على أحد الباحثين عندما رفض أن يدفع إتاوة لأحد أفراد العصابة التي كان يقوم بملاحظتها.

ويواكب الملاحظة المشاركة المقنعة والمستترة ويترتب عليها الكثير من المشكلات والعقبات، فبعض الأسئلة والتي تكون من حق الباحثين، مهما كانت دوافعهم، قد تتحول إلى وسيلة لخداع المبحوثين واستغلالهم والتطفل عليهم، وهؤلاء المبحوثين الذين لا يشككون في الباحث ولا يرتابون في دوافع بحثه، قد لا يكون أمامهم أي فرصة للاختيار في مواجهة المسألة برمتها. في هذه العملية البحثية تتم رسمله علاقات الصداقة الإنسانية وتحويلها إلى وسيلة للكشف عن الأسرار الشخصية وإفشاءها وكشفها للعيان، وتتحول علاقات الصراع إلى نوع من الاستثارة العقلية والروحية.

ويدافع هيمفرس Humphreys عن بحثه وعن دراسات وأبحاث أخرى مماثلة استنادًا إلى أهمية وضرورة المعرفة التي تنتج عن هذه الأبحاث والدراسات. لأن الآخرين، وعلى وجه الخصوص، وسائل الإعلام، والمحاكم يمكنهم أن يقوموا بصياغة فروض حول القضايا التي عالجتها الأبحاث والدراسات العلمية ولكنها لا تستند إلى أية معلومات وحقائق واقعية وبحثية، في حين أن لها انعكاسات مؤثرة للغاية على السياسات والممارسات المجتمعية. وأشار هيمفرس إلى ما يحدث عندما يكون هناك نقص في هذه الحقائق والبيانات والمعلومات التي توفرها البحوث العلمية الميدانية، ويتم الاستعاضة عن ذلك بالاعتماد على محاضر وسجلات الشرطة مثلاً التي تتأسس على افتراض أن الشباب في خطر بفعل المثلية الجنسية.

ويعلق هيمفرس (١٩٧٠) على الآثار التي تحدثها المعلومات والبيانات غير الصحيحة التي تنطوي عليها تقارير ومحاضر الشرطة بأن ذلك قد يكون عملاً غير لائقا ولطيفًا بالمرة بالنسبة لمحقق الشرطة الذي كان أفراد حملة الملاحظة المثليين والقبض عليهم، الأمر الذي أدى إلى تفجر فضيحة الشذوذ الجنسي في مدنية بويز Boise عام ١٩٥٦ حيث تم التحقيق مع أكثر من ١٤٠٠ شخصًا واستجوابهم واعتقال عشرين منهم وعمَّ الذعر المدينة التي يبلغ عدد سكانها ٥٠٠٠٠ نسمة، وأحد الأولاد المتورطين قُتل أباه، وتم عزل رئيس

الشرطة والضابط المنوط به تنفيذ العقوبات، كما طُرد أبن أحد المستشارين من منصبه، وبلغت المأساة قمتها بإدانة تسعة أشخاص لقيامهم باعتداءات جنسية وصدرت بحقهم أحكاما بالسجن تتراوح ما بين السجن لمدة خمس سنوات والسجن مدى الحياة وهؤلاء جميعًا تركوا خلفهم عائلات بلا عائل حقيقي لهم.

ولا يوجد حل سهل للورطة والمفضلة الأخلاقية بالنسبة للموضوعات التي تكون دراستها عملاً مشروعًا وقانونيًا، ولا بالنسبة للمنهج والطرق البحثية المشروعة أيضًا. ويؤكد هيمفرس على أن ضمان السرية وضمان حماية مصادره في المعلومات والبيانات مسألة على درجة بالغة من الأهمية بالنسبة له. وأن هذه المعضلة الأخلاقية وما تنطوي عليه من مشروعية وضمان السرية والحماية تؤثر بدرجة كبيرة ليس على الملاحظة المشاركة وحدها وإنما على مختلف أنماط البحوث الاجتماعية وإن كان بدرجات متفاوتة.

١٠-التاريخ الشفهي:

تحتوى الكتب التي تضم تقارير البحوث العلمية التي استخدمت طريقة الملاحظة بالمشاركة على كثير من الاستنتاجات المعتمدة على البيانات والمعلومات والحقائق الغزيرة الناتجة عن المقابلات والحوارات التي تمت مع الأفراد الذين كانوا موضوعًا للدراسة والبحث. وكان من شأن هذه الموضوعات ووضوحها أن ساعدت على فتح المزيد من النوافذ على العوالم الذي تمت دراستها. إننا عندما نحصل على المزيد التفصيلات من قبل المبحوثين بشأن العالم من حولهم. فإن هناك باحثين آخرين قدموا مناقشاتهم للقراء بطريقة إجرائية تمامًا حيث تركوا البيانات والحقائق تتحدث عن نفسها وقدموها للقراء صريحة للغاية وبعيدة تمامًا عن أي تزييف أو تشويه، وتركوا للقارئ أن يحكم بنفسه ويستنتج ما يراه. وهذه البيانات الوثائقية التي تقدم مباشرة للقراء ينبغي أن تخضع للمراجعة والتنظيم والفهرسة، وأن يتم التأكد من دقتها وصحتها.

الفصل السادس
تقييم البحث السوسيولوجي

١-مقدمة.

٢-عناصر عملية البحث العلمي الاجتماعي:

أ- النظرية الاجتماعية.

ب- الفروض.

ج- الإجراءات المنهجية للبحث.

د- العمل الميداني.

هـ- نتائج البحث.

٣-مثال لتقييم البحوث الاجتماعية

٤-إزاحة الغموض عن العمل الميداني.

الفصل السادس
تقييم البحث السوسيولوجي (*)

١- المقدمة:

البحث العلمي الاجتماعي عملية مركبة تتأسس على العلاقة الجدلية بين القيم الاجتماعية التي يحملها الباحث الاجتماعي، والنظرية الاجتماعية التي ينطلق منها لرؤية الواقع الاجتماعي وفهمه، وأخيراً البيانات الأمبيريقية التي يقوم بجمعها من الواقع المادي الاجتماعي. ونحن نجد أن مختلف علماء الاجتماع قد يتناولون مجتمعاً واحداً بعينه كموضوع لبحوثهم ودراساتهم، إلا أنهم ينطلقون في هذه البحوث والدراسات من منطلقات نظرية متباينة تدفعهم إلى الاهتمام بموضوعات وقضايا وظواهر متباينة أيضاً، وتجعلهم في النهاية ينتهون إلى نتائج قد تكون متعارضة ومتقابلة إلى أقصى حد .

ولتوضيح هذه الفكرة سنأخذ مثالاً لدراسة قرية مكسيكية تعرف باسم تيبوزلان قام بإجرائها روبرت ريد فيلد Robert Redfield والتي جاءت تحت عنوان المجتمع الشعبي Folk Society وقد تمت هذه الدراسة في الثلاثينيات من القرن العشرين المنصرم. أما الدراسة الثانية التي أجريت على ذات القرية المكسيكية فقد قام بها أوسكار لويس Oscar Lewies وجاءت تحت عنوان "الحياة في قرية مكسيكية" في عام ١٩٤٩ . وعند قراءة الدراستين سنكتشف بداية كما لو أنهما قد أجريتها على مجتمعين مختلفين تمام الاختلاف بالرغم من أن الدراستين كانتا على قرية واحدة .

(*) Murray Marison, Methods in Sociology, Long man, London and New York, 1986, P.P. 57 – 66.

إن كلاً من ريد فيلد، ولويس قد انطلق من منطلقات نظرية مغايرة تماماً لتلك التي انطلق منها الآخر في رؤية مجتمع القرية الواحدة وفهمه. كما يحمل كل منهما في ذاته قيماً اجتماعية مختلفة عما يحمله الآخر، هذا فضلاً عن اختلاف نوعية وبنية البحث العلمي الاجتماعي لدى كل منهما. ولكن هذا الاختلاف بينهما لا يجب أن يدفعنا إلى تقرير أن أحدهما على صواب والآخر قد جانبه الصواب. ويعني هذا ضرورة أن نمتلك آلية فعالة ومعايير ومحكات موضوعية يمكن الاعتماد عليها في تقويم البحث العلمي الاجتماعي، وبيان التأثيرات المتنوعة التي تتداخل وتتفاعل معاً ومن ثم تؤثر في مسار البحث وأساليبه ونتائجه. وبداية يمكن أن نحدد خمسة عناصر تشكل في مجموعها المكونات الأساسية للبحث العلمي الاجتماعي وهذه المكونات أو العناصر هي: النظرية والاجتماعية، والفروض العلمية، والإجراءات المنهجية، والعمل الميداني والشكل التوضيحي التالي يوضح هذه العناصر ويكشف عن العلاقات الجدلية فيما بينها مع ملاحظة أن هذا النموذج ينطبق بدرجة كبيرة على البحوث الاجتماعية ذات الطابع الكمي.

الإطار النظري والمفاهيمي للبحث العلمي الاجتماعي

- النظرية الاجتماعية
- الافتراضات والمسلمات النظرية الأساسية حول طبيعة الواقع الاجتماعي، والإنسان وقدراته، المتغيرات السببية والتفسيرية، ووحدة الدراسة والتحليل .
- المفاهيم المستخدمة كفئات تحليلية لفهم الظاهرة موضوع البحث

الفروض العلمية

علاقة محتملة بين متغيرين أو أكثر ولم يتم التحقق بعد من وجود هذه العلاقة، وبيان نوعية هذه العلاقة

النتائج

معالجة البيانات والمعلومات – التصنيف – التنظيم –الجدولة – المعالجات الإحصائية – التأويل والتفسير

الإجراءات المنهجية للبحث:

- تحديد الأساليب البحثية المستخدمة : كشفي– وصفي– تجريبي– مقارن
- التعريف الإجرائي المباشر للمفاهيم كما تبدو في الواقع .
- تحديد المجال الجغرافي للبحث .
- تحديد مجتمع البحث واختيار العينة
- تحديد وصياغة الأدوات البحثية المستخدمة لجمع البيانات والمعلومات

العمل الميداني

عملية جمع البيانات والمعلومات اللازمة للتحقق من الفروض أو الإجابة على تساؤلات البحث .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ما يفعله علماء الاجتماع بالفعل قد يكون شيئاً مختلفاً وبعيداً إلى حد ما عن هذا النموذج والشكل التوضيحي السابق، إلا أن ما يجب التأكيد عليه هنا أن عملية إنتاج البحث العلمي الاجتماعي وكتابة تقرير البحث وإخراجه النهائي يقترب إلى حد كبير من الشكل السابق، مع ملاحظة أن مسار البحث الاجتماعي سيكون مختلفاً حتماً بين من يهتمون بدراسة الوحدات الاجتماعية الكبرى أو مجتمع بكامله، ومن يهتمون بدراسة الوحدات الاجتماعية الصغرى أو ظاهرات اجتماعية نوعية ومحددة. ففي علم اجتماع الوحدات الكبرى ستكون النظرية الاجتماعية هي نقطة البداية والانطلاق لرؤية الواقع الاجتماعي وفهمه وإلى العمل الميداني لنعود مرة ثانية بعدها إلى النظرية. أما في علم اجتماع الوحدات الصغرى فإننا سنعمل على صياغة وتطوير تصور نظري في ضوء ما ستسفر عنه الدراسة الميدانية. ولكن في الحالتين يمكننا أن نعكف على تحليل وفهم العناصر الأساسية لعملية البحث العلم الاجتماعي .

يتأثر محتوى البحث العلمي الاجتماعي في كليته وشموله وبدرجة كبيرة بالتوجهات النظرية لعالم الاجتماع أو الباحث الاجتماعي وباهتماماته. ولتدليل على هذا الحكم لدينا بحثين اجتماعيين تم إجرائهما على قرية مكسيكية واحدة ويفصل بين البحثين عقد من الزمان أي عشر سنوات كاملة، إلا أننا سنجد أن كلاً من البحثين قد انتهى إلى نتائج مغايرة تماماً لما انتهى إليه البحث الآخر. وبالإمكان بيان هذا التعارض والاختلاف بين نتائج البحثين على النحو التالي :

بينما انتهى ريد فيلد Redfield إلى أن مجتمع قرية تيبوزلان المكسيكية يتسم بقدر عال من التجانس والترابط البنائي والتساند الوظيفي، وبوجود درجة عالية من التكامل والاندماج الاجتماعي والتوحد بين أفراده، وهو مجتمع تسوده حالة فريدة من التوازن والاستقرار؛ فإن أوسكار لويس O. Lewis انتهى من بحثه لذات القرية إلى أنها تمثل مجتمعاً يتسم بغلبة الطابع الفردي الذي يمتد ليشمل الأفراد في علاقاتهم وتنظيمات هذا المجتمع ومؤسساته، وهو مجتمع

يفتقد لروح التعاون والتكامل وتشيع فيه روح الفرقة والانقسام والصراعات والأحقاد المتبادلة والإحساس بالخوف وفقدان الأمان وانعدام الثقة والتفتت، وإلى حد أن أفراده يشكلون جُزراً منعزلة . إن الاختلاف والتعارض بين نتائج الدراستين واضح بدرجة كافية ولا يمكن إنكاره بحال، وليس بالإمكان رد هذا الاختلاف والتعارض إلى التحولات والتغيرات التي من الممكن أن تكون قد طرأت على مجتمع القرية خلال العشر سنوات التي تشكل الفاصل الزمني بين الدراستين، كما لا يمكن إرجاعه أيضاً إلى تفرد البحث الذي قام به أوسكار لويس واعتماده على فريق متميز من الباحثين الاجتماعيين، واعتماده على مراجع ومصادر علمية حديثة ومتنوعة. في تقديري أن هذه الاختلافات يمكن إرجاعها فحسب إلى تباين التوجهات والمنطلقات النظرية التي انطلق منها وتبناها كل من ريد فيلد ولويس. وهذه التوجهات النظرية هي التي حددت وشكلت الإطار النظري الحاكم لرؤية كل منهما لمجتمع القرية، وأثرت بدورها على عملية البحث الاجتماعي ومساره، وعلى اختيار وجمع البيانات والمعلومات، وعلى كيفية التعامل مع هذه البيانات والمعلومات، وأثرت بالضرورة على تفسيرها أو تأويلها . لقد كان المتغير الأساسي عند ريد فيلد في وصفه لمجتمع القرية هو المتصل الريفي / الحضري Continuum ، ومن ثم كان اهتمامه يتركز على عوامل الاندماج والتكامل والتعاون والتوازن والاستمرار والاستقرار بينما تجاهل ما ينطوي عليه الواقع الاجتماعي لمجتمع القرية من انقسامات وتباينات وأشكال من التمايز والتفاوت الاقتصادي الاجتماعي، وما يحفل به هذا الواقع من وقائع عنف هيكلية، وقسوة، وفقر، ومرض، ومعاناة. وغياب للعدل الاجتماعي، وصراعات اجتماعية وسياسية.

وبناء على التحليل المتقدم، فنحن نتوقع ، وكما أشرنا سلفاً، أن مسار البحث العلمي الاجتماعي، وبصفة خاصة نقطة البداية والانطلاق في البحث سوف تكون مختلفة بالقطع بين من يستغرقون في بحث ودراسة الوحدات

الاجتماعية الكبرى والذين سيتسلحون بداية بنظرية اجتماعية بعينها تقودهم في صياغة الفروض والإجراءات المنهجية والعمل الميداني ووصولاً إلى تأويل نتائج البحث بالعودة ثانية إلى النظرية الاجتماعية. أما الفريق الثاني الذي يستغرق في بحث ودراسة الوحدات الصغرى فإنهم سيعملون على تطوير نظرية اجتماعية صغرى يتم صياغتها من عملهم الميداني وما ينتهون إليه. وفي الحالتين يمكن أن نتبين ونحدد العناصر الأساسية لعملية البحث العلمي الاجتماعي على النحو التالي :

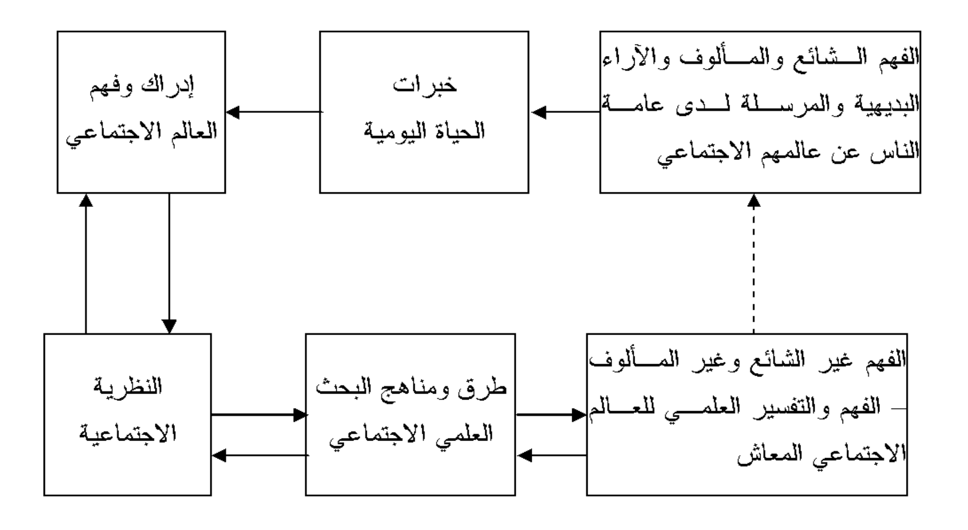
٢- عناصر عملية البحث العلمي الاجتماعي

The elements of social research process

أ- النظرية الاجتماعية Social Theory

في البحث العلمي الاجتماعي يواجه الباحث بنظريات اجتماعية عامة أو كبرى ترى كل منها أنها تفسر كل ظواهر الحياة الاجتماعية في كليتها وشمولها، فضلاً عن وجود نظريات نوعية أو صغرى تنطوي عليها هذه النظريات الكبرى، وهي نظريات تفسر ظواهر اجتماعية بعينها كالجريمة والعنف والبطالة وغيرها ... هنا نجد النظرية الوظيفية في صياغتها الكلاسيكية أو المحدثة، والماركسية، ونظريات الفعل الاجتماعي، ونظريات الصراع، والأثنوميثودولوجي، والتطورية العضوية وغيرها ...، أو تفريعات عن هذه النظريات، أو محاولات لصياغة تصورات وأطر نظرية للجمع بين هذه النظريات والتوفيق فيما بينها برغم تعارضها وتقابلها . وتمدنا النظرية الاجتماعية بكيفيات وأطر نظرية تمكننا من فهم العالم الاجتماعي وتفسيره، وهذا الفهم والتفسير العلمي يتجاوز بالضرورة الفهم الشائع والمألوف والآراء المرسلة والبديهية التي يحملها عامة الناس عن عالمهم الاجتماعي. كما تمدنا مناهج البحث العلمي الاجتماعي المستخدمة في بحث وتقصي الظواهر الاجتماعية بالتفسيرات العلمية الموضوعية للعالم الاجتماعي الذي نعيشه، وهذا

التفسير قد يكون غير مكتمل، وقـــد يكـــون أكثـــر اكتمـــالاً، إلا أنـــه فـــي الحـــالتين يتجاوز بالفعل التفسيرات التي تزودنا بهـــا خبـــرات الحيـــاة اليوميـــة فـــي واقعنـــا المعاش. والشكل التوضيحي التالي يعالج هذه القضية .



النظرية الاجتماعية إذن هي كيفيات لفهم وتفسير المجتمع، والمنهج العلمي هو طريقة وكيفيات للبحث في المجتمع الإنساني وظواهره، ويبقى بعد ذلك الكيفيات التي يتم من خلالها استخدام وتوظيف المعارف والمعلومات المكتسبة عن النظرية والبحث الاجتماعيين في رسم السياسات الاجتماعية وبعبارة أخرى إن الهدف هو إنتاج معرفة علمية اجتماعية قابلة للاستخدام الاجتماعي .

وتنطوي النظرية الاجتماعية على افتراضات ومسلمات أساسية تشكل في مجموعها إطاراً موجهاً وضابطاً لمسار عملية البحث العلمي الاجتماعي منذ اللحظة الأولى التي نفكر فيها لاختيار قضايا وموضوعات ومشكلات بعينها كمادة للبحث وحتى الانتهاء من كتابة تقرير البحث وعرض نتائجه وتقديم توصياته التي يتم الاسترشاد بها في التعامل مع الواقع الاجتماعي. إن النظرية الاجتماعية تحدد لنا نوعية البيانات والوقائع التي يتعين تركيز الانتباه عليها أو جمعها، ثم توجهنا في عملية تنظيم وتصنيف البيانات والوقائع وتحدد لنا ما هو

رئيسي وما هو فرعي أو ثانوي، ومـــا يتعـــين علينـــا أن نلاحظـــه ونـــسجله. كمـــا توجهنا بداية فـــي عمليـــة صـــياغة الفـــروض التـــي نـــسعى لاختبـــار صـــدقها أو التساؤلات التي نحاول الإجابة عنها في مسار البحث .

ويشمل هذا العنصر من البحث تحديـــدًا للمفـــاهيم الأساســـية المـــستخدمة فـــي البحث وتقديم تعريف لها يتسم بالدقة والتحديد لأنـــه ســـيترتب عليـــه تحديـــد وحـــدة الدراسة وتحديد أهداف البحث والغرض منه. وبيان الكيفية التـــي يـــتم مـــن خلالهـــا تفسير ظواهر الواقع الاجتماعي .

ب- الفروض Hypotheses

والفرض العلمي هو تعبير عن علاقة محتملـــة بـــين متغيـــرين أو أكثـــر فـــي سياق الظاهرة التي نقوم ببحثهـــا ودراســـتها إنـــه نـــوع مـــن المعرفـــة الظنيـــة أو التخمينية، وهذه الفروض يتعين علينا التحقـــق منهـــا لإثبـــات وجـــود هـــذه العلاقـــة وقوتها أو عدمها، وبيان اتجاه هذه العلاقـــة . وفـــي ســـياق الفـــرض يكـــون لـــدينا متغير أساسي يترتب على حضوره أو غيابه تغيـــرات محتملـــة فـــي متغيـــر آخـــر هو المتغير التابع أو المعتمد وفي بعض البحوث قد يكون لـــدينا أكثـــر مـــن متغيـــر أساسي ومتغيرات أخرى تابعة عديدة .

ج- الإجراءات المنهجية للبحث Operationalism :

ويمثل هذا العنصر المكون المحوري والرئيسي فـــي عمليـــة البحـــث العلمـــي الاجتماعي، لأنه يتضمن تحديد واختيار الاســـتراتيجية العامـــة للبحـــث، والأســـاليب المحددة للعمل الميداني والتي ستتأثر حتمـــاً وبـــشدة بالتوجهـــات النظريـــة للباحـــث، ويتم هنا تحديد المجال البـــشري للبحـــث أو المجتمـــع الأصـــلي للبحـــث، وتحديـــد العينة التي سيتم اختيارها منه وبيان الكيفية المنهجية التي ســـيتم وفقـــاً لهـــا اختيـــار هذه العينة وهذه الكيفية، وأيضاً العينة التي ستختار وفقـــاً لهـــا هـــي التـــي ســـتعين مستقبلاً إمكانية تعميم نتائج البحث لتنسحب علـــى مجتمـــع البحـــث بكاملـــه. وفـــي هذه المرحلة نقوم أيضاً بتعريف المفهومات المستخدمة، ونحـــن نقـــدم هنـــا نـــوعين

من التعريفات الأول نظري مجرد، والتعريف الآخر إجرائي مباشر يحدد لنا وعلى وجه الدقة والتحديد ما الذي يشير إليه هذا المفهوم في الواقع بحيث يمكن ملاحظته وجمع بيانات وملاحظات ووقائع بشأنه. كما سيكون من شأن هذا التحديد تسهيل عمليات جمع البيانات والمعلومات وعمليات القياس. وتتضمن هذه المرحلة أيضاً صياغة وتطوير أدوات جمع البيانات والمعلومات كالاستبيان، والمقابلة، ودليل الملاحظة ...، وغيرها من الأدوات البحثية والتي قد يتطلب البحث استخدام أداة واحدة أو أكثر من أداة في عملية جمع البيانات والوقائع .

د- العمل الميداني Field Work

ويشير هذا العنصر إلى العمل الفعلي لجمع البيانات والمعلومات اللازمة للإجابة على تساؤلات البحث أو للتحقق من الفروض التي تمت صياغتها. ويمكن لهذا العمل أن يتم من خلال قراءة وفحص السجلات والوثائق وكل المواد المكتوبة والمقروءة كالصحف والمجلات والكتب ...، أو مشاهدة مواد إعلامية وإعلانية كالأفلام والمسلسلات التليفزيونية والمسرحيات، أو عن طريق إجراء التجارب والتجريب في مجال بحث الظواهر الاجتماعية، أو عن طريق المسوح الاجتماعية. ويعني هذا تقرير تنوع وتعدد الأساليب والأدوات البحثية المستخدمة في جمع البيانات والمعلومات في البحث العلمي الاجتماعي

هـ- نتائج البحث Results :

يتعين علينا بعد الانتهاء من جمع البيانات والمعلومات إعادة قراءتها وإخضاعها لعمليات التنظيم والتصنيف والتفريغ والجدولة والأساليب الإحصائية البسيطة والمتقدمة، أو تحليل المادة التي جمعت عن طريق المقابلات المباشرة بين الباحث والمبحوثين والتي استغرقت عدة ساعات، وبعد ذلك يتم معالجة البيانات وتأويلها في ضوء النظرية الاجتماعية العامة أو بالنظر إلى افتراضات نظرية محددة .

٣- مثال لتقييم البحوث الاجتماعية:

وفيما يلي نعرض نموذجاً لبحث علمي اعتمد الأسلوب الكمي والتي يمكن اتباعها في تقويم البحوث العلمية الاجتماعية .

عنوان البحث : عمل ذوي الياقات البيضاء White – Collar Work

أجري هذا البحث في عام ١٩٨٢ على العمال الذين لا يشتغلون بأعمال يدوية، أو ما يعرفون اصطلاحاً بذوي الياقات البيضاء. وتتضمن هذه الفئة قطاعاً كبيراً من الموظفين المدنيين، ومشرفي قطاعات الإنتاج، والمهنيين المتخصصين، والمديرين في الإدارات العليا. ويمثل البحث جانباً من اهتمام علم الاجتماع بدراسة العمل، والتنظيمات، والنقابات والاتحادات العمالية والمهنية. وقد ركز الباحثون اهتماماتهم على دراسة خبرة العمل ذاتها. وكانت المتغيرات الأساسية في البحث هي الدخول، والمكافآت، والوضع أو المكانة، والأمان الوظيفي، والتفاعلات الاجتماعية في مجال العمل والترقيات . ويبدو أن فكرة ما يتوقعه الناس من عملهم ترتبط في جانب مهم منها بتوجهاتهم نحو العمل ذاته. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه حتى إجراء هذا البحث لم تكن هناك بحوث سابقة قد تناولت هذا الموضوع قبلاً. وسوف نقوم بتحليل هذا البحث في ضوء المكونات والعناصر الأساسية التي يتضمنها البحث العلمي الاجتماعي والتي عرضنا لها سلفاً .

١- النظرية :

القضية التي لابد من إيضاحها في هذا البحث المشار إليه أن الباحثين لم يذكروا صراحة أنهم يتبنون توجهاً نظرياً بعينه، وعلى الرغم من الطابع الكمي لبحثهم، إلا أنهم ليسوا وظيفيين أو ماركسيين، كما أنهم ليسوا أيضاً من أنصار نظرية الفعل الاجتماعي. ومثلما هو حادث في كثير من بحوث علم الاجتماع المعاصر، فإن الإطار النظري الذي يمكن تبنيه في هذا البحث يتضمن عناصر من نظرية الصراع، كما أن الباحثين أظهروا اهتماماً بإدراكات الأفراد وتوقعاتهم الشخصية بالمعنى التقليدي الذي تطرحه نظرية الفعل الاجتماعي.

وبينما نجد في الكثير من دراسات علم الاجتماع الصناعي اهتماماً مشتركاً لصياغة وتحديد المفهومات، إلا أن الباحثين في هذا البحث ذكروا أن اهتمامهم الأساسي يتمحور حول الكيفيات المتنوعة التي يتم من خلالها اكتساب خبرات العمل وما يرتبط بها من أنماط مختلفة من التوقعات والسلوكيات وردود الأفعال التي تكون متوافقة مع الكيفية التي يرون بها أو من خلالها أوضاعهم الاجتماعية والمهنية.

لقد قررنا بداية، يقول المبحوثون، أن نركز اهتمامنا البحثي على خمسة أنماط من الأهداف والطموحات التي يسعى إلي تحقيقها عدد لا بأس به ممن يشغلون موقعاً وظيفياً محدداً وهي على النحو التالي: الدخل، والأمان الوظيفي، والمكانة الوظيفية والاجتماعية، والعلاقات الاجتماعية، والمكافآت والحوافز التي يحصلون عليها عن أعمال يقومون بإنجازها. وعلي أية حال لقد كنا على وعي تام بالمتغيرات الأخرى المختلفة المؤثرة في الموقف مثل مسائل الضبط والتحكم، وتنوع قدرات المبحوثين وإمكاناتهم وتوظيف واستخدام هذه القدرات والإمكانات.

ثانياً، سوف نتوقع وجود قدر كبير من التنوع والاختلاف في السمات الشخصية للأفراد المبحوثين خاصة تلك المرتبطة بخلفياتهم الاجتماعية، وخبراتهم والتي ستؤثر حتماً على نوعية توجهاتهم نحو العمل ونعني بها الأهداف والطموحات الخمسة التي أشرنا إليها سلفاً وأيضاً توقعات المبحوثين بشأن مستويات تحقق هذه الأهداف.

الفروض:

نشير هنا إلي مثالين لنوعية الفروض التي سعي الباحثون إلى اختبارها والتحقق من صدقها :

الفرض الأول: يذهب إلى أن الخبرة المستمرة بشأن تـدني مـستوى الأهـداف التـي يتوقعها الأفراد، من المحتمل أن تـؤدى إلـى تراجـع وهبـوط مـستوى التوقعـات لديهم.

والفرض الثاني: يذهب إلى أنه عنـد مـستوى أساسـي يمكـن أن يبلغـه الأفـراد الذين لم ترق أهدافهم وطموحاتهم التـي يحققونهـا بالفعـل إلـى المـستوى الـذين كانوا يتوقعونه ويأملون، فإنهم أما أن يسعون إلى تجنـب وتحاشـي هـذه الأهـداف والطموحات، أو يعملون على استبعادها وإلغائهـا حتـى يمكـن التقليـل مـن هـذا التعارض والتناقص الذين ينشأ بين توقعاتهم وآمـالهم وبـين مـا يحـصلون عليـه بالفعل.

٢- الإجراءات المنهجية:

لقد اقترحنا سلفاً أن هذه المرحلة من البحث العلمـي الاجتمـاعي هـي التـي يتم فيها تقرير استراتيجية العمل الميداني. وفـي مـشروع البحـث الـراهن الـذي نتولى تقييمه الآن والذي اعتمد مـدخلاً كميـاً فإننـا نجـد أن حجـم عينـة البحـث وكيفية اختيارها هي من الأمور المهمة التـي يجـب أخـذها فـي الاعتبـار عنـد عملية التقويم التي نقوم بها. ونحن نعلم أن البـاحثين قـد قـرروا أن حـدود بحـثهم أو المجال الجغرافي لبحثهم يتحـدد بالـشركات الـصناعية الواقعـة داخـل دائـرة نصف قطرها ٦٠ ميلاً داخل مدينة كمبـردج. وهـذا المحـيط الجغرافـي يتـضمن مناطق حديثة النمو وتشهد حراكاً عالياً نـسبياً، ومنـاطق أخـرى قديمـة ومـستقرة إلى حد كبير. ونحن نتساءل هل العينة التي تم اختيارها مـن هـذه المنطقـة يمكـن أن تنسحب نتائجها بحيث تعطي صورة عن الشركات الأخـرى الواقعـة فـي وسـط وشمال كمبردج.

لقد تم عقد مقـابلات مـع كـل العـاملين ذوى الياقـات البيـضاء فـي هـذه الشركات، ولهذا الغرض تم إعـداد اسـتمارة مقابلـة قـام بتطبيقهـا العديـد مـن الباحثين الذين أجروا هذه المقابلات والـشكل التـالي يمثـل إعـادة إنتـاج للأسـئلة

التي تتضمنها صحيفة المقابلة المستخدمة. والأسـئلة التـي تمـت صـياغتها علـى نحو معين يضمن المعالجة الكمية لها فيما بعد.

الأسئلة التالية مأخوذة مـن جـدول مواعيـد مقـابلات المـوظفين وقـد قـام الباحثون بقراءتها عليهم خلال المقابلات التي تمت معهم:

عند تصورك ليوم العمل الطبيعي والعادي بالنـسبة لـك وبـالأمس مـثلاً، أو يوم العمل السابق مباشرة:

١ - اذكر لنا عدد الموظفين مـن المـستويات الوظيفيـة الأعلـى الـذين قـابلتهم وتحدثت معهم؟ وما الوقت الذي استغرقته هذه المقابلة ؟

٢ - اذكر لنا عدد الموظفين الذين يخضعون لإدارتك فـي العمـل والـذين قـابلتهم وتحدثت إليهم؟ وما الموقف الذي استغرقته هذه المقابلة ؟

٣ - اذكر لنا عدد الأفراد الآخرين الذين قابلتهم وتحـدثت معهـم؟ والوقـت الـذي استغرقته هذه المقابلة ؟

لقد قمت بإعطائنا الكثير من المعلومـات والبيانـات بـشأن مظـاهر متنوعـة مرتبطة بوظيفتك، ولا يوجد أحد يـستطيع أن يـدعي أن امـتلاك وحيـازة وظيفـة ممتازة كاملة تماما. وكثير من الأفراد يفكـرون فـي الطـرق التـي تمكـنهم مـن تطوير وتحسين وظائفهم. وبعض أشكال واتجاهـات التطـوير والتجويـد يمكـن أن تكون أكثر أهمية مـن غيرهـا. والقـوائم التاليـة توضـح العديـد مـن المظـاهر المختلفة والمتنوعة للوظيفة التي يعتبرها بعض النـاس مهمـة ويجـب أخـذها فـي الاعتبار. إذا كانت هناك أية إمكانية لحدوث تطـوير وتحـسين فـي وظيفتـك ولـو كانت إمكانية محدودة، فأيها بالتحديد تميـل لاختيارهـا ووضـعها موضـع التنفيـذ في عملك، وأيها يليها في الاختيار من حيث الأهمية ؟

العمل الميداني:

يعد إجراء الاتصال ب٧٨ شركة بواسطة الخطابات، ومقابلة مديري هذه الشركات وإجراء مناقشات وحوارات معهم بشأن البحث المزمع تنفيذه، عملاً مهماً وأساسياً قبل البدء في تنفيذ البحث. لقد تم اختيار الشركات وتمت عملية رفع العينة من داخلها وبلغ قوامها ١٩٢٤ مفردة. ويعد هذا العدد كبيراً بالفعل وكانت تكلفة إجراء مقابلات معهم عالية سواء من حيث الجهد المبذول والوقت الذي تتطلبه خاصة إذا علمنا أن كل مقابلة كانت تستغرق ما يقرب من ٣٠ إلى ٤٠ دقيقة، وإذا أضفنا إلى ذلك ما يحتاجه كل مبحوث لمراجعة أسئلة المقابلة المرتبطة بالعمل الذي يقوم به.

النتائج:

إن النتائج الفعلية لهذه الدراسة لا تهمنا بشكل مباشر، وإنما الذي يهمنا هنا هو المنهجية المستخدمة في تحليل هذه النتائج. فالطابع الكمي للبحث كان واضحاً تماماً من استخدام جداول مواعيد المقابلات. والذي حاول الباحثون من خلاله قياس أنماط التفاعل في مجال العمل، والعلاقات مع الموظفين، والأمان الوظيفي والشعور بالرضا عن العمل ... وغيرها وهي غالباً ما تخضع للمنهج الإحصائي وأساليبه وتحليلاته. وهو منهج يسمح للباحث أن يقيم ويؤسس ارتباط متنوعة بين عدد من المتغيرات في نفس الوقت. ويسمح له بأن يري في الوقت ذاته التفاعل بين بعضها البعض. وبمعني آخر أن هذه المنهجية البحثية تجعل الباحث قادراً على الإمساك والإحاطة بأحد جوانب الحقيقة المرتبطة بالرضا الوظيفي وأن يتم التعبير عن ذلك كله بأسلوب رياضي خالص.

الفروض والنظرية:

في القسم الأخير من البحث والخاص بالاستخلاصات الأساسية لبحث ذوى الياقات البيضاء، نجد أن الباحثين كانوا قادرين على بيان أثر كل من البناء الاجتماعي والموقف الاجتماعي بكل مشتملاتهما على الكيفية التي يعي ويدرك بها الأفراد أوضاعهم الخاصة. وهذا يؤكد على أنه من الضروري

النظر إلى الأفراد من خلال السياقات الاجتماعية التي يعيشون فيها وينتمون إليها.

أن ما يظهر من تحليلنا لهذه التوقعات أن الأغلبية الكبيرة من المبحوثين كانوا، مع الأخذ في الاعتبار مستويات المكافآت التي كانوا يتوقعون الحصول عليها، رأت أن هذه التوقعات كانت تتعارض مع ما حصلوا عليه بالفعل. والفرق الموجود هنا يبدو من خلال ما يعتقده الآخرون أنهم حصلوا على أكثر مما كانوا يتوقعونه، وليس كنتيجة للمقارنة بمجموعات أخرى مختلفة معهم في نفس المكان.

ولقد اكتملت دائرة البحث من خلال مناقشتهم للتطبيقات المحتملة لبحثهم من خلال العلاقة بالنظرية بوجه عام وعلى وجه الخصوص بالإشارة إلى البناء الطبقي، والمعلومات المتعلقة بالطبقة أو إعادة إنتاج الطبقة ذاتها. أن بحث عمل ذوى الياقات البيضاء هو نمط من البحوث الاجتماعية التي تنغمس بكل قوتها في التحليلات الكمية والمقاييس. وبينما تم تجاهل دور الفرد فإن هناك ميلاً للاهتمام بالوحدات الاجتماعية الكبرى والبناء الاجتماعي .

٤- إزاحة الغموض عن العمل الميداني:

يوضح المثال الذي عرضنا له كيفية الكشف عن غموض البحث العلمي الاجتماعي. وذلك بتحليل المناهج والأساليب البحثية التي يستخدمها الباحثون، وتقييم كيفية أدائهم ومدى صحة وكفاءة بحثهم. إن النموذج الذي قدمناه هنا كان الغرض منه ليس إصدار حكم خاص على هذا البحث بقدر ما كان الهدف هو استخدامه كنموذج ومثال للخطوات التي يتعين علينا أن نسلكها لإصدار مثل هذا الحكم على أي بحث يتم تناوله بالمناقشة والتقويم. ومن الممكن اقتراح ٥ خمسة خطوات أساسية يمكن من خلالها إصدار حكم على أي بحث علمي اجتماعي .

١- ما هو التاريخ الطبيعي للبحث؟ حدد الأهداف الأساسية والأغراض الأصلية للبحث؟ وكيف تطور البحث بمرور الوقت؟ وما دور العمل الميداني، والعلاقات في العمل الميداني؟

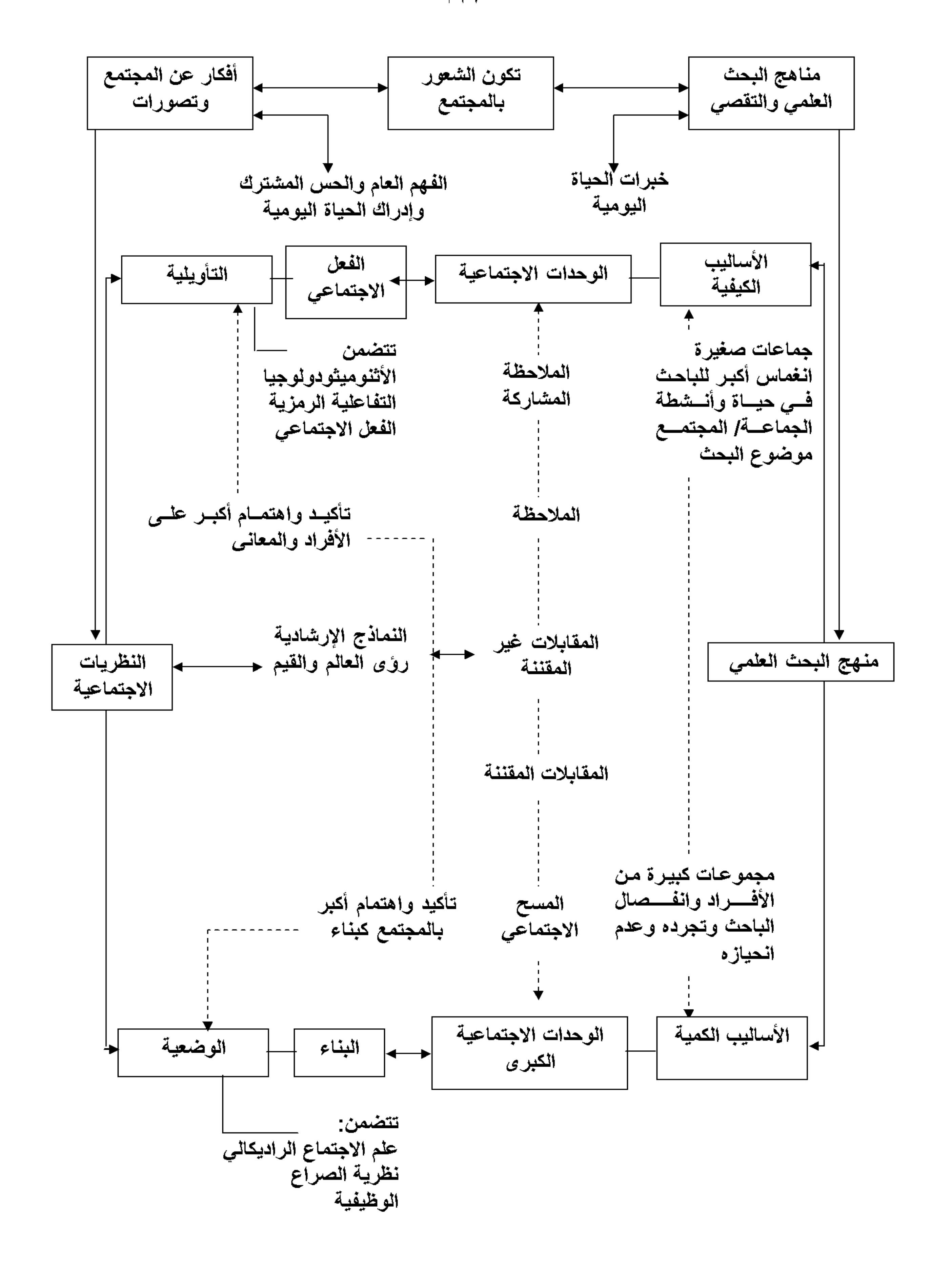
٢- ما البيانات التي جمعها؟ وما الأساليب التي جمعت بها هذه البيانات (الملاحظات بأنواعها- المقابلات- المحادثات- الوثائق والسجلات ..)؟ وكيف تم حفظ الملاحظات وتسجيلها؟ وهل هناك شرائط تم تسجيليها؟

٣- كيف تمت عملية رفع العينة واختيارها هل تم بالصدفة أم في ضوء نظرية معينة؟

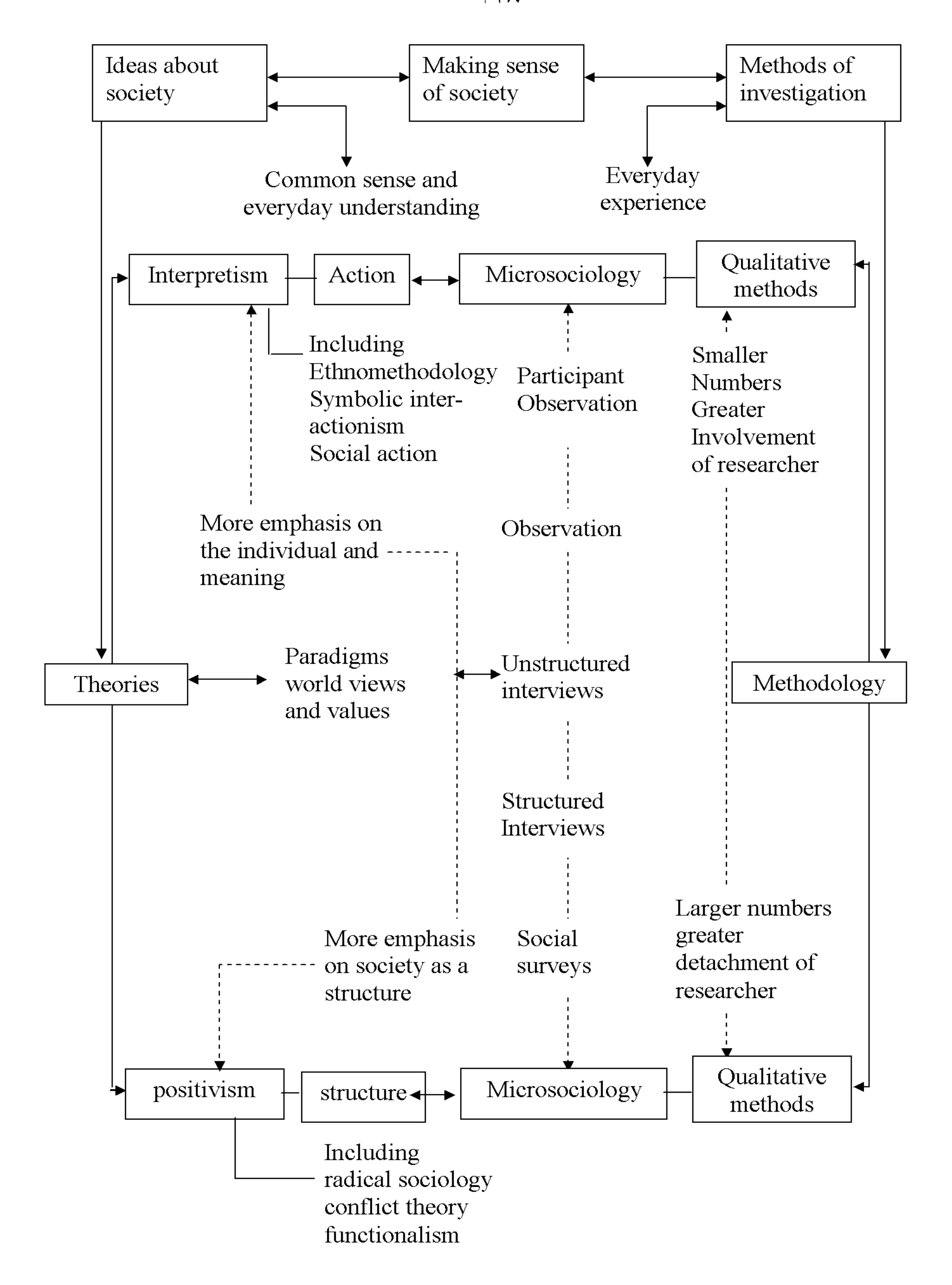
٤- كيف تمت عملية تحليل البيانات؟ وكيف تمت عملية تلخيص البيانات وعرضها في تقرير البحث؟ وعلى أي أساسي تم اختيار هذه البيانات وعرضها ؟

٥- ما النتائج التي تم عرضها؟ هنا يتعين علينا أن نبين إلى أي مدى كان الباحث موضوعياً في تقريره ونعرض هنا للنظرية الاجتماعية التي انطلق البحث وما هي المفاهيم والفئات التحليلية المستخدمة؟ وما الذي يتعين عليه اكتشافه من البيانات التي تم الحصول عليها؟ وما هي المفاهيم التي كانت موجودة قبلاً؟ ما هي المفاهيم المشتركة؟ وما هي المفاهيم النظرية المجردة؟ وما هي النظريات والفروض التي تم بناؤها؟

ومن الضروري أن نقيم مدى التطابق بين البيانات والنتائج التي وصل إليها الباحث، وتحليل كل المفاهيم المستخدمة في البحث، واختيار عينة البحث والفروض المقدمة، والأساليب البحثية وكيفية اختيار عينة البحث وحدود وإمكانية تعميم النتائج التي انتهي إليها على مجتمع البحث بكامله.



مناهج البحث العلمي والتقصي
تكون الشعور بالمجتمع
أفكار عن المجتمع وتصورات
خبرات الحياة اليومية
الفهم العام والحس المشترك وإدراك الحياة اليومية
الأساليب الكيفية
الوحدات الاجتماعية
الفعل الاجتماعي
التأويلية
جماعات صغيرة
انغماس أكبر للباحث في حياة وأنشطة الجماعة/ المجتمع موضوع البحث
الملاحظة المشاركة
تتضمن
الأثنوميثودولوجيا
التفاعلية الرمزية
الفعل الاجتماعي
تأكيد واهتمام أكبر على الأفراد والمعانى
الملاحظة
النماذج الإرشادية
رؤى العالم والقيم
المقابلات غير المقننة
النظريات الاجتماعية
منهج البحث العلمي
المقابلات المقننة
مجموعات كبيرة من الأفراد وانفصال الباحث وتجرده وعدم انحيازه
المسح الاجتماعي
تأكيد واهتمام أكبر بالمجتمع كبناء
الأساليب الكمية
الوحدات الاجتماعية الكبرى
البناء
الوضعية
تتضمن:
علم الاجتماع الراديكالي
نظرية الصراع
الوظيفية



Ideas about society
Making sense of society
Methods of investigation
Common sense and everyday understanding
Everyday experience
Interpretism
Action
Microsociology
Qualitative methods
Including
Ethnomethodology
Symbolic inter-actionism
Social action
Participant Observation
Smaller Numbers Greater Involvement of researcher
More emphasis on the individual and meaning
Observation
Theories
Paradigms world views and values
Unstructured interviews
Methodology
Structured Interviews
More emphasis on society as a structure
Social surveys
Larger numbers greater detachment of researcher
positivism
structure
Microsociology
Qualitative methods
Including
radical sociology
conflict theory
functionalism

الفصل السابع
البحث الاجتماعي والقيم والموضوعية

١- الوقائع والقيم .

٢- الموضوعية العلمية.

٣- الوقائع الاجتماعية والمعاني الشائعة والمتداولة.

٤- التحرر من القيم والحياد في البحث العلمي:

أ- ماركس والماركسية.

ب- ماكس فيبر والنموذج المثالي.

ج- هل بإمكان العلم أن يكون موضوعياً.

د- الثقافة والمجتمع العلمي.

ه- السياسة والتطبيقات.

الفصل السابع
البحث الاجتماعي والقيم الموضوعية(*)

١- الوقائع والقيم:

تضعنا مسألة تناول المنهج العلمي في بحوث علم الاجتماع وبشكل مباشر في مواجهة قضية الموضوعية والانحياز والحياد في البحث الاجتماعي. وقد ارتأى البعض ممن تناولوا هذه المسألة أن من شأنها أن تطرح وتثير وعلى نحو جاد مسألة علمية علم الاجتماع، بمعنى هل يعد علم الاجتماع علماً بالفعل أم أنه غير ذلك؟ وافتراضنا الأساسي هنا أننا نرى أنه لا علم الاجتماع، ولا حتى العلوم الطبيعية يمكن اعتبارها جميعها علوماً متحررة من القيم أي علوماً حيادية. إذا لا حياد في العلم على الإطلاق. وعلم الاجتماع الذي يعالج الظواهر الاجتماعية التي تنتج من اجتماع الناس وتفاعلهم مع بعضهم البعض، هو علم يمس بشكل مباشر وصريح مصالح وأهداف هؤلاء الناس، وهي بالقطع مصالح متقابلة ومتناقضة، كما أن الناس لديهم دوافعهم وأسبابهم للفعل الاجتماعي. وبالنظر إلي ذلك كله فإن علم الاجتماع ليس علماً حيادياً وأنه يهتم بدرجة أساسية بالقيم.

٢- الموضوعية العلمية **Scientific Objectivity**

يمكن لكثير من العلوم الطبيعية أن تواجه السقوط والفشل إذا ما كانت المقاييس التي تستخدمها غير دقيقة، وغير محكمة، أو إذا كانت النماذج التي تقدمها، ووصفها للواقع لا يتسمان بالابتكار والإبداع والموضوعية، أو إذا ما كان يتم تقديمها وعرضها بطرق حيادية. والطرق والعلميات العلمية يتم تفعليها من خلال الانسجام والتناغم الذي يتحقق بين النماذج التي تنتجها، والواقع الفعلي الذي تقوم ببحثه ودراسته. فعلى سبيل المثال. نحن نجد أن قوانين

---

* Marray Morison M.A, Methods in Sociology, Longman Inc., New Yark,1989 PP.67-73

المغناطيسية، أو وصف بنية وتكوين قلب الإنسان، هـذه القـوانين، وهـذه المعرفـة تتم عملية صياغتها على نحو يتوافق مع ما اكتشفه الباحـث أو العـالم بالفعـل وفـي الواقع، وليس وفق رغبات الباحث وأهوائه الذاتية، أو علـى النحـو الـذي يجـب أن يكون عليه هذا الواقع من وجهة نظرة الذاتيـة والشخـصية. وتتميـز النتـائج التـي ينتهي إليها العلماء والباحثين بقابليتها للتحقق والاختبار مـن قبـل علمـاء وبـاحثين آخرين يمكنهم أجراء نفس التجارب في ظل ذات الشروط، ومـن ثـم يـصلون إلـي نتائج نفسها. ويساعد مجتمع العلمـاء كثيـراً علـى تـوافر الظـروف التـي تتـيح إمكانية التأكد مـن تحقـق الموضـوعية اللازمـة والـضرورية لمنـاهج البحـث العلمي. والعلم إنما يتأسس في الحقيقة على الوقائع والأحـداث الحـسية مـن جهـة، والقوانين الحاكمة لحركتها وعلاقاتها الارتباطية من جهة ثانية.

٣- الوقائع الاجتماعية والمعاني الشائعة والمتداولة:

ارتأى دور كايم Darkheim أن المجتمـع الإنـساني يتكـون مـن الوقـائع والظواهر الاجتماعية التي تنتج من اجتماع البشر وتفاعلهم مـع بعـضهم الـبعض، وهؤلاء البشر هم في الحقيقة كائنات واعية ومدركـة. وهـذه الظـواهر الاجتماعيـة ذات وجود موضوعي مستقل عن وعى الأفـراد وإرداتهـم. فهـي أشـياء خارجـة عنهم ومن ثم يمكن ملاحظاتها وبحثها بنفس الكيفيـة التـي تبحـث بهـا الظـواهر الطبيعية التي تنتج من تفاعل ظواهر الطبيعـة الحيـة أو الجامـدة. إلا أنـه وعلـى الرغم من ذلك، فثمة فارق جـوهري وكيفـي بـين القـوانين التـي تحكـم حركـة الظواهر الطبيعية، وتلك التي تحكم حركـة الظـواهر الاجتماعيـة. فـالأولي نتـاج لتفاعل ظواهر الطبيعة وهى غير واعيـة وغيـر مدركـة، لا عقـل لهـا ولا إرادة، أما الثانية فهي نتاج لتفاعل البشر وهم كانت واعية ومدركـة. ويرتـب علـى ذلـك أنه إذا كان من الممكن للعلوم الاجتماعية أن تحاكى العلـوم الطبيعيـة فـي النظـر إلي الظواهر الاجتماعية، وفي المنهج العلمـي، والأسـاليب البحثيـة العلميـة ......، فإن على العلوم الاجتماعية أن تواجه وبشكل دائم وأبـدى الـصعوبات الناتجـة عـن

أن موضوعاتها ومادتها البحثية هي البشر الكائنات الواعيـة المدركـة التـي تمتلـك العقل وحرية الإرادة.

يمتلك الناس أنساقاً من القـيم والمعتقـدات التـي تحكـم وتـضبط سـلوكياتهم وتصرفاتهم، وتحدد لهم من الناحية الأخلاقية ما هو الـصواب ومـا هـو الخطـأ. وهذه القيم والمعتقدات تنشأ وتنمو فـي مجـرى حيـاتهم اليوميـة ويـتم اسـتدخالها وتمثلها خلال عمليات التنـشئة والتطبيـع الاجتمـاعي التـي يخـضعون لهـا منـذ ولادتهم وفي مجرى حياتهم. ولا يمكن لعلماء الاجتماع أن يتجـاهلوا هـذا المكـون المهم من مكونات الاجتماع الإنساني، والذي من الممكـن أن يـأتي تحـت عنـوان المعاني أو الأيديولوجيا، ولا يزال يوجد جدل كبير بـين المـشتغلين بعلـم الاجتمـاع بخصوص القياس الموضوعي لأنساق القـيم والاتجاهـات التـي تمـارس تأثيرهـا في ضبط وتوجيه سلوك البشر وتصرفاتهم.

٤- التحرر من القيم والحياد في البحث العلمي:

توجد طرق متنوعة ومتباينة يمكن مـن خلالهـا أن يحقـق علمـاء الاجتمـاع مبدأ الموضوعية فـي علمهـم واتجـاههم. فعنـد دور كـايم، كانـت الموضـوعية متحققة في الوقائع والظواهر الاجتماعية التـي تتـسم بوجودهـا كأشـياء خارجيـة لها وجود موضوعي مستقل عن وعـي الأفـراد وإرادتهـم. ويتعـين علـى العـالم بحثها ودراستها واكتشاف القوانين الحاكمة لهـا، والتحقـق منهـا بطريقـة حياديـة من خلال الدراسة العلمية الدقيقة والمنهجية. وتعد دراسـته عـن ظـاهرة الانتحـار مثالاً كلاسيكيا في هذا المجال. فالنتائج المتسقة التي انتهي إليها والتـي تـشير إلـي وجود علاقة ارتباطية بين درجـة ونوعيـة التكامـل والتـضامن الاجتمـاعي مـن جهة، ومعدلات الانتحار من جهـة ثانيـة، كانـت محاولـة للتأكيـد علـى الطـابع والطريقة الموضوعية التي يمكن من خلالها دراسة الظواهر الاجتماعية،

ومن الممكن أن نحدد مدخلين متقابلين بشأن قضية الحياد والموضوعية في البحث العلمي الاجتماعي لدى كل من كارل ماركس marx ، وماكس فيبر weber.

أ- ماركس والماركسية Marx and Marxism

من وجهة النظر الماركسية، تعتبر العلاقات الاقتصادية في المجتمع وقائع وحقائق موضوعية، أعني لها وجود موضوعي مستقل عن وعى الأفراد وارداتهم. ولقد وجد داخل كل المجتمعات التاريخية والمعاصرة، من يمتلكون وسائل إنتاج الثروة المادية، وسائل وأدوات الإنتاج، كملاك الأراضي وأصحاب المصانع، والآخرين الذين لا يتملكون شيئاً سوى قوة عملهم التي يقومون ببيعها خلال عملية العمل للفريق الأول. وهذا الأساس، العلاقة بوسائل و أدوات العمل أو الإنتاج، هو حقيقة وواقع موضوعي، وهو يقوم بدرجة كبيرة بصياغة وتحديد كل مظاهر الحياة الأخرى داخل المجتمع. وذهب ماركس إلى أن بعض المفكرين كانوا قادرين بالفعل على أدارك وفهم هذه العلاقة وأن يكتشفوا و يحددوا الأسباب الحقيقية الفاعلة في البناء الاجتماعي للمجتمع الإنساني وتحولاته التاريخية. وهذه الرؤية من الممكن أن تكون صحيحة وموضوعية من خلال الأيديولوجيا، ومن ثم لا تكون مشوهة أو محرفة للواقع. والطبقة العاملة تكون في مرحلة معينة من تطورها عاجزة بالفعل عن رؤية وإدراك وفهم الواقع الموضوعي، وجوهر ما تتعرض له من استغلال في سياق علاقات الإنتاج الرأسمالية، وذلك لأن تصورات ومعتقدات وقيم الطبقة العاملة تكون متأثرة بدرجة كبيرة بما تشيعه الطبقة الرأسمالية وترسخه في المجتمع من تصورات وقيم من خلال سيطرتها على أجهزة الدولة الأيديولوجية التي تقوم بإنتاج وإعادة إنتاج أيديولوجيا البرجوازية وتقوم بعمليات تلقنيها وترسيخها لدى الطبقات الأخرى في المجتمع. أن واقع الزيف والتشويه الأيديولوجي، وكذلك البناء الاجتماعي الرأسمالي الذي تدعمه أيديولوجيا البرجوازية وتعمل على

استمراريته، كل ذلك سيصبح عرضة للتغيير والتحـول مـن خـلال تأسـيس علـم صحيح عن المجتمع.

ب- ماكس فيبر والنموذج المثالي: .Weber and The ideal Type

يختلف تصور ماكس فيبر عن التصور الذي تبناه كـارل مـاركس، حيـث رفـض فيبر اعتبار أن العوامل الاقتصادية وحدها هـي التـي تـشكل الأسـاس والجـوهر الحقيقي المحدد للواقـع الاجتمـاعي، وأن هـذا العوامـل لهـا وجـود موضـوعي مستقل. وبينما تجاهل فيبر أهمية البناء الاجتماعي، فـإن مـدخل الفعـل الاجتمـاعي لدية يتأسس على درجة الوعي بتفسيرات وتـأويلات البـشر. إن فيبـر لـم يـدرك العالم الاجتماعي كوقائع موضوعية تتمتع بالدوام والصيرورة، وإنمـا هـذا العـالم، من وجهة نظره، وفي جانب مهـم منـه، يعتمـد بـل ويتأسـس علـى الادراكـات والمعاني الذاتية للأفراد الفاعلين الاجتماعين.

وعلى الرغم من تأكيد فيبر على الجانـب والبعـد الـذاتي للمجتمـع إلا أنـه يؤكد وبقوة على إمكانية قيـام علـم الاجتمـاع باسـتخدام منهجيـة تتـسم بالحيـاد والموضوعية، وتتمحور هذه الإمكانيـة حـول مفهومـة للنمـوذج المثـالي " Ideal Type" . وهذا النموذج يمكـن اسـتخدمه بطريقـة موضـوعية فقـط مـن خـلال اختباره من قبل عالم الاجتماع الذي يستخدمه علـى أنـه أداة لفهـم وإدراك العـالم الاجتماعي الـذاتي. إن عـالم الاجتمـاع لا يقـف عـن حـدود الوصـف البـسيط للظواهر والسببية أو العلِّية والتأثير على نحو ما هو حـادث فـي العلـوم الطبيعيـة، وإنما المطلوب منه أن يحاول الإجابة على السؤال التالي: لمـاذا يفعـل البـشر هـذه الأشياء؟ . إن المرء يحاول، بل ويجب أن يـضع نفـسه مكـان الأفـراد الآخـرين ويحاول أن يخبر أهدافهم وأغراضهم وقيمهم الحاكمـة. وعلـى هـذا النحـو يمكـن أن نقيم النموذج المثالي ونبدعه أو نخلقـه بالنـسبة لأي مجتمـع أو نـشاط إنـساني نريد أن نفهمه. ونحن نفعل ذلك فقط، ونقبل النموذج المثـالي بـالنظر إلـي أهـداف البشر وقيمهم ودوافعهم.

وارتأى فيبر أن عالم الاجتماع يمكـن أن يكـون محايـداً، أو متحـرراً مـن القيم في منهجه البحثي. ولكنه يكون منغمساً بكليتـه ومهتمـاً بـالقيم خـلال عمليـة اختيار موضوع البحث وبناء النموذج المثـالي الـذي سيـستخدمه. وعلـى الـرغم من حرصنا الشديد في مسألة المنهج، فإن القيم تبدو حاضرة وواضـحة تمامـاً فـي بحثنا. فالاستنتاجات والاستخلاصات التي ينتهي إليهـا الباحـث تكـون بالـضرورة مشبعه بقيمه الخاصة والذاتية. إن مفاهيم القوة أو الـسلطة وغيرهـا عنـدما نحـاول أن تقدم لها تعريفاً واضحاً ومحدداً، وعندماً نقوم بـذلك فـإن قيمنـا الذاتيـة تكـون حاضرة وبقوة ومنفصلة مع ما نقدمه من تعريف لهذه المفاهيم. ومثـال علـى ذلـك أن التعريف الماركسي لمفهوم القوة والسلطة سـيختلف بالـضرورة عـن التعريـف الليبرالي أو المحافظ لهذا المفهوم.

إن ما يبدو لنا واضحاً وجلياً الآن هو إن فكـرة الحيـاد والتحـرر مـن القـيم في البحث العلمي الاجتماعي فكرة مهمة لا يمكن إنكارها بحـال فـي بحـوث علـم الاجتماع. ولكن هذه القضية يتم تناولها عبر مـدخلين مختلفـين تمامـاً لكـل منهـا وجهة نظره، وهما الاتجاه الماركـسي، واتجـاه الفعـل الاجتمـاعي الـذي أسـسه فيبر. ولكن في الحالتين تتمحور الفكرة حـول موضـوع أساسـي ومهـم لا يمكـن إنكاره أو تجاهله في علم الاجتماع ألا وهو الحياد في البحث الاجتماعي.

ويرتبط مفهوم النموذج المثالي كما طوره مـاكس فيبـر بمحاولاتـه لتأسـيس علم اجتماع متحرر من القيمة أو علم اجتمـاع حيـادي. إن النمـوذج المثـالي هـو نموذج للمجتمع أو لمؤسساته، أو للعلميات الاجتماعية التـي تحـدث داخلـه. وهـو ليس مثالياً بمعنى الوجود الأفضل أو الأكثر أخلاقية، وإنمـا بـالأحرى هـو مفتـاح وأداة للمساعدة في عمليات فهم المجتمع بكـل تعقيداتـه وتـشابكاته. ففـي دراسـاته للبيروقراطية Bureaucracy ، طور فيبـر نموذجـاً مثاليـاً يؤكـد علـى الـسمات الأساسية للبيروقراطية مثـل العقلانيـة، والكفـاءة والإنجـاز، والتنظـيم واعتبرهـا ملامح ضرورية للنظم البيروقراطية. ولم يكـن نموذجـه المثـالي فروضـاُ قابلـة

للاختبار والتحقق، كما لم يكن هذا النموذج المثالي هو المتوسط الحسابي لمجموعة من خصائص وسمات البيروقراطية، وإنما هو نسق من الأفكار الواقعية أي التي تم تجريدها من الواقع لمساعدة علماء الاجتماع على فهم ما يدرسونه من خلال فحص وتقصي ملامحه الأساسية. إن النموذج المثالي يسمح لعلماء الاجتماع أن يفهموا جانباً مهماً من تعقيدات وتشابكات العالم الاجتماعي. ولقد طبق فيبر منهجه على عدد من مظاهر وملامح المجتمع الحديث، ولعل المثال الأكثر وضوحاً هو استخدامه في تفسير نشأة الرأسمالية كنظام اقتصادي حديث في ارتباطها بالروح البروتستانية.

ويتيح النموذج المثالي إمكانية تأسيس علم اجتماع متحرر من القيم لأنه من الممكن استخدامه كأداة منهجية لتحليل المجتمع وظواهره وهو يركز على ما يتعين بحثه ودراسته.وبمعني آخر إنه منهج متحرر من القيم. ومن الخطأ الكامل تصور أن ماكس فيبر استثني القيم وأخرجها من نسقه العلمي. إن ما يعترض عليه ويرفضه هو أن نقوم ببناء نموذج مثالي ثم نحكم عليه من خلال نسق قيمي خارجي ومختلف عنه، والذي من الممكن أن يكون الدافع والهدف والمبدأ الداخلي المناسب لنموذج آخر غيره. لقد كان فيبر على وعي وأدراك أننا نقوم باختيار وبناء النماذج المثالية التي تتسق وتنسجم مع أحكاماً بشأن ما هو مناسب وممكن وذلك على الرغم من أنها لابد وأنه يتم تطبيقها بشكل موضوعي.

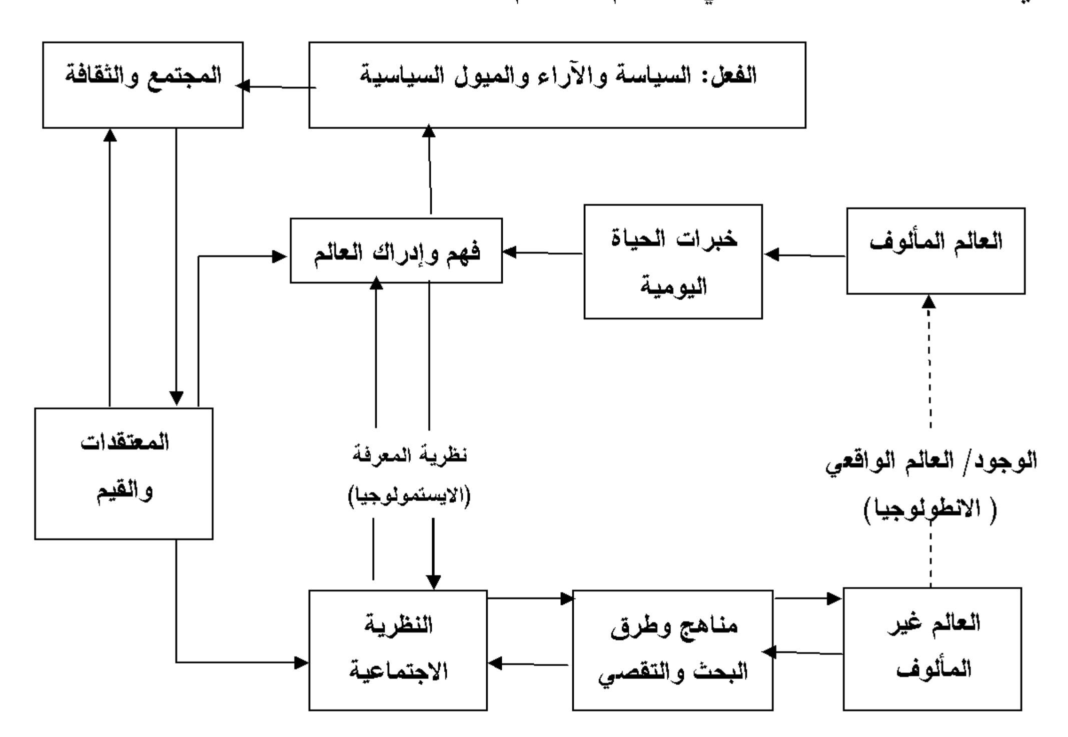
ج ــ هل بإمكان العلم أن يكون موضوعياً؟

قبل أن نشكك في إمكانية وقدرة علم الاجتماع على إنتاج وتقديم وصف وتفسير موضوعي وعقلاني للمجتمع الإنساني وظواهره، ونحن في حاجة إلي تبني وجهة نظر نقدية بشأن العمليات العقلية والواقعية للعلوم الطبيعية ذاتها. لأنه من الممكن أن تكون ظاهرية أكثر من كونها حقيقية وواقعية. إن علم الاجتماع يتميز بالطابع الذاتي لعملية البحث، وتشابك وتعقد الواقع الاجتماعي.

ومن الممكن أن يحيطنا ذلك علماً بالكيفية التي تنتج عن طريقها المعرفة في العلوم الأخرى.

د ـ الثقافة والمجتمع العلمي:

تحدث العملية الكلية لإنتاج المعرفة العلمية سواء في العلوم الطبيعية، أو في العلوم الاجتماعية في سياق اجتماعي مشبع بالثقافة وأنساق القيم الحاكمة والموجهة والضابطة. وكما ذكرنا قبلاً فإن العلماء دوما ما يحيلون نتائجهم البحثية العلمية إلي مجتمعهم العلمي. وتمثل هذه الإجابة جانباً مهماً في طرقهم العلمية، حيث يمكن إخضاع هذه النتائج للمزيد من الاختبارات وإعادة تكرار التجارب التي أجريت وصولاً إلي هذه النتائج. وعلى إيه حال فإن المجتمع العلمي هو مجتمع ذو كينونة وهوية اجتماعية بالضرورة (أنظر الشكل التالي) وهذا المجتمع يمتلك بالقطع أنساق المعتقدات والقيم الخاصة به، وكذلك بناءات القوة والسلطة داخله، وهذه المجتمع بإمكانه أن يحدد امكانات النجاح أو الفشل الذي يمكن أن يحققه العلماء في مهنتهم وعملهم.



وبشكل عام، يتولى المجتمع العلمي مسئولية الدفاع عن النموذج العلمي السائد والمسيطر في هذه اللحظة التاريخية أو تلك كما يتولى في الوقت ذاته مهمة تقديم ردود فعل قوية في مواجهة من تمثل أعمالهم تحدياً له دلالته وقوته لهذا النموذج.

إن عالم العلم، سواء بإطاره النظري الديكارتي أو المادي، يرتبط ارتباطاً شديداً بالثقافة السائدة في المجتمعات الغربية الصناعية المتقدمة والتي تتأسس علي الفاعلية والإنجاز. ويذهب البعض إلي إن هذه الثقافة بكل محدداتها تنتج ضغوطاً هائلة على العلماء تدفعهم إلي نشر أبحاثهم والقيام باختراقات عديدة قد تنتهي بالبعض منهم إلي الكذب والتحايل والخداع. وشاهد على ذلك ما قام به عالم النفس البريطاني الشهير سيرل برت C. But. الذي قام بتحريف وتزوير وفبركة نتائج بحوثه عن معدلات الذكاء واختلق أرقاماً ومعدلات عن تباين القدرات العقلية بين الأجناس البشرية المختلفة، والتي تؤكد على ما زعم تفوق بيض البشرة على الملونين من البشر وذلك اتساقًا مع نزعاته العنصرية غير العلمية ارتباط إحصائية غير صحيحة. وهذه الحالة تشير إلي الدور الذي يمكن أن يقوم به مجتمع العلماء سواء في دفع العالم إلي تزييف حقائق الواقع، أو في قيام آخرين من المجتمع العلمي ذاته بكشف التزييف وفضحه وهو ما فعله تلاميذ برت بعد وفاته.

وتوجد محددات أخرى للعلم بالإطلاق، ولعلم الاجتماع على وجه الخصوص تحدد المسائل والقضايا الأخلاقية التي تحددها أية معرفة نسعى لإنتاجها وأية تجارب وخبرات سنقوم بها. هناك أيضاً مسألة من الذي سيدفع أجر راتب العالم وحيث نجد الكثير من العلماء يعملون لصالح الشركات الكبرى أو المؤسسات العسكرية، فمثل هؤلاء بعيدين تماماً عن مسألة الموضوعية والحياد بعدهم عن السعي للمعرفة من أجل المعرفة فحسب.

هـ ــ السياسة والتطبيقات:

إن الحقائق والمعلومات التي ينتجها البحث العلمي غالبــاً مــا يــتم اســتخدامها للتأثير في القرارات السياسية فالمعرفة التي ينتجها العلم، والمعرفــة عــن المجتمــع التي تأتي مــن العلــوم الاجتماعيــة أو مــن الحــس الاجتمــاعي المــشترك، يــتم استخدامها وتوظيفها لتبرير وتسويغ سياسات بعينهــا، وأفعــال وممارســات سياســية محددة. العلم بالإطلاق والعلم الاجتماعي بالتخصيص يــتم الــزج بهمــا فــي شــرك التقيمات السياسية سواء أردوا ذلك أم لم يريده.

السياسات وبناء القوة:

تعد العلوم الاجتماعية علومــاً سياســية بالــضرورة، أو ذات فاعليــة سياســية بالضرورة. ففــي مقــال لروجــر جــوم ١٩٧٩ /Roger Gomm يستكــشف فيــه دور القيم في علم الاجتماع كتــب يقــول: إن علــم الاجتمــاع ذاتــه يعــد فعاليــة اجتماعية، حيث يقوم بإنتاجه والعمل به بشر حقيقيون يعيــشون فــي عــالم واقعــي وحقيقي، وهذا العالم يتميز بوجــود أشــكال مختلفــة مــن صــراع المــصالح بــين الجماعات الاجتماعية المتقابلة في مــصالحها وأهــدافها، وبعــض هــذه الجماعــات الاجتماعية المتصارعة يكون أكثر قوة ونفوذاً وســلطة مــن دون الآخــرين داخــل المجتمع. ولذلك فإن علــم الاجتمــاع يتــيح معرفــة اجتماعيــة قابلــة للاســتخدام الاجتماعي من قبل جماعات محددة داخل المجتمع بمــا يحقــق مــصالحها. إن هــذه الرؤية لعلــم الاجتمــاع المــرتبط بانــساق القــيم وكــرؤى للحقــائق الاجتماعيــة المرتبطة بمصالح جماعات بعينهــا داخــل المجتمــع، هــو، وبالــضرورة، علــى النقيض تماماً من المزاعم التي تذهب إلي أن علم الاجتماع هــو علــم متحــرر مــن القيم وحيادي بالضرورة على النحــو الــذي تــردده الكتــب المدرســية فــي علــم الاجتماع.

ويعد الفن جولدنر Alvin Gouldner أول مــن هــاجم أســطورة الحيــاد فــي البحث العلمي الاجتماعي، ودعاوى علم الاجتماع المتحــرر مــن القيمــة واعتبرهــا

رؤية خاطئة تلك التي ترى أن علم الاجتماع يمكن أن يكون متحرراً من القيم كما هو الحال في العلوم الطبيعية فالحياد في علم الاجتماع والبحث السوسيولوجي وهم كوهم حياد الدولة في المجتمعات الطبقية. وهذا العلم يستحيل أن يخلو ويتحرر من العواطف الشخصية والانتماءات السياسية والاجتماعية. وعلى الرغم من ذلك يدعو جولدنر علماء الاجتماع إلى التعفف عن العمل لصالح نظام سياسي بعينه أو جهة أو مؤسسة بعينها. وأن يكونوا موضوعيين بمعنى انحيازهم الكامل لكشف الحقيقة وتقديم فهم ومعرفة موضوعية بالواقع الاجتماعي. ويجب على علماء الاجتماع إلا يدفعهم الغرور والحرص على الحياة الرغدة الآمنة والمريحة للقيام بإعمال تضاعف من معاناة البشر وآلامهم. وإنما يجب أن يكون انحيازهم الأول بعلمهم وبحثهم لصالح البشر وسعادتهم.

الفصل الثامن

البحث العلمي: الماهية والأنماط الأساسية

أولاً- معنى كلمة بحث

ثانياً- أنواع البحوث العلمية وأهدافها:

١- البحث الوصفي.

٢- البحث الاستطلاعي – الكشفي.

٣- بحوث نظرية.

٤- البحوث التطبيقية والتقييمية:

أ- أنماط البحوث التقييمية.

ب- الصعوبات الخاصة بالبحوث التقييمية.

ثالثاً- البحوث الكمية في مواجهة البحوث الكيفية.

رابعاً- استخلاصات أساسية وأسئلة.

الفصل الثامن

البحث العلمي: الماهية والأنماط الأساسية(*)

يسعى هذا الفصل إلى تقديم إجابات عن الأسئلة التالية:

١- ماذا نعني بكلمة بحث علمي؟

٢- ما الأنماط المختلفة للبحوث العلمية؟ وما الأهداف التي تسعى إلى تحقيقها؟

٣- ما السبل المتباينة التي يمكن اتباعها عند تقييم البحوث العلمية؟

٤- ما الصعوبات التي يمكن أن نواجهها عند القيام ببحث علمي؟

٥- ماذا نعني بتعبير بحث كمي؟ وما الأهداف التي تسعى البحوث الكمية إلى تحقيقها؟

أولاً- معنى كلمة بحث علمي:

معنى البحث هو السؤال والتقصي. وتنطوي كلمة بحث على معاني عديدة، حيث يشتمل هذا المفهوم على أنشطة متنوعة ومختلفة. ومن ثم فإننا لا يمكن أن نصل إلى معنى واحد وبسيط لهذا المفهوم. وبالإمكان أن نقدم فكرة توضيحية تُعد مدخلاً لبيان ما نقصده بكلمة بحث. البحث هو أسلوب، وطريقة، ومنحى نسلكه لمحاولة تقديم إجابات عن التساؤلات المتنوعة والمتباينة بشأن العالم الطبيعي والاجتماعي الذي نعيش فيه. ولا يعني هذا التعريف أن كل الأسئلة المطروحة بشأن هذا العالم يمكن الإجابة عليها عن طريق البحث. كما يعنى أيضاً أن الطرق التي نسلكها بحثاً عن هذه الإجابات لا يمكن اعتبارها جميعاً أبحاثاً علمية بالضرورة ولذلك فالسؤال المطروح هنا: ما الذي يجعل من

(*) Celiac. Reaves, Quantitative Research for the Behavioral Sciences, Joh Wiley & Sons, Inc. New York, 1992. PP. 1-17.

العمل الذي نقوم به لتقديم إجابات عن الأسئلة المتعلقة بالعالم من حولنا، بحثاً علمياً؟

إن أهم سمة تميز البحث العلمي عن غيره من المسالك التي نسلكها لتقديم إجابات على الأسئلة المثارة بشأن عالمنا المادي، الطبيعي والاجتماعي، هي أن طريقة البحث العلمي تتسم بكونها محاولة عقلانية مقصودة دقيقة ومنظمة ومتعمقة. أننا نكون بصدد عملية عقلية تنطوي على مراحل وخطوات منظمة تنظيماً منطقياً لفهم الظواهر على حقيقتها بتقصي أسبابها، والكشف عن المتغيرات التي أوجدتها، وعلاقاتها الارتباطية بغيرها من الظواهر والتنبؤ بمسارها في الوقت الراهن وفي المستقبل. الأمر الذي يعني أننا عندما نكون بصدد الشروع في الإجابة على تساؤل معين، أو البحث عن حل لمشكلة محددة، فإننا نمتلك في ذهننا تصورًا معين لخطوات منظمة يتعين القيام بها. وحيث نقوم بجمع البيانات والمعلومات من مصادر عديدة نتوقع حال التعامل العقلي معها أنها ستقودنا إلى تقديم إجابة على السؤال المطروح، أو حل للمشكلة التي نواجهها. ثم نقوم بعد ذلك بتصنيف وتنظيم هذه البيانات والمعلومات والكشف عن علاتها وارتباطاتها بطريقة عقلانية ومنطقية وهذا هو المعنى الأساسي للبحث: إنه طريقة عقلانية مقصودة ومنظمة ودقيقة ومتعمقة للإجابة على الأسئلة المتعلقة بالعالم من حولنا، أو لحل المشكلات التي تواجهنا في هذا العالم. ومن شأن هذه الطريقة أو البحث العلمي أن ينتج ويقدم لنا معرفة علمية قابلة للاستخدام الاجتماعي وتمكننا من التعامل بكفاءة واقتدار مع العالم المحيط بنا من حيث فهم ظواهره الطبيعية والاجتماعية، والتنبؤ بمساراتها، والتحكم فيها والسيطرة عليها بما يحقق سعادة الإنسان ورفاهيته وازدهاره وتقدمه.

ثانياً- أنماط البحوث العلمية وأهدافها:

يثير التعريف الذي قدمناه لمفهوم البحث العلمي بكونه طريقة عقلانية مقصودة ومنظمة ودقيقة ومتعمقة لحل المشكلات، أو للإجابة على التساؤلات المتعلقة بعالمنا الطبيعي والاجتماعي، يثير العديد من الأسئلة منها على سبيل المثال: ما هي أنواع الأسئلة والمشكلات التي تشكل مادة وموضوعاً للبحث العلمي؟ وما أنماط الإجابات التي يمكن أن يقدمها البحث العلمي؟ في الحقيقة ليس بالإمكان أن نعثر على إجابة بسيطة لما يمكن أن يقوم به البحث وذلك لوجود أنواع وأنماط مختلفة من البحوث العلمية التي يسعى كل منها إلى تحقيق أهدف وأغراض مختلفة أيضاً. ومن الممكن بوجه عام، أن نصنف البحوث العلمية إلى أربعة أنماط رئيسية استنادًا إلى الهدف الذي من أجله نقوم بإجراء وتنفيذ البحث العلمي. وهذه الأنماط الأربعة هي:

١- البحث الوصفي.

٢- البحث الاستكشافي أو الاستطلاعي.

٣- البحوث النظرية.

٤- البحوث التطبيقية أو التقييمية.

وسنعرض في ما يلي لهذه الأنماط البحثية بشيء من التفصيل.

١- البحث الوصفي Descriptve Research

يتحدد الهدف الأساسي للبحوث الوصفية في أنها تسعى إلى تقديم وصف لموقف محدد، أو واقعة بعينها، أو ظاهرة معينة وصولاً إلى معرفة تتسم بالدقة والموضوعية عن مكونات الظاهرة أو الواقعة موضوع البحث وبحيث يكون هذا الوصف أقرب لما هي عليه في الواقع وبالفعل. ولا ينطوي البحث الوصفي على أية محاولة لتفسير الظواهر، أو التنبؤ بما يمكن أن تكون عليه في المستقبل، أو كيفية أحداث تغييرات فيها. إن البحث الوصفي يرصد فقط ما

هو كائن ويصفه وصفاً كمياً أو كيفياً. ومثال ذلك الإحصاءات السكانية، والتعداد العام للسكان الذي تجريه الدول كل عدد معين من السنوات. أنه ببساطة نوع من البحوث الوصفية. فالهدف منه رصد وتسجيل، والتقاط صورة واقعية للسكان في دولة محددة وزمان محدد. ومثال آخر للبحوث الوصفية، الدراسة التي قام بها سومر ايستبروك وهوربن *Sommer Estabrook And Horobn* في عام ١٩٨٨، للكشف عن مدى معرفة المدرسين لأسعار وتكلفة الكتب التي اختاروها للمقررات التي يقومون بتدريسها لطلابهم. وقد أوضحت هذه الدراسة رغبة المدرسين في تخفيض أسعار هذه الكتب.

وتجدر الإشارة هنا إلى الندرة النسبية للبحوث الوصفية لأن بعض الباحثين يفتقدون القدرة على استخلاص النتائج أو طرح وتقديم التوصيات التي يمكن الاسترشاد بها، من الملاحظات التي قاموا برصدها وتسجيلها خلال قيامهم بالبحوث الوصفية. وعلى الرغم من ذلك فإن البحوث الوصفية تفيد في تقديم معرفة دقيقة وتفصيلية عن الوضع الذي يبدو عليه عالمنا الطبيعي أو الاجتماعي الآن، كما أنها تفيد في تحقيق فهم صحيح لهذا العالم، وتفيد أيضاً في تقديم الرؤى والتصورات المتعلقة بالوضع الذي ينبغي أن يكون عليه هذا العالم في المستقبل، كما أنها ترشدنا إلى الإجراءات العملية التي يتعين القيام بها حيال التعامل مع هذا العالم.

٢- البحث الكشفي أو الاستطلاعي Exploratory Research

تستدعى كلمة كشف واستطلاع إلى الذهن صورة أولئك المغامرين الذين يشقون طريقهم عبر أقاليم مجهولة ومناطق جديدة لا يعرف أحد عنها أي شيء، وذلك بهدف استكشاف هذه الأقاليم والمناطق. وهذا المعنى الذي نستحضره إلى أذهاننا يكفي لنفهم طبيعة هذا النوع من البحوث.

يهدف البحث الكشفي إلى استكشاف، وتقصي، وبحث الظواهر والمواقف والوقائع غير المألوفة والتي لم يقربها البحث العلمي قبلاً. ولذلك عندما

ينصرف الباحثون والعلماء إلى بحث ودراسة وفحص مشكلة أو ظاهرة ما، ولا تتوافر عنها أية معرفة سابقة، فإنهم فيه هذه الحالة يلجأون إلى إجراء بحث كشفي أو استطلاعي. ويميل البحث الكشفي لأن يكون بحثاً وصفياً تمهيدياً إلى حد ما، وذلك لأنه يوجه بدرجة كبيرة إلى وصف ما يحدث في مواقف بعينها، وبشكل أقل يحاول تفسير لماذا يحدث ما حدث على هذا النحو دون غيره؟، كما يحاول أيضاً اختبار نظريات ترتبط بمواقف معينة. ولكن يظل البحث الكشفي مختلفاً عن البحث الوصفي بفضل اهتمام الأول بما يحدث ومحاولة تجاوز حدود الوصف البسيط وصولاً إلى الفهم والتفسير. ومثال ذلك البحث التالي.

مع تزايد نسبة كبار السن بالنسبة إلى مجموع السكان في الولايات المتحدة الأمريكية عاماً بعد عام، واحتياج هذه الفئة العمرية للرعاية وبمن يقومون برعايتهم، لكل هذه الاعتبارات تزايد اهتمام الباحثين بدراسة اتجاهات وخبرات من يقومون على رعاية المسنين سواء كانوا من أصدقائهم أو أقاربهم. وفي البحث الذي أجراه سيمون *Simon* في عام ١٩٨٨، حاول أن يقدم إجابة على السؤال التالي: لماذا يصبح بعض الناس أكثر حرصاً على أن يقوموا بأنفسهم بتولي مهمة رعاية أقاربهم المسنين بدلاً من إيداعهم في مؤسسات رعاية المسنين؟ ويناقش سيمون في بحثه ردود أفعال القائمين بالرعاية واستجاباتهم إزاء هذه الخبرات والتجارب. واتضح من البحث أن الكثيرين ممن قاموا بهذا الدور لم يكن أمامهم أي خيار آخر سواه، فلم يكن لديهم أقارب آخرين يمكنهم القيام بهذا العمل نيابة عنهم، أو أنهم لم تكن تتوافر لديهم المقدرة المالية لدفع تكاليف إيداع ذويهم في مؤسسات رعاية المسنين. وتبين من البحث أن الكثير من الناس، وربما الغالبية منهم، يقومون بواجب رعاية أزواجهم أو زوجاتهم، أو آبائهم لأنهم يشعرون حقيقة بأن هذه هي الطريقة الصحيحة للوفاء لهم، وكنوع من ردّ الجميل لذويهم.

ولم يتوقع الباحث الآثار الإيجابية الناجمة عن قيام الأهل برعاية ذويهم من كبار السن بكل ما يعتريهم في العمر المتقدم من ضعف جسماني، ومن تدهور لأحوالهم الصحية، وما يسيطر عليهم من مشاعر البؤس. إن هذا البحث يعد نوعاً من البحوث الكشفية، وهو لم يهدف بحال إلى تأييد، أو رفض الأفكار والتصورات الأولية حول هذا الموضوع، بقدر ما كان يهدف إلى الكشف عن أبعاد ومحددات نوعية الخبرات والمواقف والدوافع المرتبطة برعاية كبار السن. فالهدف لم يكن اختبار صحة أو خطأ أية فروض أو نظريات علمية، وإنما كان الهدف تحديد أبعاد الظاهرة والكشف عن مناطق جديدة يمكن أن تكون موضوعاً لبحوث أخرى في سياق الظاهرة ويمكن بالتالي أن تؤثر على كثير منا في المستقبل القريب.

وتتيح البحوث الكشفية أو الاستطلاعية إمكانية الحصول على كم من المعلومات والبيانات التي تتسم بالثراء والتعقيد في آن واحد. وفي حال إجراء مثل هذا النمط من البحوث، بشكل دقيق ومتقن، فإننا سنواجه بالكثير من المفاجآت والملاحظات التي لم نكن نتوقعها، هذا فضلا عن إثارة العديد من الأسئلة التي لا تتوافر عنها إجابات الآن. ولذلك يكون الشغل الشاغل للباحثين هو الاستمرار في البحث للوصول إلى إجابات على الأسئلة المطروحة والتي تتكاثر وتتوالد بحكم ما نصل إليه ونكتسبه من معارف بجوانب الموضوع الذي نبحثه. ولكل هذه الاعتبارات تعد البحوث الكشفية بحوثاً موحية وملهمة إذ تكون سبباً وبداية لفتح آفاق جديدة أمام الباحثين.

وتكمن صعوبة البحث الكشفي في أن الباحثين لا يملكون، وليس بمقدورهم، السيطرة الكاملة، أو التحكم بموضوع البحث. فغالباً ما يلاحظون الظواهر في حالتها ودون أي تدخل من جانبهم في محاولة لتحديد أبعاد الظواهر وجوانبها. ويتطلب ذلك قدراً كبيراً من المرونة سواء في إجراءات البحث أو في الأدوات المستخدمة في جمع البيانات والمعلومات من أي مصدر

متاح حتى وإن كان مصدراً غير علمي. ولكن يبقى مع ذلك الإشارة إلى أن البحث الكشفي يعد من أفضل الأساليب البحثية للحصول على أسئلة وإجابات مثيرة وطريفة وشيقة بشأن العالم الذي نعيش فيه.

٣- بحوث النظرية Theoretical Research

وهذه النوعية من البحوث يكون هدفها الأساسي اختبار صحة النظريات العلمية وتقييمها، وهي نظريات تؤكد وجود علاقات ارتباطية بين متغيرات مختلفة في نطاق ظاهرة ما. وتتقصى بحوث النظرية العلل والأسباب الكامنة وراء الظواهر والوقائع، أعني القوانين النوعية الحاكمة لحركة هذه الظواهر فعلى سبيل المثال:

- لماذا يحرص بعض الناس على رعاية أقاربهم المسنين، بأنفسهم بدلاً من إيداعهم مؤسسات رعاية كبار السن؟
- لماذا يتحول بعض الفقراء المعدمين إلى عالم الجريمة والانحراف دون الآخرين من الفقراء والمعدمين؟
- لماذا يصبح بعض الناس على درجة من الصحة والصلابة عند مواجهة مواقف عصيبة، بينما يصيب الجنون وفقدان العقل آخرين ممن تقهرهم مثل هذه المواقف ويعجزون عن مواجهتها؟

وتتناول بحوث النظرية هذه النوعية من الأسئلة وتحاول الوصول إلى إجابات منظمة ودقيقة ومحددة ومنطقية عنها. وفي عام ١٩٨٤ قدم مجموعة من الباحثين تقريراً بحثياً عن أثر الزحام على المسجونين المودعين في السجون، وكان من بين أهدافهم البحثية بيان أثر التغير والتحول في حجم ونوعية ما أطلقوا عليه تعبير الكثافة الاجتماعية، والكثافة المكانية على سلوك هؤلاء المساجين. وكانوا يعنون بالكثافة الاجتماعية عدد الأشخاص الموجودين في مساحة مكانية محددة. وهو ما يعرف بمعامل التزاحم الاجتماعي، أما

الكثافة المكانية فكانوا يقصدون بها الإشـارة إلـى المـساحة المكانيـة المخصـصة للفرد الواحد.

وأثبتت نتائج هذه البحـوث أنـه كلمـا زادت الكثافـة الاجتماعيـة يتـضاءل ويقل حجم ومساحة الخصوصية التي يحصل عليها كـل سـجين، ومـن ثـم تتزايـد إمكانات الإزعاج والمضايقات، وتدخل الآخرين فـي شـؤون وحيـاة غيـرهم إلـى الحد الذي يصدق معه بالفعل أن يكون الآخرون هـم الجحـيم بعينـه. ومـن ناحيـة أخرى، فإن زيادة الكثافة المكانية يقلل مـن حجـم المـساحة الخاصـة التـي مـن المفترض أن يحصل عليها كل سجين على حدة، ولكنهـا بـالرغم مـن ذلـك تظـل مساحة خاصـة وفرديـة. وتوصـل العلمـاء والبـاحثون أيـضاً إلـى أن الكثافـة الاجتماعية تؤثر، وعلى نحو بـالغ الخطـورة، علـى الأفـراد خلافـاً لمـا تحدثـه الكثافة المكانية. فعلى سبيل المثال، يُعد وضع مجموعة مـن الـسجناء فـي حجـرة مخصصة لسجين واحد، أسوأ بكثير من تقليل حجم هـذه الحجـرة للـسجين الواحـد. ولقد أكدت الدراسات هذه النتائج ويعد هذا البحـث بحثـاُ فـي النظريـة تـم تنفيـذه لتقييم أوضاع السجون ومعدلات ازدحامهـا وأثـر ذلك علـى المـسجونين أنفـسهم، كما يُعد من ناحية أخرى، بحثاً تطبيقياً لأنه يتنـاول قـضية اجتماعيـة واقعيـة. إن بحوث النظرية تسعى للكشف عن العلل والأسـباب المحدثـة والظـواهر وعلاقاتهـا الارتباطية.

٤- البحوث التطبيقية أو التقييمية *Applied (Evaluation) Research*

من شأن البحوث الوصفية، والكـشفية، وبحـوث النظريـة أن تنيـر عقولنـا لأنها وسيلة تساعدنا على فهم حقيقة الظواهر والوقـائع، وفهـم وإدراك البـشر فـي بيئاتهم الطبيعية التي يعيشون فيها. وتـسعى هـذه البحـوث للإجابـة عـن تـساؤل محدد هو:

لماذا تحدث الظواهر على هذا النحو دون غيره؟ وكيف تحدث؟

وهذه البحوث لا تقترح علينا أي إجـراء يتعـين علينـا القيـام بـه، أو عـدم القيام به انطلاقا من هذه المعرفة التي اكتسبناها مـن هـذه البحـوث. أمـا البحـوث التطبيقية *Applied Research*، فإنها، فـي المقابـل، تجـري مـن أجـل غـرض وهدف أساسي هو إخبارنا وإرشادنا إلى ما يتعـين علينـا أن نفعلـه بعـد ذلـك. إن البحث التطبيقي هو كل بحث يـسعى إلـى حـل المـشكلات الاجتماعيـة الحقيقيـة التي نواجهها في العالم الذي نعيش فيه من خـلال اختبـار صـحة أو خطـأ بعـض الفروض المتعلقة بعوامل التغيـر الاجتمـاعي أو أسـباب هـذه المـشكلات وتكـاد تكون هذه هي المهمة الأساسية في البحوث التقييميـة، ونعنـي بهـا اختبـار وجـود علاقة ذات دلالة بين متغيرين أحدهما مستقل والآخـر معتمـد أو تـابع، ثـم القيـام بتحليل هذه العلاقات للتأكد من اسـتمراريتها وثباتهـا، أو التأكـد مـن أن البرنـامج موضع التقييم أدى إلى استمرار وجود النتـائج المرغوبـة وأن هـذه العلاقـة هـي علاقة علّية بمعنى أن هذا البرنـامج بالتحديـد ولـيس غيـره مـن أيـة متغيـرات أخرى أدى إلى وجود هذه العلاقة، ثـم الكـشف عـن الظـروف والعوامـل التـي يحتمل أن تؤثر في فعالية البرنامج. ومن شأن ذلك كلـه أن يـساعدنا علـى اتخـاذ وصنع قرارات عملية وإجرائية بشأن المواقف الحياتية الحقيقية والمعاشة.

ويستخدم مـصطلح التقيـيم *Evaluation* هنـا بمعنيـين، الأول هـو التقيـيم كهدف يسعى إلى تحديد القيمـة الاجتماعيـة لموضـوعات، أو أعمـال، أو بـرامج بعينها، أما الثاني فهو التقييم كعمليـة تـسعى إلـى القيـاس الموضـوعي لفاعليـة برنامج معين، أو جدوى هـذا البرنـامج، وفاعليتـه فـي التـأثير علـى اتجاهـات وسلوك الجمهور المـستهدف مـن هـذا البرنـامج، أو النتـائج المتوقعـة وغيـر المتوقعة التي تنجم عن تنفيـذ هـذا البرنـامج. ولـذلك تـستمد البحـوث التقييميـة أهميتها من الإحساس بالحاجة إلى وجـود أسـاليب موضـوعية يمكـن اسـتخدامها في تقدير مدى فعالية وجدوى برامج العمل الاجتماعي.

ويثير التمييز بين هذين المفهومين، التطبيقي والتقييمي، نوعاً من الإرباك وعدم الوضوح في بعض الأحيان. فعلى صعيد النظرية يكون البحث التطبيقي أكثر شمولاً واتساعاً، بينما يشير مفهوم البحث التقييمي إلى نمط خاص ومحدد من البحوث التطبيقية. وعلى أية حال، وعلى صعيد الممارسة، فإن أي بحث يهدف إلى معالجة وحل مشكلة ما واقعية، وأيضاً تقييم أية حلول واقعية لمشكلة ما، فإنه يُعد بحثا تقييميا. ويستخدم العلماء هذه المفاهيم، بحوث تطبيقية وبحوث تقييمية، لتأكيد على اهتمامهم بعملية البحث ذاتها أكثر من اهتمامهم بالاختلافات البنائية المهمة.

وتمثل البحوث التطبيقية جانباً مهماً للغاية في العلوم السلوكية لأنها تهتم بالبشر الحقيقيين في حياتهم الواقعية والحقيقية فهي تستخدم لتقييم النتائج الناجمة عن برامج العمل الاجتماعي، كما تستخدم لتقدير فاعلية هذه البرامج ومدى تأثيرها على قيم الناس واتجاهاتهم وسلوكياتهم. كما تعتبر هذه البحوث موضوعاً مهماً للطلاب الذين يدرسون مقرراً في مناهج البحث العلمي، لأن هذه النوعية من البحوث تكون أكثر ملائمة في إعدادهم العلمي الأكاديمي، ومن المرجح نجاح مثل هذه البحوث حتى وإن كان هؤلاء الطلاب ممن لم يتلقوا أي تدريب بحثي من قبل.

وتتحدد العناصر التصورية للبحث التقييمي في تأكيد الارتباط بين نشاط أو سلوك أو فعل ما من ناحية، وهدف مرغوب فيه من ناحية أخرى. وهذه العلاقة أو هذا الارتباط يستند إلى مبدأ نظري يفترض وجود صوراً بعينها للفعل الاجتماعي من المحتمل أن يترتب عليها نتائج محددة تمثل في الحقيقة القيمة الاجتماعية المرغوب فيها. وتتمثل العناصر المنهجية الرئيسية للبحث التقييمي والمتعلقة بمشكلة قياس نتائج النشاط أو السلوك أو الفعل بوجود أسلوب محدد لقياس النتائج المحققة له. وبالإمكان أن نحدد عنصرين مهمين يتكون منهما البحث التقييمي. الأول هو فرض يعبر عن علاقة محتملة بين متغير

سببي أساسي هو الفعل الاجتماعي، بمتغير آخر معتمـد أو تـابع ونعنـي بـه هنـا النتائج المرغوبة والمتوقعة عن هذا السلوك أو المتغيـر الأساسـي، والبعـد الثـاني هو وجود أسلوب إجرائي مباشر نقيس به التغيرات الحادثـة فـي المتغيـر المعتمـد لبيان إلى أي مدى يمكن أن ننسب هذه التغيرات الحادثة إلـى التغيـر الحـادث فـي المتغير المستقل أو الأساسي دون غيره.

إن هذين العنصرين الأساسيين في البحث التقييمـي مـن الممكـن ترجمتهمـا إلى خمس خطوات تفصيلية. الأولى تتمثل في صـياغة أهـداف البرنـامج ووضـع تصور محدد لنتائجه المتوقعة وغير المتوقعـة، والخطـوة الثانيـة، وضـع تـصور محدد لتصميم البحث التقييمي وإجراءاته المنهجية والمعايير التـي يمكـن الاحتكـام لها للبرهنة على فعالية البرنامج، والخطوة الثالثـة، تحديـد معـايير لتقيـيم فعاليـة البرنامج، أو مؤشرات لقياس نتائجه، والخطـوة الرابعـة هـي تنفيـذ البحـث مـع الاهتمام والحرص على تقليل أخطاء القياس. وأخيراً تفـسير وفهـم نتـائج البرنـامج وتحديد أسباب النجاح والفشل في تحقيق أهدافه أو فعاليته.

أ- أنماط البحوث التقييمية:

يمكن تصنيف البحوث التقييمية استناداً إلـى الأهـداف الأساسـية التـي مـن أجلها يتم تصميم وتنفيذ البحث. والحـدود الفاصـلة بـين الأنمـاط المختلفـة مـن البحوث التقييمية ربما تكون غير واضحة إلى حد مـا. ومـن المفيـد التفكيـر فـي هذه الأنماط البحثيـة لأن ذلـك يـساعدنا علـى تكـوين رؤيـة تتـسم بالوضـوح والشمول حول الأهداف التي تسعى هذه البحوث إلى تحقيقها.

ومن بين طرق تصنيف البحوث التقييمية أننـا يمكـن أن نميـز بـين بحـوث تقييمية شاملة، وبحوث تقييمية تكوينية. فالبحوث التقييميـة الـشاملة هـي البحـوث التي تكون بؤرة اهتمامها وتركيزها على تقدير الفاعليـة الحاليـة لبرنـامج العمـل الاجتماعي وأثرها علـى اتجاهـات وسـلوكيات النـاس أو الجمهـور المـستهدف وتصرفاتهم في الحدود القصوى والدنيا. مثـال ذلـك: هـل لـدى أسـتاذ الجامعـة

وقت فراغ كافٍ يتيح له إمكانية الالتقاء بطلابه خارج قاعات الدراسة؟ وما عدد الناس الذين يشاهدون بالفعل الإعلانات التليفزيونية الجديدة؟ وكم منهم يستطيع أن يتذكر هذه الإعلانات بعد خمس دقائق من مشاهدتها. أما البحوث التقييمية التكوينية فهي تساعد الناس على تكوين وصنع قرار بشأن استمرارهم في برنامج العمل الاجتماعي أو الانتهاء من هذه البرامج، أو يكونون على مدى قريب من هذه البرامج، أو ربما تحتاج البرامج إلى إدخال تعديلات عليها لتجويدها وتحسينها.

وتسعى البحوث التقييمية التكوينية على الجانب الآخر إلى تحديد مناطق الضعف في برامج العمل الاجتماعي والكشف عنها، وتقديم النصائح الضرورية لمعالجتها وتحسينها. والسؤال الذي يطرحه البحث التقييمي التكويني ليس متعلقاً بإلغاء البرنامج أو التحفظ عليه، وإنما يتعلق بما يتعين فعله بطرق مختلفة تضمن تفعيل البرنامج وتحقيق الهدف منه. كما يكون البحث التقييمي التكويني مهما أيضاً عندما يكون ما سنقوم بتقييمه ليس برنامج محدد وإنما أشخاص معينين كالعمال أو الموظفين مثلاً. إن الموظفين يكونون أكثر حظاً لكي يوافقوا ويقبلوا التقييم الذي سيكون هدفه مساعدتهم على تحسين وتجويد آدائهم الوظيفي، أكثر من قبولهم للتقييم الذي سيكون الهدف منه تحديد ما إذا كانوا سيحتفظون بوظائفهم،أم سيفقدونها. ومن المنطقي وبالنسبة للعامل أيضاً الذي يرى أنه من الأفضل بالنسبة له أن يحسن ويجود إنتاجيته ويزيد منها أكثر من أن يتم استبداله، الأمر الذي يدفعه للبحث عن عمل في مكان آخر. ويبقى الإشارة إلى أن البحوث التكوينية والشاملة كل منهما مستقل عن الآخر وبإمكان الباحث أن يختار أيهما، كما يمكنه أن يختار الأسلوبين معاً.

وهناك اتجاه آخر في التمييز بين البحوث التقييمية حيث يصنفها إلى بحوث تقييم الأثر والفاعلية لمعرفة العائد من برنامج للعمل الاجتماعي مثلاً، وبحوث تقييم العملية والأداء لمعرفة ما تحقق من الأهداف وبيان أسباب النجاح

أو الفشل. ومن الممكن تطبيق هذين النوعين المختلفين من البحوث في بحث واحد. وتستخدم بحوث تقييم الأثر والفاعلية معلومات أولية عن التأثير الفعلي والواقعي الذي يمكن أن يحدثه برنامج العمل الاجتماعي، وهو يقدم حلولاً وأفكاراً جديدة كما هو الحال في البرامج التي تعمل مع مدمني المخدرات والمصابين بالإيدز، كان لها التأثير الفعال في مكافحة انتشار الإيدز بين مدمني المخدرات. ويساعدنا هذا النمط من البحوث في معرفة لماذا يرفض مدمني المخدرات هذا البرنامج، هل بسبب الخوف على أنفسهم؟ أم أنهم عاجزون عن السيطرة على دوافعهم؟ أم أنها سيتناولون العلاج ويشاركون في البرنامج، وقد تصيبهم عدوى الإيدز؟ أم أن مدمني المخدرات قد يصابون بالإيدز بطريقة أخرى كالاتصال الجنسي مثلاً؟ وفي هذه الحالة فإن العلاج الذي يتعاطاه هؤلاء لن يحدث أي أثر إيجابي؟

ويبقى في النهاية الإشارة إلى نوع آخر من البحوث التقييمية وتسمى بحوث تحليل التكلفة أو القيمة. حيث يتم في هذه النوعية من البحوث المقارنة بين الأثر الكلي للبرنامج أو الأشياء الجيدة التي تحققت في الواقع من جراء تنفيذ برنامج معين وهو ما يمكن أن نطلق عليها المخرجات، والجهد المبذول أو الموارد المادية والبشرية التي قدمت أو المدخلات، لبيان ما إذا كانت الفائدة أو القيمة، أو المخرجات كافية بدرجة تساوي المدخلات أم لا؟ ومن الصعوبة بمكان أجراء وتنفيذ مثل هذه البحوث لأسباب يأتي في مقدمتها أن الفائدة أو المخرجات يجب أن تُقيم بشكل مباشر، وغير مباشر للكشف عن النتائج المتوقعة وغير المتوقعة، وبيان كيفية توزيع هذه النتائج وانتشارها بين أفراد الجماعة التي ينفذ هذا البرنامج معها ومن أجلها.

ب- الصعوبات الخاصة بالبحوث التطبيقية:

توجد عدة عوامل تجعل من البحوث التطبيقية أكثر صعوبة في تنفيذها مقارنة بالأنماط الأخرى من البحوث. وترجع هذه الصعوبة إلى أن البحوث

التطبيقية، وكما أشرنا سلفاً، تتعامل مع المشكلات الحية والواقعية التي نواجهها في العالم الواقعي والمعاش. ومن النادر أن يكون هذا العالم مرتباً ومنطقياً ومنتظماً على النحو الذي نجده في معامل أبحاث العلوم الطبيعية من حيث ضبط المتغيرات والتحكم فيها. وبالإمكان أن نقوم بتصنيف الصعوبات التي تواجه البحوث التطبيقية إلى ثلاثة أنواع:

- النوع الأول: يتعلق بالبحوث التي يفتقد فيها تماماً السيطرة والتحكم في متغيرات الموقف أو العالم الواقعي.
- والنوع الثاني: من الصعوبات يتعلق بردود أفعال الأشخاص الذين يكونون موضوع البحث ومفرداته.
- أما النوع الثالث: فيتعلق بمشكلات القياس وعمليات تأويل المواقف والخبرات والمعاني التي يخلعها الأفراد على أفعالهم ومواقفهم الحياتية وخبراتهم.

وهذه المشكلات من الممكن أن نجدها في أي نمط آخر من البحوث، إلا أنها تكون أكثر وضوحاً، وتكون حاضرة بقوة في البحوث التطبيقية.

يشير معنى افتقاد الباحث للقدرة على السيطرة والتحكم في متغيرات الموقف أنه يواجه صعوبات تتعلق باتخاذ القرارات بشان كيفية تطبيق البرنامج، وكيفية اختيار الأفراد الذين يتعين عليهم المشاركة في هذا البرنامج. ومن شأن افتقاد هذا الضبط والتحكم أن يجعل نتائج البحث غير مفهومة، وغير قابلة للتصديق والتعميم. ولذلك فالسؤال الذي يطرح هنا هو ما الذي سيحدث عند تطبيق البرنامج دون أن نأخذ في الاعتبار مقدمًا كيفية تقييم آثار هذا البرنامج. وكل هذه الاعتبارات يجب على الباحث أن يحدد كيفية تشغيل البرنامج قبل البدء في تنفيذه. لنفرض مثلاً أننا نريد أن نعرف تأثير برنامج معين على خلق التباينات بين الأفراد، ولكن كيف يمكننا أجراء المقارنات هنا؟ هل نقارن بالموقف قبل وضع البرنامج موضع التنفيذ؟ ولكن أليس من المحتمل

أن تكون هناك متغيرات وعوامل أخرى قد أثرت في الموقف وفي الأفراد المشاركين وخلقت هذا الاختلاف وليس البرنامج الذي نقوم بتنفيذه؟ إننا يمكن أن نقارن بمجموعات أخرى لم تتعرض لتأثير البرنامج الذي نعتبره هنا المتغير الأساسي والفاعل الأصيل مثل المدن، أو البلدان، أو المدارس، أو أي شيء كان. ولكن من الممكن القول بأن هذه المجموعات قد تكون مختلفة بطرق أخرى عن الموقف الذي نريد مقارنته بهم. ولهذا فإن مشكلة التحكم والسيطرة في متغيرات الموقف تعد عرضة للنقد في أي بحث آخر يحاول الكشف عن كيفية حدوث الأشياء أو الظواهر. وكل ما نود التأكيد عليه هنا هو أنك إذا كنت تريد التأكد من حدوث تغير معين، وأن هذا التغير يرجع إلى البرنامج ذاته الذي تقوم بتنفيذه، وليس على أية عوامل أخرى خارجية، فإن ذلك يتطلب منك قدراً كبيراً من الضبط والتحكم في الموقف البحثي ومتغيراته المختلفة.

والمشكلة الثانية في البحوث التطبيقية ترتبط بالأفراد أو المبحوثين المنخرطين في تنفيذ البرنامج، أو ما يمكن أن نطلق عليهم الفئات المستهدفة في البرنامج الذي تقوم بتنفيذه، وترتبط هذه المشكلة بمسألة الانحياز والموضوعية. فالأفراد المشتركون في البرنامج من الممكن أن تكون لديهم تفضيلات بعينها بشأن الكيفية التي يمكن من خلالها إخراج تقرير البحث، ولذلك فمن الممكن أن يساهموا بدور مهم في تغير نتائج البحث، وفي تحريف التقارير والحقائق والتسجيلات فتصبح مغلوطة ومشوهة للحقيقة. ولذلك يتعين على الباحث أن يتمتع بقدر عالٍ من اليقظة والحرص حيال هذه المشكلة وأثناء تنفيذ البحث التطبيقي، كما أنه يجب يتمتع بقدر عال من الحساسية تجاه مشاعر الأشخاص المشتركين في البحث، وأن نأخذ بعين الاعتبار إمكانية التأثير فيهم اعتماداً على الأساليب والطرق البحثية المهمة. وإذا قدر لنا أن نستنتج أن المؤشرات المتعلقة بتنفيذ البرنامج تشير إلى عقم البرنامج وافتقاده لأي تأثير على الأفراد، فلابد في هذه الحالة من إيقاف البرنامج. كأن نقوم مثلاً بحرمان المدمنين من

الخدمات كما هو الحال في برنـــامج العمـــل الاجتمـــاعي مـــع مـــدمني المخـــدرات ومرضى الإيدز، كما يمكن أيضاً أن يكـــون ذلـــك ســـبباً فـــي أن يفقـــد الموظفـــون وظائفهم إذا ما كان البرنامج يتعلق بتنمية قدراتهم مـــثلاً. وإذا كـــان هنـــاك احتمـــال لحدوث مثل هذه النتـــائج، فـــإن علـــى الباحـــث الاقتـــراب مـــن الموقـــف بـــذكاء وحرص.

والمشكلة الأخيرة، هي مشكلة حقيقية وقائمـــة بالنـــسبة لكـــل أنمـــاط البحـــوث العلمية، إلا أنها تتعاظم ويتزايد تأثيرها في البحـــوث التطبيقيـــة، وذلـــك لأن الأفـــراد المبحوثين، أو المـــشاركين فـــي البرنـــامج قـــد يراهنـــون علـــى مقاصـــد البحـــث وأغراضه الأمر الذي يكون مـــن شـــأنه التـــأثير علـــى عمليـــات القيـــاس وتأويـــل النتائج. وتتعلق مشكلات المقاييس في استخدامها وتطبيقها فـــي عـــدد مـــن المواقـــف التي تكون على درجة بالغة من الصعوبة والتعقيد. مثـــال ذلـــك المخـــاوف العامـــة لدى الجماهير من مرض الإيدز. إن تأويـــل هـــذه المـــشكلة أو تفـــسيرها يحتـــاج أن نحدد وسيلة القياس الصالحة التي يمكن لها أن تكـــشف لنـــا عـــن هـــذه المخـــاوف، وتوضح لنا ما إذا كانت هذه المخـــاوف المتزايـــدة لـــدى الجمـــاهير بـــشأن مـــرض الإيدز هل هي شيء جيد أم شيء سيئ؟ وبالرغم من كـــل ذلـــك فإنـــك قـــد تواجـــه نقداً من بعض الناس بأنك لم تقم بقيـــاس العوامـــل والمتغيـــرات المهمـــة والفاعلـــة من بين تلك العوامل التي قمت بقياسها وبالتالي فإن عملية القيـــاس التـــي قمـــت بهـــا يشوبها الخطأ والقصور، أو أنك أسأت تفسير وتأويل النتائج التـــي توصـــلت إليهـــا. وهذه الأمور قد تحدث في البحوث الاستكشافية، وبحـــوث النظريـــة، ولكنهـــا تكـــون أكثر انتشاراً وتواجداً في البحوث التطبيقية، لأن هـــذه النوعيـــة مـــن البحـــوث يـــتم تطبيقها على الجماهير، ويكون لها ردود أفعـــال هائلـــة عنـــد كثيـــر مـــن النـــاس. ولذلك نجد أن العنوان الرئيسي في جريدة مـــا قـــد يتحـــدث عـــن "أن العلمـــاء قـــد اكتشفوا عدم فعالية برنامج منع الإيـــدز" مثـــل هـــذا العنـــوان يكـــون أكثـــر تـــأثيراً

وتكون له ردود أفعال قوية أكثر من عنوان رئيسي آخر يتحدث عن "قيام العلماء بتحريف وتزييف نظرية اضطراب الذاكرة".

ولتعرف الآن لمثال لبحث تطبيقي وتقييمي، وهو البحث الذي أجراه قسم الرفاهية الاجتماعية في جامعة ماسوشيتس *Massachusetts* لتقييم خدمات الصحة النفسية والعقلية التي تقدم للفقراء تحت الإشراف الطبي لمؤسستين محددتين في عام ١٩٧٩، وحيث قام الباحثون بمقارنة الخدمات المقدمة للمشاركين الذين يتلقون عدداً من التسهيلات المختلفة لتدابير الرعاية الصحية النفسية بمن لم يتلقوا علاجاً. وكان ذلك غاية في التعقيد والصعوبة بسبب اتساع الدراسة وشمولها لمعظم الجوانب التي تتضمنها أنماط البحوث الأخرى والتي تمت مناقشتها قبلاً، إن الدراسة قامت بتقييم الخدمات المقدمة لمستحقيها على نحو دائم ومستمر، وبالرغم من ذلك فإن الدراسة غلب عليها الطابع التكويني لأنها كانت تهدف إلى صياغة عدد من التوصيات بغرض إدخال تحسينات مستقبلية على نوعية هذه الخدمات، ولم تكن تهدف إلى إيقاف البرنامج وإنهائه. ولذلك احتوت الدراسة على جوانب تتعلق بتقييم الأثر والتأثير، حيث ركزت على دراسة الفوائد الفعلية التي عادت على المشاركين أو متلقي الخدمات الصحية النفسية من خلال برامج الخدمات، كما احتوت أيضاً على جوانب تركز على تقييم العملية ذاتها والتي يتم خلالها تحليل النظام إلى عناصره ومكوناته، وبيان كيف تعمل هذه العناصر والمكونات في منظومة واحدة متكاملة وفعالة. ولكنها كانت منذ بدايتها دراسة لتحديد القيمة الفعلية وحساب الفائدة المتحققة من تقديم هذه الخدمات، ولقد تم حساب وتقدير قيمة التكلفة في شكل الدورات التي عقدت لتنفيذ هذا البرنامج. أما الفوائد فقد كان من الصعوبة قياسها بغرض تقديرها. وكان أحد الصعوبات البسيطة بالنسبة لقياس الفائدة، هو تقدير وقياس عدد ساعات العلاج التي يتم تقديمها للعملاء، وكان من بين العقبات الأكثر صعوبة في هذه الدراسة هو تحديد أنماط الأمراض النفسية

ومعدلات انتشارها والتي تم تشخيصها وتوجيه الأفراد المرضى لتلقي العلاج الذي يتم وصفة من قبل الاختصاصيين، وبيان كيف إذا تلقى أحد المرضى تشخيصاً جاداً لنوعية المرض النفسي، وكذلك علاجاً فعالاً وقوياً، في مقابل مريض آخر واجه تشخيصاً ضعيفاً للمرض. وهنا يحق لنا أن نتساءل أيهما أكثر استفادة من وضع البرنامج وتنفيذه. ونحن نرى أنه من المستحيل تقديم إجابة قاطعة ونهائية على هذا السؤال.

ثالثاً- البحوث لكمية في مواجهة البحوث الكيفية:

تهتم البحوث الكمية بقياس الظواهر والأشياء والتعبير الكمي العددي عنها، بينما تهتم البحوث الكيفية بتقدير كيفية وجود الأشياء ووصفها النوعي أو الكيفي. مثال ذلك لو أن أحد الطلاب يدرس في برنامج للتربية الخاصة داخل بيئة مدرسية معينة، فإن البحث الكيفي *Qualitative Research* سيكون محور اهتمامه هو الكشف عن مشاعر الطلاب والآباء والمدرسين تجاه هذا البرنامج، وبيان كيفية تفاعلهم ورود أفعالهم وخبراتهم مع هذا البرنامج. بينما نجد في المقابل البحث الكمي سيكون مهتماً برصد وتقدير مدى التقدم العلمي والنفسي والاجتماعي للطلاب المشاركين في هذا البرنامج وبالتعبير الكمي العددي عن هذا التقدم.

ويعني هذا أن في البحث الكمي تحتل موضوعات القياس أهمية أساسية، بينما يكون تركيزه واهتمامه أقل بشأن استكشاف معاني الخبرات الفردية الشخصية لمن يعيشون هذه الخبرات ويخبرونها. فمدخل البحوث الكمية لا ينكر ولا يتجاهل الخبرات الشخصية للأفراد والمعاني التي يخلعها الأفراد على هذه الخبرات وتأويلهم لها، وإنما هو يركز على الخبرات التي يمكن تقديرها وقياسها قياساً كمياً وباستخدام مقاييس معينة حتى يمكن دراستها دراسة علمية. وفي هذا الإطار تطرح مسألة أهمية فلسفة العلم، وكيف تساعدنا العلوم في صياغة بحث بأسلوب منظم.

رابعاً- استخلاصات أساسية وأسئلة:

١- يمكن استناداً لما جاء في هذا الفصل أن نعـرف البحـث العلمـي بأنـه طريقـة عقلانية منظمة، ومقصودة، ودقيقة لتقـديم إجابـات علـى التـساؤلات المتعلقـة بالعالم الطبيعي والاجتماعي الذي نعيش فيـه، ومـن شـأن هـذه الإجابـات أن تمكننا من التعامل مع هذا العالم بكفاءة واقتدار من خلال مـا يتحقـق لنـا مـن فهم ومعرفة الظواهر هذا العالم،والتحكم فيها وضـبطها، ثـم التنبـؤ بمـساراتها المستقبلية.

٢- توجد أربعة أنماط رئيسية للبحوث العلمية:

أ- البحث الوصفي وهو يقيس ويـصف الحالـة الجاريـة لنظـام مـا، أو الوضـع الراهن لظاهرة وصفا دقيقاً محدداً وموضوعياً بمعنى أن يكـون هـذا الوصـف أقرب لما هو عليه في الواقع وبالفعل ولكـن دون تقـديم أي تفـسيرات، والتنبـؤ بما سيحدث في المستقبل، أو حتى تغييرها.

ب- البحث الكشفي الاستطلاعي نلجأ إليـه عنـدما نكـون بـصدد بحـث ظـاهرة جديدة لم يقربها البحث العلمـي قـبلاً، ولا تتـوافر عنهـا أيـة معرفـة سـابقة ويعرض هذا البحث الانطباعات الأوليـة التـي تتكـون لـدى الباحـث والتـي تساعد فيما بعد في تكوين أفكـار رئيـسية وواضـحة بـشأن تحديـد الظـاهرة وبيان أبعادها. ويتميز البحث الاستكـشافي بثـراء المعلومـات والبيانـات التـي تتوافر عن طريقه والتي يمكن استخدامها فيما بعد لبناء نظرية مترابطة.

ج- البحوث النظرية وتهتم هذه النوعية من البحـوث بالاختبـار المـنظم لنظريـات محددة والتحقق منها. وهذه البحوث مهمة فـي معرفـة وتفـسير كيفيـة حـدوث الأشياء والظواهر وتحقيـق فهـم يتـسم بـالعمق والـشمول للأسـباب والعلـل الفاعلة.

د- وتهدف البحوث التطبيقية إلى المساعدة في اتخاذ قرارات واقعية. وعندما يكون تصميم البحث التطبيقي بغرض تحديد وتقدير فاعلية برنامج معين، فإنه في هذه الحالة يسمى بحثاً تقييمياً. وتهدف التقييمات الكمية إلى النظر في فاعلية برنامج معين، بينما التقييمات التكوينية تقدم توصيات لإدخال تحسينات على البرنامج في المستقبل بغرض تجويده وتعظيم الفائدة منه. وإذا كانت تقييمات التأثير والفاعلية تركز على الفاعلية الكلية للبرنامج المعني، فإن تقييمات العمليات تهتم بالتفاصيل الخاصة بعمل البرنامج وتشغيله. بينما نجد تقييم وتحليل قيمة التكلفة تهدف إلى المقارنة بين تكلفة البرنامج أي مدخلاته، والفوائد المتحققة منه أي مخرجاته. ويعد هذا مسألة غاية في الصعوبة.

وتتحدد الصعوبات التي يواجهها الباحث في البحوث التطبيقية في افتقار الباحث للقدرة على التحكم في متغيرات الموقف، أو تفاعل الأفراد المشاركين في البرنامج، أو مفردات البحث في مواقف معينة على نحو غير محبب أو مقبول من الباحث، كما أنهم يمكنهم تغيير نتائج البحث، وهناك بعد ذلك الخلاف بشأن تحديد العوامل والمتغيرات التي يمكن قياسها، وكيفية إجراء هذا القياس، وتفسير النتائج النهائية.

٣- يهتم البحث العلمي بالقياس الكمي، وعادة ما يتم التعبير عن نتائج هذا القياس بالأرقام والإحصاءات وهو ما يمكن أن نسميه بعملية تكميم الظواهر أو التعبير الكمي عنها. وهو يختلف بالقطع عن البحث الكيفي الذي يهتم بالمعاني الفردية التي يخلقها الأفراد على المواقف الحياتية التي يجبرونها ويعيشونها وعلى تأويلهم لهذه المواقف والخبرات.

وفيما يلي أسئلة عن المادة العلمية الواردة في هذا الفصل:

١- ما هو تعريف البحث العلمي؟

٢- ما الأنواع أو الأنماط الأساسية للبحوث والتي تمت مناقشتها في هذا الفصل؟

٣- ما الأهداف الخاصة لهذه الأنماط البحثية؟

٤- ما أهم الصعوبات التي تواجه هذه الأنماط من البحوث؟

الفصل التاسع

القياس والتحليل الإحصائي

١-أهمية الإحصاء في البحث العلمي الاجتماعي.

٢-مستويات القياس:

أ- المستوى التصنيفي.

ب- المستوى الترتيبي.

ج- المستوى الفئوي الفارق.

د- القياس النسبي.

٣-التحليل الأحادي.

٤-التكرار النسبي والتكرار المئوي.

٥-التوزيع التكراري.

٦-الأرقام التقريبية والأرقام الصحيحة.

٧-أنواع القيم.

الفصل التاسع

القياس والتحليل الإحصائي (*)

١- أهمية الإحصاء في البحث العلمي الاجتماعي:

يعرف علم الإحصاء بأنه علم تجميع وتنظيم البيانات والمعلومات (الإحصاءات) عن طريق تبويبها وعرضها ثم تلخيصها في مقاييس ومؤشرات لإبراز معالمها وخصائصها وتحديد العلاقات بينها واستكشاف وتفسير الحقائق غير الظاهرة والتنبؤ بالمستقبل بطرق علمية تحليلية منظمة.

وبالتالي فنحن في علم الإحصاء نكون بصدد حزمة من الطرق والأساليب والوسائل والنظريات العلمية التي تهدف إلى جمع وتصنيف وتبويب وعرض ووصف وتحليل البيانات لاستخراج النتائج والمؤشرات واختيارها لاستخدامها في أغراض التنبؤ والتقدير واتخاذ القرارات والبحث العلمي.

وقد بدأت معرفة الإحصاءات منذ العصور القديمة عن طريق حصر وعد السكان وحصر موارد الدولة ونفقاتها، ثم تطورت ابتداءًا من العصور الوسطى حيث ظهرت الحاجة الماسة في الحروب والغزوات لحصر الأفراد والمعدات والتنبؤ بإمكانيات وموارد الأعداء المادية والبشرية ومساعدة الدول على تحديد الضرائب وجبايتها وتسجيل الإحصاءات الحيوية عن المواليد والوفيات. واعتبارًا من بداية القرن الثاني عشر أدى التطور في علوم الرياضيات وخاصة في نظرية الاحتمالات إلى استخدامها بتوسع في علم الإحصاء وخدمة نظرياته وبدأ التطور في علم الإحصاء بعد أن كان قاصرًا على الحصر والتجميع والتسجيل إلى القياس والتحليل ثم بدأ استخدام علم الإحصاء بتوسع في الصناعة وذلك بعد الثورة الصناعية التي ظهرت في بريطانيا وأواسط أوروبا، وتطور علم الإحصاء ليخدم الباحثين في مجالات العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية

(*) Dencan Cramet, Introducing Statistics for Social Research, Routledge, London and New York, 1994. pp.13-25.

وذلك بفضل كثير من العلماء من أصحاب النظريات التي أثرت في أساليب التحليل والقياس. ولذلك أحتل علم الإحصاء مكانة بين العلوم الأخرى باعتباره الأساس في عمليات التخطيط وإجراء البحوث لدراسة الظواهر المختلفة، لما يقدمه علم الإحصاء من بيانات موضوعية تساعد على معرفة حقيقية ومسببات الظواهر.

وتعتبر العلوم الاجتماعية المجال الثري والخصب للإحصاء حيث تستخدم في مختلف البحوث الاجتماعية الميدانية في تفريغ البيانات والوصف الكمي للظواهر والكشف عن المتوسطات والانحرافات ومعاملات الارتباط بأنواعها. ولا ننسى التطور المذهل في الحاسبات الآلية وقدرتها الهائلة ودقتها المتناهية وسرعتها الفائقة في استخدام البرامج الإحصائية بكثافة عالية جدًا لخدمة التنمية على كل المستويات ومساعدة العلماء والباحثين في البحوث والدراسات لحل مشاكل البيئة والمجتمع، ولا ننسى دور شبكات الإنترنت والأقمار الصناعية والتي جعلت المجتمع الدولي قرية صغيرة جدًا صريحة وواضحة المعلومات والملامح.

ومن المهام والوظائف الأساسية والمهمة للعلوم الاجتماعية والسلوكية أنها تقوم بتطوير فروض من شأنها أن تنير بصيرتنا لفهم جديد ومتطور للسلوك الإنساني. وهذه الفروض قابلة للتحقق من صدقها باختبارها من خلال الملاحظات الإمبريقية المنهجية والمنضبطة علميًا للسلوك الإنساني. وبمعنى آخر، فإن صدق الفروض Validity يتطلب اختبارها من خلال البحث الإمبريقي الموجهة كلما كان ذلك ممكنًا. وإذا ما كانت البيانات التي تم الحصول عليها لا تتوافق ولا تكفي لاختبار صدقية الفروض وفحصها، فإن الأمر يتطلب عندئذ إعادة صياغة الفروض وتعديلها حتى يمكن التحقق منها واختبارها. وعلى نحو مغاير، فإن الطريقة التي تتم من خلالها الملاحظات المضبوطة منهجيًا قد تكون غير صحيحة وتنطوي على أخطاء من نوع ما،

فإن الأمر يتطلب في هذه الحالة ضرورة إعادة جمع قاعــدة جديــدة مــن البيانــات والمعلومات. ولنفترض، على سبيل المثال، أننا في حاجــة لاختبــار الفكــرة القائلــة بأن الأفراد الذين لديهم ميول قوية للهيمنة والسيطرة علـــى غيــرهم يكونــون أكثــر احتمالاً لإقامة علاقات مع شركاء، ورفاق وزمــلاء لــديهم ميــول قويــة للخــضوع والإذعان لغيرهم ولكن ليس لدينا أيــة وقــائع وأدلــة لــدعم وتأييــد هــذه الفكــرة وإثبات صحة هذه العلاقة. فــي هــذه الحالــة ســيكون مــن الــضروري أن نقــوم بصياغة فرض علمي أكثر دقة وتحديدًا بــاقتراح أن الأفــراد الــذين ينزعــون إلــى الهيمنة والسيطرة على غيرهم يكونون أكثر مــيلاً ويفــضلون إقامــة علاقــات مــع من يفضلون التبعية والخضوع لغيرهم. ثم اختبار وتجريــب هــذا الفــرض. وعلــى الجانب الآخر، فإن اختبار السيطرة / والخضوع قــد يكــون غيــر ملائــم للتحقــق من الفرض الذي صمم من أجله ومن ثم يجــب تعديلــه أو اســتبداله بمقيــاس آخــر يكون أكثر ملائمة للتحقق من هذا الفرض.

وتقوم الإحصاءات بــدور حيــوي ومهــم فــي عمليــات جميــع، وتلخــيص وتأويل البيانات التــي تــم جمعهــا وإعــدادها ابتغــاء لاختبــار صــحة الفــروض إمبيريقيًا ومن ثم، فإن فهم هذه القضية المهمة ضروري مــن أجــل التقــويم النقــدي للبحث الإمبريقي ومن أجل تنفيذ خطــوات البحــث أيــضًا ومــن أجــل أن نكــون قادرين على التقويم النقدي للبحوث. أن الوظيفة التي تقــوم بهــا الإحــصاءات هنــا في البحث الاجتماعي أنها توضح بشكل أفضل ومختــصر الطــرق التــي تتــضمن عمليات اختبار الفروض. لنأخذ مثالاً علــى ذلــك، الفكــرة البــسيطة القائلــة بــأن الناس تميل إلى المحاكاة والتقليد وإعادة إنتاج مــا يــشاهدونه فــي مجــرى حيــاتهم اليومية. أما إذا كان هذا صحيحًا، فــإن مــن المفتــرض مــثلاً، أن الأفــراد الــذين يشاهدون مشاهد العنف فــي التليفزيــون ســيكونون أكثــر مــيلاً لتقليــد ومحاكــاة وإعادة إنتاج هذه المشاهد مرة ثانية فــي حيــاتهم اليوميــة أكثــر مــن الــذين لــم يشاهدوا هذه المشاهد العنيفة قبلاً. إن أحد الطــرق المهمــة لاختبــار صــحة هــذه

الفكرة أو الفرض هي أننا نقوم باختيار مجمـــوعتين مـــن الأفـــراد المتمـــاثلين فـــي جميع الخصائص الفردية والاجتماعية عـــدا خاصـــية واحـــدة هـــي التـــي نحـــاول اختبارها ثم نقـــوم بتعـــريض المجموعـــة الأولـــى وتـــسمى المجموعـــة التجريبيـــة Experimental لأفلام فيديو تحتوي على مشاهد عنـــف، بينمـــا المجموعـــة الثانيـــة وتسمى المجموعة الضابطة control نشاهد أفلامًا أيضًا ولكنهـــا تخلـــو تمامًـــا مـــن أية مشاهد وأحداث عنيفة.

وبعد مشاهدة المجموعتين للأفلام، يتعين علينا ملاحظـــة ســـلوك أفرادهـــا فـــي مواقف معينة وأوضاع متماثلة ونقوم بتسجيل مـــا نلاحظـــه مـــن ســـلوك عـــدواني يصدر عن أي منهما شريطة ألا يكون هناك أي نوع مـــن الاســـتفزاز الـــذي يبـــرر هذا السلوك.

وبافتراض أن الأفراد الذين شاهدوا وقـــائع وأحـــداث العنـــف أظهـــروا عنفًـــا أكثر في سلوكهم، بينما الآخرون الذين لم يتعرضـــوا لمـــشاهدة العنـــف لـــم يـــصدر عنهم أي سلوك يتسم بالعنف. وقيـــل تلخـــيص هـــذه النتـــائج التـــي تؤكـــد وتعـــزز الفرض الذي سبق صياغته وبأن الأفراد يميلون إلـــى إعـــادة إنتـــاج ومحاكـــاة مـــا يشاهدونه من مشاهد وأحداث عنف في التليفزيـــون والـــسينما: هنـــاك فـــي النهايـــة أمرين أو اعتبارين متعلقين بالإحصاءات يجب أخذهما في الاعتبار.

الأول أن المشاركين في التجربة يجب اختيـــارهم بـــشكل عـــشوائي بمعنـــى أن يكون أمام كل المفردات التي تشكل فـــي مجموعهـــا المجتمـــع الأصـــلي للبحـــث أو جمهور البحث فرص متكافئة ومتساوية للدخول في العينة بالنسبة للمجوعتين.

الثاني أن الفروق في السلوك العدواني الملاحـــظ بـــين المجمـــوعتين يكـــون ذا دلالة إحصائية الأمر الذي يعني إن احتمال الصدفة يكـــون بنـــسبة أقـــل مـــن واحـــد في العشرين. إننا وبالنظر إلى المثـــال الـــسابق يمكننـــا أن نحـــدد مراحـــل البحـــث الإحصائي على النحو التالي:

١- مرحلة جمع البيانات من السجلات والدفاتر والقوائم والمراجع المختلفة أو من الميدان عن طريق قائمة استقصاء.

٢- مرحلة تصنيف وتبويب البيانات في جداول إحصائية.

٣- مرحلة عرض البيانات في أشكال ورسوم بيانية لتفسير الظواهر والتعبير عنها.

٤- مرحلة القياس لتلخيص البيانات وتفسيرها وتحديد العلاقات بينها باستخدام النظريات والمقاييس والأدوات الإحصائية المختلفة.

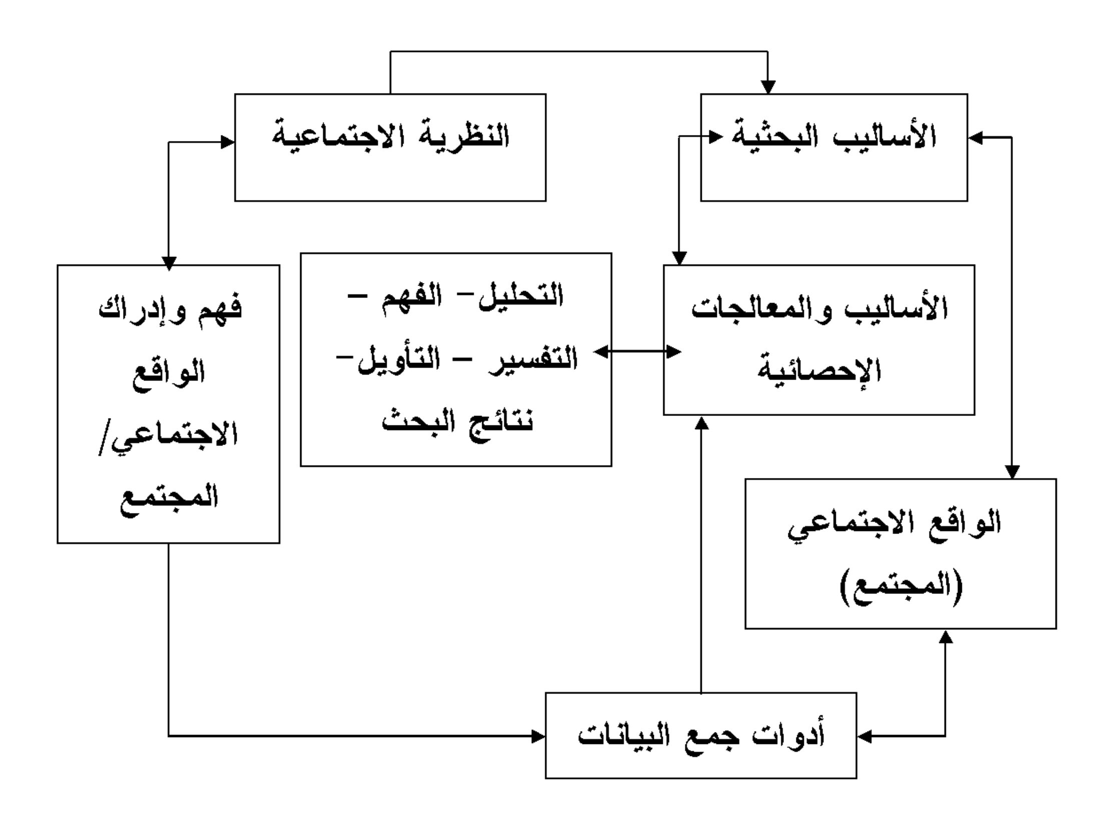
٥- مرحلة التحليل والاستنباط واستقراء النتائج والتنبؤ بالظواهر مستقبلاً.

ويرتبط الأسلوب الإحصائي بالطبع بالمدخل الوصفي/ الكمي في علم الاجتماع. وهو ينزع إلى التعبير العددي والكمي للمظاهر والأحداث والوقائع التي يحتويها الواقع الاجتماعي. ويذهب إلى أن هذه المظاهر والأحداث والوقائع يمكن قياسها قياسًا كميًا. والحقيقة أن عددًا قليلاً للغاية من بين علماء الاجتماع لا يستخدمون الإحصاءات في بحوثهم وكتاباتهم. وعلى الرغم أنه من المعروف أن الإحصاء ليست حقائق بسيطة، وإنما تتم عملية خلقها وتكوينها كجزء من العمليات الاجتماعية. وبعبارة موجزة، فإننا سنتناول في هذا الجزء توضيح هذه العمليات مع الإشارة بصفة خاصة لمقاييس الانحراف والتشتت. وقبل تناولنا للإحصاءات يجب أن نأخذ بعين الاعتبار العمليات التي تتم من خلالها إنتاج هذه الإحصاءات، والطبيعة الإشكالية للإحصاءات في مناطق سوسيولوجية أخرى.

ولتبسيط الموضوع إلى حد ما، يمكننا القول بأن الإحصاءات يتم إنتاجها إما كنتائج لمشروع بحث معين وهي ما تعرف بالبيانات الأولية أو الخام Primary Data، أو يتم جمعها لأغراض أخرى، وغالبًا ما تتم عملية جمع البيانات هذه بواسطة هيئات حكومية وتسمى في هذه الحالة بالبيانات الثانوية

Secondary Data. وفي الحـــالتين نحـــن نـــرى أن الإحـــصاءات Statistics يـــتم إنتاجها في سياق اجتماعي بالضرورة وذلك علـــى النحـــو الـــذي يوضـــحه الـــشكل التالي:

شكل تخطيطي يوضح موقع الإحصاء في البحث العلمي الاجتماعي



وقد تم تقسيم علم الإحـــصاء إلـــى قـــسمين منفـــصلين الأول، هـــو الإحـــصاء الوصفي، وهو يهتم بالتعامل مع البيانات الأولية الخـــام بهـــدف إظهـــار خصائـــصها من خلال مراحـــل البحـــث الإحـــصائي الأربعـــة الـــسابقة وهـــي جمـــع وتبويـــب وعرض البيانات. والثاني هـــو الإحـــصاء التحليلـــي، وهـــو علـــم الاســـتنباط عـــن

طريق التخطيط والتقدير والتنبؤ بالمستقبل بهدف صنع القرارات المختلفة. ويختص الإحصاء التحليلي بالمرحلة الخامسة من مراحل البحث الإحصائي ويشمل نظريات الاحتمالات وتوزيعاتها ونظريات العينات، واختبار الفروض الإحصائية.

ويتسم التحليل الإحصائي بقدرته على قياس وحساب الكثير من صفات الظواهر والأشياء والأمور التي نهتم بها في حياتنا اليومية. ويعني القياس التعبير الرقمي عن الملاحظات التي قمنا بها وفق قواعد علمية محددة. ونحن نستخدم الإحصاءات والعمليات الإحصائية لتعيين ووصف الاستنتاجات التي توصلنا إليها من الملاحظات الأمبيريقية - ومن الممكن أن نحدد أربعة مستويات أو مقاييس إحصائية يتم الإشارة إليها غالباً في المناقشات التي تتناول أنماط وأنواع العمليات والإجراءات الإحصائية والتي يتم خلالها استخدام أنواع مختلفة من المقاييس الإحصائية. وعلى الرغم من أن كل مستوى من مستويات القياس الإحصائي له خصائصه التي تميزه عن بقية المستويات؛ إلا أن هذه المستويات جميعها تأخذ شكلاً هرمياً متدرجاً يبدأ من المستويات الأعلى والتي تنطوي على خصائص أكثر تعقيداً، وصولاً إلى المستويات الأدنى التي تنطوي بدورها أيضاً على السمات الأساسية للمستويات الأعلى. وفيما يلي نعرض لهذه المستويات.

٢- مستويات القياس:

أ- المستوى التصنيفي **Categorical Level**:

وهو المستوى الأدنى والأكثر تبسيطاً من مستويات القياس. فالأرقام أو الأعداد يتم استخدامها ببساطة هنا فقط من أجل تحديد ووصف السمة أو الخاصية أو الفئة المراد وصفها ومن هنا كانت تسمية هذا المستوى بالوصفي Nominal فنحن نرمز في استمارة الاستبيان مثلاً إلى نوع المبحوثين الأنثى تأخذ رقم (١)، والمبحوث الذكر يأخذ رقم (٢).

النوع- أنثى (١)

ذكر (٢)

كما نرمز لمحل ميلاد المبحوثين في الريف برقم (١) والحضر برقم (٢)

محل الميلاد- ريف (١)

حضر (٢)

وعلى نحو مماثل تكون المعالجات في البحوث الأمبريقية التي نقوم بإجرائها. فعلى سبيل المثال نرمز للمبحوثين الذين يشاهدون أفلام العنف في التليفزيون برقم (١)، والمبحوثين الذين لم يشاهدوا هذه النوعية من الأفلام برقم (٢). ويتم هذا التحديد للأرقام بشكل تحكمي وتعسفي بمعنى أنه من الممكن أن تكون الأرقام في المثال الأخير (٥) لمن يشاهدون أفلام العنف، و (٩) لمن لم يشاهدوا هذه النوعية من الأفلام. والأرقام هنا لا تحمل أية دلالة كمية وبالتالي ليس من المعقول أن تجري عليها أي عمليات حسابية كالجمع والطرح والضرب والقسمة. وإنما العملية الحسابية الوحيدة المقبولة هنا هو عدد تكرار كل رقم فمن الممكن أن يكون لدينا ٦ تكرارات لرقم (١)، وأربعة تكرارات لرقم (٢) مما يعني أن لدينا ٦ إناث، وأربعة ذكور من المبحوثين. وتعرف البيانات التي تتوافق مع هذا المستوى من القياس بأنها بيانات تكرارية أو فئوية وحيث تستخدم الأرقام لتعريف الناس أو الموضوعات في الدراسات الأمبريقية. كما يتضمن هذا المستوى من تصنيف البيانات الخام حول الظواهر التي نقوم بدراستها وبحثها حيث يتم التعبير عن هذه الظواهر بلغة الأرقام وتحويلها إلى بيانات كمية تمهيداً لإخضاعها للمعالجات الإحصائية. وتكون هذه البيانات الرقمية كثيرة وذات قيم متباينة قد تكون متقاربة أو متباعدة وبالتالي فهي تحتاج إلى تصنيفها في فئات ثم وضعها في جدول يلخص خصائصها ويساعدنا على استخلاص النتائج المرتبطة بها. ونلاحظ أن هذه البيانات يتم تصنيفها على أساس كمي ونوعي.

إن المتغيرات المتعلقة بالظاهرة التي نقوم ببحثها يمكن أن تصنف على أساس كمي، فالمتغيرات الخاصة مثلاً بحجم الدخل الشهري للأسرة، أو الخاصة بأعمار المبحوثين، أو عدد أفراد الأسرة، أو عدد حجرات المسكن هذه جميعها يمكن التعبير الكمي عنها ومثال ذلك:

- إجمالي الدخل الشهري للأسرة : (١) أقل من ٥٠٠ جنيه ( )
(٢) ٥٠٠ - ( )
(٣) ١٠٠٠- ( )
(٤) ١٥٠٠ - ( )
(٥) أكثر من ٢٠٠٠ جنيه ( )

- الفئات العمرية: (١) أقل من ٢٠ سنة ( )
(٢) ٢٠ - ( )
(٣) ٢٥ - ( )
(٤) ٣٠ - ( )
(٥) ٣٥ - ... وهكذا ( )

أما المتغيرات الكيفية مثل الحالة الزواجية، والمستوى التعليمي، والحالة المهنية ففي الحالة الزواجية مثلاً تكون الفئات:

- الحالة الزواجية: (١) أعزب ( )
(٢) متزوج بواحدة ( )
(٣) متزوج بأكثر من واحدة ( )
(٤) أرمل ( )
(٥) مطلق ( )

(٦) منفصل أو هاجر ( )

وفي المستوى التعليمي تكون الفئات:

-المستوى التعليمي : (١) أمي ( )

(٢) يقرأ ويكتب ( )

(٣) الابتدائية ( )

(٤) الإعدادية ( )

(٥) الثانوية ( )

(٦) الجامعي ( )

ب- المستوى الترتيبي: **Ordinal**

وهو المستوى الثاني الأعلى للقياس حيث تشير الأرقام في هذا المستوى إلى تزايد الدرجات في صفة أو خاصية معينة. ويطبق هذا النوع من القياس على الأفراد والموضوعات والأحداث والوقائع حيث يكون الترتيب من الأدنى إلى الأعلى في تقييم خصائص وسمات معينة لديهم. فعلى سبيل المثال يمكننا أن نرتب المبحوثين المشاركين في تجربة بحثية بحسب مستوى العدوانية لدى كل منهم ابتداء من رقم (١) الذي يشير إلى أقلهم عدوانية وتتصاعد الأرقام حتى رقم (١٠) الذي يشير إلى الأكثر عدوانية. ونلاحظ هنا أن الفرق بين الأرقام لا يمثل في الحقيقة كميات متساوية للخاصية التي نقوم بقياسها. فالفرق مثلاً في درجة العدوانية بين شخص رتبة (٢)، وآخر رتبة (٤) لا يكون بحال هو ذات الفرق بين شخص رتبة (٦). وآخر رتبة (٨). ووفقاً لهذا التحليل المتقدم فإن الأرقام هنا لا تعبر عن كميات مطلقة. فإذا كان شخص رتبته (٨)، فإن هذا لا يعني بالضرورة أن مستوى عدوانيته يكون ضعف مستوى عدوانية الآخر الذي رتبته (٤). وفي حالات بعينها نجد أنه من الصعوبة بمكان التمييز

والتفرقة بين الحالات وبالتالي يصعب ترتيبها وفق نظام معين. وفي هذا الموقف فإن الحالات المترابطة يمكن أن تأخذ نفس الرقم.

ج- المستوى الفئوي أو الفارق **Interval** :

ويتميز هذا المقياس الفئوي بتوحيد نوع وحدة القياس بحيث أنه لا يمكننا قياس الفرق بين درجتي حرارة إحداهما بالفهرنهايت والأخرى بالدرجة المئوية – كما أن المدى أو الفرق بين الدرجات في الوحدة القياسية الواحدة يكون متساوياً. فالفرق بين قراءتين للترمومتر ٥ درجات، و١٠ درجات هو نفس الفرق بين القراءتين ١٥ درجة، و ٢٠ درجة على ذات الترمومتر. وتتميز المقاييس الفئوية أيضاً بإمكانية إخضاعها للعمليات الحسابية المختلفة كالجمع والطرح والضرب والقسمة فمن الممكن إضافة دخل الزوج إلى دخل الزوجة لحساب إجمالي الدخل الشهري للأسرة كما أن الدرجة الواحدة في هذا المقياس يمكن تقسيمها إلى أقسام متساوية فالدرجة الواحدة على الترمومتر يمكن تقسيمها إلى خمسة أقسام متساوية يمثل كل منها ٠,٢ من الدرجة وهكذا ...

د- القياس النسبي **Ratio:**

ويعتبر من أرقى مستويات القياس وهو يتضمن كل خصائص المستويات السابقة الأدنى منه، على عكس المستويات السابقة يتضمن هذا المستوى وجود الصفر المطلق مما يعني أن القيمة التي تكون ضعف قيمة أخرى فإنها تعكس بالفعل ضعف القيمة للخاصية التي تقوم بقياسها. وإذا أخذنا عمر المبحوثين كمثال للقياس النسبي فإننا نجد أن المبحوث الذي يكون عمره ٢٠ سنة يكون ضعف عمر المبحوث الذي يكون عمره ١٠عشر سنوات.

وقد عالج الكثير من علماء الاجتماع ما يبدو أنه قياس ترتيبي Ordinal كما لو كان قياساً فارقاً أو قياساً نسبياً. لنفترض مثلاً أننا طورنا قياساً نسبياً بسيطاً لتطبيقه على مجموعة من المبحوثين لتقرير إلى أي مدى يعتبرون

أنفسهم أشخاصاً عدوانيين. سوف يتضمن القياس النسبي هنا أربعة نقاط تمثل بدورها درجات متتالية من العدوانية بحيث أن:

عندما أنظر إلى نفسي، فإنني أجدني:

(صفر) غير عدواني ( )

(١) عدواني بدرجة بسيطة ( )

(٢) متوسط العدوانية ( )

(٣) شديد العدوانية ( )

ويكون على المبحوث في هذه الحالة اختيار الرقم الذي يعبر عن درجة عدوانيته وبالرغم من أن المقياس يتضمن صفراً إلا أنه ليس قياساً فارقاً أو قياساً نسبياً. ولكن لا شك في أن الفرق والاختلاف في درجة العدوانية بين من حصلوا على (صفر) ، ومن حصلوا على (١) هو ذات الفرق بين من حصلوا على (٢)، ومن حصلوا على (٣) وعليه فإن هذا المقياس هو مقياس ترتيبي بسيط ترتب فيه الأرقام والقيم بذكر الدرجات المتزايدة من العدوانية ولا شيء أكثر من ذلك.

٣- التحليل الأحادي:

بعد الانتهاء من جمع البيانات الخاصة بالبحث الذي نقوم به، فإننا نكون في حاجة لإجراء طريقة أو أكثر من طرق التحليل الأحادي والذي تكون فيه البيانات عبارة عن متغيرات فردية. مثال ذلك أننا نريد أن نعرف الحالة الزواجية للمبحوثين في بحث أجريناه، أو نريد أن نعرف العدد التقريبي للساعات التي يقضيها المبحوثين لمشاهدة التليفزيون في الأسبوع بالنسبة لكل مبحوث على حده. إن الحالة الزواجية هنا هي متغير وصفي، بينما ساعات مشاهدة التليفزيون هي متغير غير وصفي.

٤- التكرار النسبي والتكرار المئوي :

عندما نستخدم المتغيرات الوصفية ، فإن كل ما يمكننا عمله هو القيام بحساب تكرار المبحوثين الذين يشتركون في كل فئة من فئات المتغير، ثم تقوم بحساب العدد الإجمالي لكل فئة، ومجموع المبحوثين وحساب نسبة كل فئة من المجموع الكلي مثال :

الفئات	التكرار	التكرار النسبي	التكرار المئوي
- أعزب	١٠	٠,١٤	%١٤
- متزوج	٤٠	٠,٥٧	%٥٧
- مطلق	٢٠	٠,٢٩	%٢٩
المجموع	٧٠	١,٠٠	%١٠٠

إن الأعداد الموجودة داخل كل فئة تم التعبير عنها كنسبة وتناسب مع إجمالي العينة. وعليه فالتكرار النسبي للفئة الأولى تم الحصول عليه بقسمه التكرار الأصلي (١٠) على مجموع التكرارات ٧٠ أي المجموع الكلي للعينة.

$$\frac{١٠}{٧٠} = ٠,١٤٣$$

= ٠,١٤ بعد تقريبها لأقرب رقمين عشريين.

إذن التكرار النسبي لفئة ما هو تكرارها بالنسبة إلى التكرار الكلي لجميع الفئات. وبالتالي فنحن لا نكتفي في وصفنا للظواهر التي نقوم ببحثها بما توصلنا إليه من توزيع للقيم المرتبطة بها في الجدول التكراري، وإنما نحتاج لأن نعرف نسبة كل تكرار مقابل لكل فئة إلى التكرار الكلي. ولاحظ هنا أن

المجموع الكلي للتكرار النسبي يساوي دائماً واحداً صحيحاً ولا يكون أكثر من ذلك.

ويحتاج الباحث أيضاً إلى معرفة التكرار المئوي، أي النسبة المئوية لكل تكرار مقابل لكل فئة من الفئات المختلفة في الجدول التكراري. فإذا أردنا معرفة النسبة المئوية للمتزوجين في الجدول السابق فإننا نقسم عدد المتزوجين على إجمالي العينة ونضرب الناتج في ١٠٠ فنحصل على التكرار المئوي :

$$\text{النسبة المئوية للمتزوجين} = \frac{٤٠}{٧٠} \times ١٠٠$$

= ٥٧%

ونلاحظ أن وصف التكرارات باستخدام النسبة والتناسب يمكن أن يكون مفيداً عندما نقوم بمقارنة بعض المتغيرات ذات الأحجام المختلفة والموجودة في ذات العينة. فعلى سبيل المثال نفترض أننا نريد المقارنة بين عدد المتزوجين وغير المتزوجين في عينتين بحثيتين. في العينة الأولى نجد أن عدد الأفراد المتزوجين مجموعها ٧٠ فرداً بينما عدد المتزوجين ٣٠ في العينة الثانية المكونة من ٥٠ فرداً. نحن نجد أن المقارنة ستكون مقبولة وسهلة عندما نقوم بتحويلها إلى نسبة مئوية خاصة بكل عينة على النحو التالي:

الفئة	العينة الأولى		العينة الثانية	
	العدد	%	العدد	%
المتزوجون	٤٠	٥٧%	٣٠	٦٠%

مجموع العينة	٧٠		٥٠	

ونحن نلاحظ من المثال السابق أن النسب يمكن أن تكون مضللة خاصة إذا كان العدد الإجمالي للعينة صغيراً. فإذا كان لدينا عينة مكونة من ٧ سبعة أشخاص فقط فإننا نجد أن الفرد الواحد يمثل ما نسبته ١٤% من مجموع هذه العينة. وبنفس الطريقة إذا قمنا بتوسيع حجم العينة أي إذا زاد عدد أفرادها من ٧ إلى ٨ أفراد فإن مقدار الزيادة هنا سيكون ١٤% زيادة كبيرة بالرغم من أننا أضفنا شخصاً واحداً فقط. وعليه فإن ما يمثله الرقم أو دلالة الرقم تكون أكثر أهمية من حجمه المجرد أو المطلق.

ولكننا نجد بعض السمات والظواهر الاجتماعية والاقتصادية التي لا تتضمن باستمرار هذا البعد المتصل. وهي الظواهر التي يمكن قياسها كمياً ومن ثم تسمى بالقيم المنفصلة مثال ذلك في الحالة الزواجية والمستوى التعليمي:

- الحالة الزواجية: (١) أعزب ( )
(٢) متزوج ( )
(٣) مطلق ( )
(٤) أرمل ( )

-المستوى التعليمي : (١) أمي ( )
(٢) يقرأ ويكتب ( )
(٣) حاصل على الشهادة الابتدائية ( )
(٤) حاصل على الشهادة الإعدادية ( )
(٥) حاصل على الشهادة الثانوية ( )
(٦) حاصل على الشهادة الجامعية ( )

نلاحظ وجود انفصال تام بين القيم في الحالتين. أي لا يوجد اتصال بين فئة أعزب وفئة متزوج مثلاً، ولا بين الابتدائية والإعدادية وهكذا ...

٥- التوزيع التكراري Frequency Distribution:

التوزيع التكراري هو ترتيب للأرقام والدرجات الخام في شكل عدد تكرار أو مرات حدوث الصفة أو القيمة والتي نسميها بالتكرار. ويقوم التوزيع التكراري بمهمة التنظيم والتصنيف للبيانات والدرجات الخام وهو يكشف لنا عن بعض الدلالات والمؤشرات المتعلقة بالبيانات التي حصلنا عليها. ويمثل التوزيع التكراري مقدمة لكل العمليات الإحصائية.

٦- الأرقام التقريبية والأرقام الصحيحة من (١-٩):

عند قيامنا بقسمة رقم ما على رقم آخر فإننا نحصل على عدد من الأرقام يكون عادة أكثر من الرقم الأصلي. مثال ذلك.

$$\frac{١}{٣} = ٠,٣٣٣٣$$

وهو عبارة عن كسر عشري. والسؤال الآن هو كم عدد الأرقام البعض اقترح بأننا يجب أن يكون لدينا بشكل عام رقم واحد أو رقمين زيادة على الرقم الأصلي أي وحدة عددية واحدة أو وحدتين على سبيل الزيادة. فإذا ما قيدنا أنفسنا بالحصول على عددين فقط وقمنا بقسمة ١ على ٣ فإن النتيجة ستكون ٠,٣٣.

والقاعدة العامة في تقريب الأرقام هي أنه إذا كان الرقم اقل من ٥ فإننا نستبعده تماماً أو نسقطه أما إذا كان من ٥-٩ فإننا نسقطه ثم نضيف ١ إلى الرقم الذي يليه مباشرة.

مثال ذلك ٠,٣٣٣ تقريب إلى ٠,٣٣

٠,٣٣٦ تقرب إلى ٠,٣٤

القاعدة هنا أن الأرقام التي تساوي أو تزيد عن ٥ تقرب لأعلى، بينما يتم إسقاط الأرقام التي تقل عن ٥ يعني أن ٠,٣٣٥ تصبح ٠,٣٤، بينما ٠,٣٣٤ تصبح ٠,٣٣.

٧- أنواع القيم:

في الدراسات الميدانية نقوم باستخدام أدوات معينة كالمقابلة والاستبيان أو دليل الملاحظة أو أداة تحليل المضمون لجمع البيانات والمعلومات اللازمة للتحقق من الفروض أو للإجابة عن تساؤلات البحث نحن هنا نجمع بيانات متعلقة بالظواهر الاجتماعية التي نلاحظها أو نسأل الآخرين عن ملاحظاتهم بشأنها. وفي هذه الحالة نحصل على بيانات كمية وأخرى كيفية فمثلاً البيان الخاص بالدخل الشهري للأسر التي تم بحثها قد يكون ٢٣٠ جنيهاً، ٢٣٥، ٢٤٠، ...

ونلاحظ أن القيم المعبرة عن الدخل هنا من الممكن ألا يكون هناك أي فواصل بينها وإنما هناك اتصال فيما بينها على النحو التالي:

(٢٣٠) ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣، ٢٣٤ ، (٢٣٥)

ليس هذا فحسب بل أننا يمكن أن نتوقع اتصالاً بين كل قيمة والقيمة التي تليها على النحو التالي:

(٢٣٠) ٢٣٠,١ ، ٢٣٠,٢، ٢٣٠,٣ .... ٢٣٠,٩، (٢٣١) ويعني هذا أن هناك اتصالاً بين كل قيمة وأخرى. ونحن نجد مثل هذا الاتصال بشكل أدق عند قياس السمات الفسيولوجية للإنسان كالطول مثلاً أو الوزن ... إلخ.

ولكن دراسة الظواهر الاجتماعية لا تتضمن باستمرار هذا البعد المتصل، لأن هناك الكثير من الجوانب والنواحي لا يمكن قياسها قياسًا كميًا على النحو السابق. ونحن نطلق على هذه النواحي والجوانب تعبير القيم المنفصلة التي

يكون كل جانب منها قائم بذاته وليس له صلة بباقي الجوانب أو النواحي مثال ذلك الحالة التعليمية لمجموعة من المبحوثين نجد أنها تتوزع على النحو التالي:

أمي، يقرأ ويكتب، حاصل على الشهادة الابتدائية، حاصل على الشهادة الإعدادية، حاصل على الشهادة الثانوية، حاصل على شهادة جامعية.

أما الحالة الزواجية فيمكن أن تتوزع على النحو التالي:

أعزب، متزوج، مطلق، أرمل، منفصل أو هاجر.

ويتضح لنا هنا عدم الاتصال بين كل فئة والفئة التي تليها فلا يوجد مثلاً بين المتزوج والمطلق أي اتصال وإنما هناك انفصال تام بين كل فئة والأخرى.

مناهج البحث الاجتماعي

أسئلة وتطبيقات

أولاً- ناقش القضايا التالية:

١-ماهية العلم والمعرفة العلمية.

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

٢- ماهية المنهج العلمي واشتراطاته الأساسية.

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

٣- الأسلوب التجريبي فـــي البحـــث الـــسوسيولوجي وإمكانيـــة التجريـــب فـــي بحث الظاهرات الاجتماعية.

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

٤ - الحياد في البحث العلمي الاجتماعي وهم كوهم حياد الدولة.

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

ثانياً- " تستند الملاحظة بالمشاركة إلى تصور نظري يعتمـد المـدخل الكيفـي، ويؤكـد على الطابع التفاعلي والتفاوضي للنظام الاجتماعي الـذي يـتم خلفـة وتكوينـه من خلال المعاني التي يخلعها الفاعلون الاجتمـاعيون علـى أفعـالهم ومواقـف حياتهم، والتي يستخدمونها للشعور بالعـالم الاجتمـاعي وإدراكـه وفهمـه ثـم تأويلهم لهذا العلم" – ناقش العبارة موضحاً:

أ- أهم المداخل النظرية الـسوسيولوجية التـي تعتمـد الملاحظـة بالمـشاركة كوسيلة لجمع البيانات والمعلومات.

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

ب- أهميـــة وتكنيـــك الملاحظـــة المـــشاركة فـــي البحـــث الـــسوسيولوجي والأنثروبولوجي مدعماً بأمثلة مما درست.

....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....

ثالثاً- " قد يتناول الباحثون السوسيولوجيون مجتمعاً واحداً بعينه كموضوع لبحوثهم، إلا أنهم قد ينطلقون أيضاً من منطلقات نظرية متباينة تدفعهم للاهتمام البحثي بموضوعات وقضايا متباينة أيضاً، وتجعلهم ينتهون إلى نتائج قد تكون متعارضة ومتقابلة إلى أقصى حد".

ناقش القضية موضحاً مكونات ومراحل عملية البحث السوسيولوجي مدعماً بأمثلة بحثية.

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

رابعاً- "يقرر الباحث في البحث السوسيولوجي ما إذا كان سيقوم بدراسة جميع مفردات جمهور البحث، أم عينة منه تكون ممثلة له، أو صورة دقيقة مصغرة له" - ناقش العبارة موضحاً:

١- معنى جمهور أو مجتمع البحث وطريقة العينات.

٢- العينة العشوائية.

٣- العينة العشوائية الطبقية.

٤- عينة كرة الثلج.

٥- عينة الحصص النسبية.

٦- العينة القصدية.

٧- عينة الصدفة.

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

خامساً- عرف البحث السوسيولوجي موضحاً الأنماط الأساسية للبحوث السوسيولوجية.

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

سادساً- ما الأهداف التي تسعى إلى تحقيقها كل من البحوث الوضعية والاستطلاعية وبحوث النظرية، والبحوث التقييمية؟ وما الصعوبات التي تواجهها هذه الأنماط البحثية ؟

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

سابعاً- ناقش الموضوعات الآتية:

١ – الصدق والثبات.

٢ – الاستبيان.

٣ – المقابلة.

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

ثامناً- " المجتمع المصري، شان غير من المجتمعات العربية الأخرى، ما يزال يحيط الكثير من قضاياه الجوهرية والمصيرية بسياج من الممنوعات والمحرمات خاصة القضايا المرتبطة بالدين والسياسية والجنس، بل إن المصريين يصيرون أشد حساسية تجاه الدين لأنه يمثل لديهم بؤرة كل القيم الضابطة والموجهة حتى في سياقات السياسية والجنس، بل والحياة العامة بكليتها وشمولها..."

ناقش القضية، ثم تخير موضوعات للبحث من بين هذه المحرمات الثلاث وصمم خطة بحث سيوسولوجي لبحثها.

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
البحوث الكيفية: الملاحظة	

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة